حضرموت الثقافية

Hadhramaut AL-Thaqafiah Magazine - March - 2018 رجب ١٤٣٩هـ
مجلة فصلية - السنة الثانية العدد (7)

الموسوعة الحضرمية.. حلم يقترب من التحقق

أبوبكر سالم بلفقيه وقصيدته (ليلة الحد)

محاولة لفهم النص المحضاري

نبات الحوير، والنيل وكساء الأجداد

- من وثائق تاريخ إمارة آل بن بريك في الشحر
- النشاط الترجمي في حضرموت من خلال بعض التجارب
- الأشموس بين مهرة والصدف
- مصادر تاريخ حضرموت حتى القرن العاشر الهجري

بضه ... سلام للشعباء مائة مليون

من أعلام حضرموت

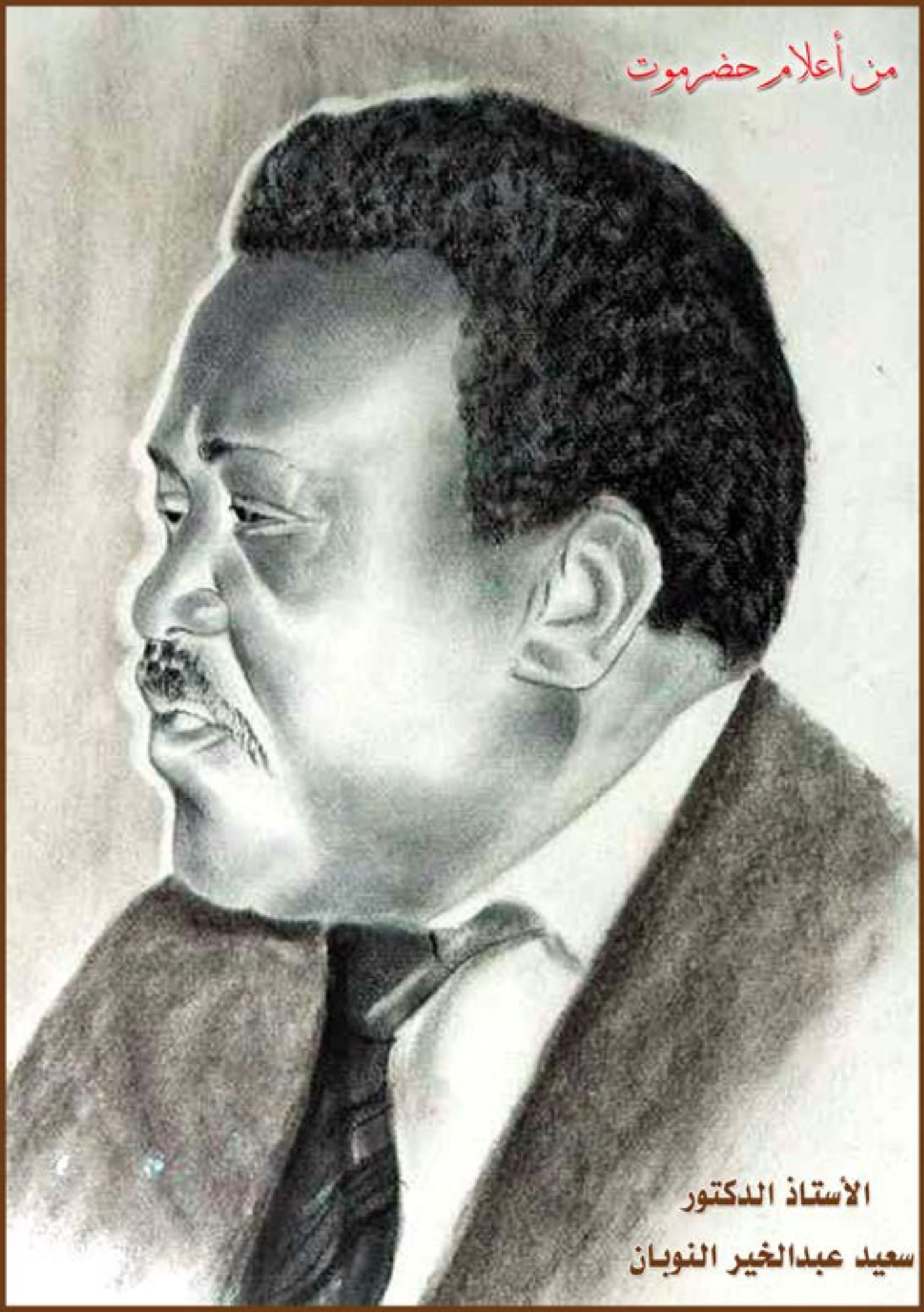

الأستاذ الدكتور

سعيد عبدالخير النوبان

محتويات العدد

حديث البداية

- (الموسوعة الحضرمية) حلم يقترب من التحقق ..... أ. محمد بن سالم بن علي جابر 4

أضواء

- من وثائق تاريخ إمارة آل بن بريك في الشحر ..... أ. د. علي صالح الخلاقي 11
- حضرموت في الدراسات والمؤلفات الببليوغرافية ..... د. حسن صالح الغلام العمودي 15
- مصادر تاريخ حضرموت حتى القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي ..... د. محمد يسلم عبدالنور 21
- الأشموس بين مهرة والصدف ..... اليخيت بن حسن العساني 27

تراث وآثار

- فنون الرسم والنحت وتطورها في حضرموت القديمة ..... د.حسين أبوبكر العيدروس 30
- نبات الحوير، والنيل وكساء الأجداد ..... محمد عيدروس علي السليماني 35

دراسات

- النشاط الترجمي في حضرموت من خلال بعض التجارب ..... أ.د. مسعود سعيد عمشوش 43
- ملاحظات على معجم شعراء العامية الحضارمة ..... أ.د. عبدالعزيز سعيد الصيغ 53
- لهجة حضرموت ..... محمد عوض محروس 57
- المدن والأماكن الحضرمية في نقش IR 31/32 ..... أحمد صالح الرباكي 62

مدارات

- في رحاب مخطوطات الأحقاف ١٩٨٢- ٢٠٠٢م ..... د. أحمد صالح رابضة 67
- غيل باوزير يجري في مدينة عدن ..... أمين سعيد عوض باوزير 72
- كتاب (حضرموت إزاحة النقاب عن بعض غموضها) «ملاحظات وآراء» ..... سالم محمد بجود بارامس 75

كتابات

- أبوبكر سالم بلفقيه .. وقصيدته (ليلة الحد) ..... د. عبدالقادر علي باعيسى 80
- الاسم ..... د. سعيد سالم الجريري 82
- انهمارات حضرمية ..... أسالم العبد الحمومي 83
- فتنة السرد والشعر في (أشياء صغيرة) لخالد لحمدي ..... د. طه حسين الحضرمي 84

نقد

- القيمة التائهة أو الشاعر حسين عمر شيخان ..... أ. د. عبدالله حسين البار 86
- محاولة لفهم النص المحضاري ..... سالم فرج مفلح 95
- تعليق نقدي على (بلاد بلاسماء) .. رواية وجدي الأهدل. الفصل (١) ..... د. أحمد سعيد عبيدون 100

استطلاع

- بضه ... سلام للشعباء مائة مليون ..... يوسف عمر باستيل 102

شخصيات

- نظرات سريعة حول مجذوب سنقافورة ..... عادل حاج باعكيم 106

إبداع

- محاولة للتعزّي (قصيدة) ..... أبو بكر محمود باجابر 109
- موتٌ مؤقت (قصيدة) ..... محمد سالم بن داود 109
- سفر النجوم (سرد) ..... خالد لحمدي 110

حكايات

- حكايات من المشقاص .. زمن الساري والسناني ..... فائز محمد باعباد 112

توقيع قلم

- (كُل قرصك وادخل خَلصك) ..... أ.د. عبدالله سعيد الجعيدي 114

حضرموت الثقافية

مجلة فصلية

السنة الثانية العدد (7)

يناير - مارس 2018م

تصدر عن مركز حضرموت

للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر

صاحب الامتياز

الأستاذ محمد سالم بن علي جابر

المشرف العام

أ. د. عبدالله سعيد بن جسّار الجعيدي

رئيس التحرير

د. عبدالقادر علي باعيسى

سكرتير التحرير

أنور سالم باكركر

السكرتير الفني

حسن أحمد بلجعد

المصور

م.عبدالله جمال بن عبدالعزيز

التدقيق اللغوي

د. جمال رمضان حديجان

الهيئة الاستشارية

أ.د. عبدالله حسين البار

أ. د. عبدالله صالح بابعير

أ. د. ناجي جعفر الكثيري

أ. د. مسعود سعيد عمشوش

أ.د. خالد يسلم بلخشر

د. طه حسين الحضرمي

د. أحمد سعيد عبيدون

د. صادق عمر مكنون

- المواضيع المنشورة تعبّر عن آراء أصحابها ولا تعبّر بالضرورة عن رأي المجلة.

- ترتيب المواد جاء وفق ضرورات فنية إخراجية.

- المجلة غير ملزمة بإعادة أي مادة تتسلمها للنشر سواء نُشرت أم لم تُنشر. ولا تلتزم بنشر المقالات المرسلة إليها بخطاب.

مراسلات المجلة

hc.magazine16@gmail.com

Baaesa-1@hotmail.com

موقعنا على الشبكة الالكترونية

www.hadramout.center

العنوان: المكلا - ص.ب ١٧٤٥ (عنوان بالبريد سابقاً) - ت: ٠٥-٣٠٢١٢٥

العدد (7)
يناير
مارس
2018م

(الموسوعة الحضرمية)
حلم يقترب من التحقق

الأستاذ :
محمد بن سالم بن علي جابر

عزيزي القارئ الكريم:

نلتقي بك مجدداً على صفحات العدد (السابع) من مجلتكم الثقافية التي ترحل بكم ومعكم منذ لحظة التأسيس لـ(مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر)، ويأتي إصدار هذا العدد والمركز قد استطاع أن يتنقّل في محطات مهمة لخدمة تاريخ حضرموت وثقافتها وحضارتها التليدة وبدأ يؤسس لحاضر أكثر تجذراً واتساقًا مع هذا التراث الحضاري والإنساني الثري والممتد في كل مراحل التاريخ وحقبه المتعددة وإدراكًا عميقًا بأهمية ردم الهوة السحيقة التي عانت منها حضرموت خلال السنوات الماضية من خلال عزلها الممنهج عن ماضيها والتشويش على حاضرها لتغييبها في المستقبل.

إننا في مركز حضرموت نحاول في كل خططنا العلمية والثقافية أن نستعيد الذاكرة الحضرمية المفقودة لنرسم خطى استراتيجية لقادم أكثر وعيًا وأعمق دلالة وأنصع تعبيراً عن حضرموت ساحلها ووديها وصحرائها ووديانها وجبالها وشعابها وسهولها ومهاجرها.

عزيزي القارئ الكريم:

هذه الآمال والطموحات والأهداف ندرك صعوبة الوصول إليها وتحقيقها ولكننا على يقين كبير بأن الجميع في حضرموت بات اليوم يعي دوره ومكانته في المشهد الثقافي والعلمي والحضاري والإنساني لرسم خارطة حضرموت الآتية، لذا بدأنا في وضع اللبنات الأولية لمشروع استراتيجي ضروري ومهم يتمثّل في: (الموسوعة الحضرمية: الأعلام - القبائل - البلدان) منذ بدء التاريخ الحضرمي وعلى كل الرقعة الجغرافية الحضرمية التي لازمت هذا التاريخ وتقلباته الجيوسياسية حتى اليوم.

عزيزي القارئ الكريم:

في خاتمة هذه الكلمة لا يسعني إلا أن أدعو جميع النخب العلمية والثقافية والمرجعيات والشخصيات الاعتبارية والمهتمين والمختصين والمحبين لتراث حضرموت وتاريخها أن يسهموا معنا في إنجاز مشروع الأمّة الحضرمية، الحلم الذي حلمناه منذ سنوات مضت كمشكاة تنير لنا دروب العطاء والبذل في (مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر) وآن الأوان اليوم أن تتسع دائرة النور والضياء لمشكاة حضرموت الماضي والحاضر والمستقبل لتغدو حقيقة أكثر ضياء ونوراً بتلاحم الجميع وتكاتفهم لإنجاز الحلم.

مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر ينظم المؤتمر العلمي الثاني

(التاريخ والمؤرخون الحضارمة في القرن العاشر الهجري - السادس عشر الميلادي)

نظم مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر بالمكلا المؤتمر العلمي الثاني (التاريخ والمؤرخون الحضارمة في القرن العاشر الهجري – السادس عشر الميلادي) ١٩ ديسمبر ٢٠١٧م وقد حوت جلسات المؤتمر المحاور الآتية:

١- حضرموت في مصادر القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) ويشمل:

- كتب الحوليات والتواريخ.
- كتب الفقه والتصوف.
- كتب التراجم والطبقات.
- معاجم البلدان.

٢- التطورات السياسية للسلطنة الكثيرية الأولى ويشمل:

- التوسع والانكماش.
- صراع السلطنة الكثيرية مع القوى المحلية والإقليمية.

٣- حضرموت والتنافس الدولي ويشمل العناوين الآتيين:

- البرتغاليون. • العثمانيون.

٤- الملامح الحضارية ويشمل:

- النظام المالي والإداري والقضائي.
- العمارة المدنية والحربية.
- الملاحة البحرية والتجارة.
- الحرف والمهن الحرفية.
- المعارف والعلوم.

وقد شارك في المؤتمر كلٌ من الأساتذة: أ.د. عبدالله سعيد الجعيدي (جامعة حضرموت) وأ.د. مسعود سعيد عمشوش وأ.د. أسماء أحمد ريمي و د. محمد صالح بلعفير (جامعة عدن) و د. محمد يسلم عبدالنور (جامعة حضرموت) ود. طه حسين هديل (جامعة عدن) د. خالد حسن الجوهي و د. جمال رمضان حديجان (جامعة حضرموت) ود. محمد منصور بلعيد (جامعة عدن) ود. أحمد هادي باحارثة (باحث مستقل) و د. عبدالحكيم محمد العراشي (جامعة عدن) ، و كل من الباحثين يسلم صالح دهلوس وعلي سالم باهادي ومحمد علوي باهارون وعادل حاج باعكيم وفق المحاور المشار إليها أعلاه.

هذا وقد اختتم المؤتمر أعماله بصدور عدد من التوصيات:

- طباعة الأعمال البحثية التي قدمت في المؤتمر.
- حث الباحثين الشباب على الاهتمام بالتاريخ الحضرمي.
- نشر مادة الأبحاث إعلاميًا عبر قناة حضرموت الفضائية.
- طباعة وتحقيق المؤلفات الحضرمية التي دونت في القرن العاشر الهجري في مختلف المجالات.
- نقل أحد المؤتمرات العلمية القادمة لمركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر إلى حضرموت الوادي ويخصص في مجال العمارة والفنون والتراث الآثاري والتاريخي والحضاري.

هذا وقد أقيم مساء يوم المؤتمر ١٩ ديسمبر حفل تكريمي وختامي كُرم فيه كاتبو الأبحاث الثلاثة الأولى الفائزة بالجوائز المالية في مجال الكتابة عن (الأوقاف في حضرموت) كما كرم مخرجو الأفلام الثلاثة الفائزة بالجوائز المالية في مجال إنتاج وإخراج الأفلام السينمائية عن (ذاكرة مكان).

اجتماع اللجنة العلمية الختامي بمركز حضرموت للعام ٢٠١٧م

عقدت اللجنة العلمية بمركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر اجتماعها الختامي للعام ٢٠١٧م يوم الأحد ٣١/ ١٢/ ٢٠١٧م في قاعة الاجتماعات بالمركز برئاسة أ. د. عبدالله سعيد الجعيدي رئيس المركز، رئيس اللجنة العلمية بالوكالة، تداولت فيه عدداً من النقاط المتعلقة بمستوى تقويم أعمال دوائر المركز في العام المنصرم من خلال التقرير السنوي ومراجعة مستوى تنفيذ خططها السابقة، ومن ثم استعراض الخطط السنوية الجديدة للعام ٢٠١٨م لإدارات الأبحاث والدراسات، والعلاقات العامة والترجمة، والإعلام والثقافة، والإنتاج التلفزيوني، والوثائق والمخطوطات، ومناقشتها وإقرارها.

هذا وقد احتوت الخطط الجديدة على نشاطات وفعاليات متنوعة مستفيدة من خبرة المركز خلال السنتين الماضيتين لما من شأنه الرقي بمستوى الأداء وتحقيق إنجازات متقدمة في سبيل خدمة التاريخ والثقافة الحضرمية.

الاجتماع الدوري الأول للجنة العلمية بمركز حضرموت للعام ٢٠١٨م

عقدت اللجنة العلمية بمركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر اجتماعها الدوري الأول لعام ٢٠١٨ يوم الاثنين ٢٩ يناير، برئاسة أ. د. عبدالله سعيد الجعيدي رئيس المركز ناقشت فيه وأقرت عدداً من الفعاليات والندوات وحلقات النقاش التي سيتم تنفيذها خلال الأشهر القريبة القادمة، كما أقرت اللجنة العلمية عدداً من الكتب المقدمة للمركز بعد أن أجازتها اللجنة المختصة بذلك.

الجدير بالذكر أن اللجنة العلمية بمركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر وضعت في مركز اهتمامها أن توجه هذه الفعاليات بما يخدم أهداف المركز عامة واتجاه (الموسوعة الحضرمية) التي يتم الإعداد لها بنشاط هذه الأيام.

زيارة عدد من الأساتذة إلى مركز حضرموت

قام الشيخ علي سالم بكير، والأستاذ محسن أحمد بن شملان، والأستاذ عمر عوض بالي، والأستاذ علوي سقاف العيدروس، يرافقهم عدد من الأساتذة والمثقفين والتربويين بزيارة تعرفية إلى مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق التقوا خلالها بـ أ.د. عبدالله سعيد الجعيدي رئيس المركز، وعدد من مديري الإدارات، قدم في مستهلها رئيس المركز نبذة تعريفية وافية عن أهداف المركز ونشاطه منذ تأسيسه حتى اللحظة الراهنة، مشيراً إلى نية المركز تبني إصدار مشروع (الموسوعة الحضرمية) الذي لقي إعجاب وترحيب الأساتذة الزوار به لكونه أول مشروع موسوعي يتحدث عن حضرموت من مناح عديدة تتعلق بالقبائل والأسر، والأعلام، والبلدان، والمهجر الحضرمي، وتاريخ مملكة حضرموت القديمة، وقد شكر لهم الدكتور الجعيدي هذه الزيارة التي نعتز بها في المركز لكونها ضمت هذه الكوكبة من رجال حضرموت مهدياً لهم في ختام اللقاء عدداً من إصدارات المركز ومجلة (حضرموت الثقافية).

مركز حضرموت ينظّم محاضرة بعنوان :
صحابة رسول الله ﷺ من حضرموت

نظم مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر بالتنسيق مع رباط بحر النور للتربية الإسلامية بالمكلا مساء الأربعاء ٢٠١٨/١/١٧م بقاعة الرباط بفوة محاضرة بعنوان (صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم من حضرموت) ألقاها الأستاذ منير سالم بازهير -المحاضر بدار المصطفى بتريم- الذي استضافه المركز لهذا الغرض.

حضر المحاضرة أ.د. عبدالله سعيد الجعيدي- رئيس المركز - ود. صادق عمر مكنون - نائب رئيس جامعة الأحقاف - وعدد من مديري الدوائر بالمركز وجمع غفير من الأساتذة والطلاب.

هذا وقد أشاد الأستاذ المحاضر في مستهل حديثه بالدور الذي يؤديه مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر في خدمة ثقافة حضرموت والتعريف بها خاصة لدى الأجيال الجديدة، وفي هذا الإطار تأتي هذه المحاضرة التي أعقبها عدد من النقاشات والتساؤلات. وقد عبر أ.د. عبدالله سعيد الجعيدي رئيس المركز عن سعادته بهذه المحاضرة التي لا تربط بين المركز ورباط بحر النور بالمكلا فحسب بل بين ساحل حضرموت ووديها في إطار من التفاعل المستمر الذي يهتم به المركز ويضعه في صلب أولوياته عبر عدد من اللقاءات والنزولات الميدانية والزيارات المتبادلة.

محاضرة عن التأثير والتأثر بين حضرموت وإندونيسيا

نظم مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر مساء يوم الأحد ١١ فبراير ٢٠١٨م في قاعة رباط بحر النور للدراسات الإسلامية محاضرة للأستاذ محمد عبدالله الجنيد بعنوان: (ملامح من التأثير الإندونيسي في المهاجرين الحضارمة وبلدهم الأم) تطرق فيها إلى مناحي التأثير والتأثر بين حضرموت وإندونيسيا في مجالات مختلفة. ولأن الأستاذ الجنيد عاش جزءًا طويلًا من حياته في إندونيسيا فقد استطاع أن يلاحظ وبعمق التأثيرات الخاصة التي تركها الإندونيسيون في حضرموت والحضارمة في إندونيسيا بلادًا وسكانًا في المجال الديني والعلمي والاجتماعي والثقافي والسياسي مشيرًا إلى أن الحامل الأساسي لهذا التأثير والتأثر هو التدين المعتدل الذي يهتم بنشر رسالة الإسلام السمحاء مما أعطى أثره على مدى قرون كثيرة لم تؤثر فيه المتغيرات السياسية والفكرية.

هذا وقد حضر المحاضرة أ.د. عبدالله سعيد الجعيدي رئيس مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق و د. صادق عمر مكنون نائب رئيس جامعة الأحقاف وعدد من رؤساء الإدارات بالمركز وإدارة معهد رباط النور للدراسات الإسلامية وجمع من أساتذة الجامعة والطلاب والمهتمين.

رجالات دوعن بين الفقه والتجارة

نظم مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر مساء يوم الخميس ١/ مارس/ ٢٠١٨م بالتنسيق مع مؤسسة دوعن للتنمية محاضرة بعنوان (رجالات دوعن بين الفقه والتجارة) للأستاذ محمد علوي باهارون بقاعة مركز دوعن التنموي بمدينة صيف مديرية دوعن حضرها الأستاذ سالم أحمد بانخر مدير عام مديرية

دوعن وعدد من مديري الإدارات بمديرية دوعن والأساتذة والطلاب والمهتمين..

وقد ألقى في مستهل المحاضرة أ.د. عبدالله سعيد الجعيدي كلمة مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر تطرق فيها إلى اهتمام المركز بابتعاث التراث والتاريخ الذي تضمه مديرية دوعن ومناطق حضرموت كافة.. مقدمًا شرحًا مسهبًا عن نشاط الموسوعة الحضرمية الشاملة التي بدأ العمل بوضع اللبنات الأولى للبدء فيها منذ مطلع هذا العام ٢٠١٨م تحت إشراف المركز.. شاكرًا السلطة المحلية ومؤسسة دوعن للتنمية على كرم الضيافة وحسن الاستقبال ومنوهًا بأهمية تواصل التعاون مستقبلًا مع السلطة المحلية بالمديرية فيما يتعلق بإنجاح مشروع (الموسوعة الحضرمية)، وأثنى الأستاذ سالم بانخر في كلمته على نشاط المركز مشددًا على أن دوعن تضم من التراث والتاريخ ما هو بحاجة إلى كشف مستمر، كما ألقى الأستاذ علي بن حمران كلمة عن إدارة مؤسسة دوعن للتنمية التي يدخل في مجال اهتمامها الاهتمام بالتنمية الثقافية..

ثم ألقى الأستاذ محمد علوي باهارون محاضرته القيمة عن رجالات دوعن في مجالي الفقه والتجارة مستعرضًا أسماءهم وأبرز مؤلفاتهم وآثارهم ونشاطاتهم التي أسهموا بها في خدمة التراث والمجتمع المحلي والإسلامي عامة.

هذا وقد ضم وفد مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر بالإضافة إلى رئيس المركز عددًا من مديري الإدارات والموظفين واللجان العاملة بالموسوعة الحضرمية الشاملة..

وفي ختام اللقاء قدم أ. د. الجعيدي عددًا من إصدارات المركز من الكتب ومجلة (حضرموت الثقافية) إلى الأستاذ سالم بانخر.

وفد مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر في (مصنعة آل العمودي) بصيف

استمرارًا لنشاطه العلمي والثقافي والتاريخي زار وفد مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر صباح يوم الجمعة الثاني من مارس ٢٠١٨م المعلم التاريخي (مصنعة آل العمودي) بمنطقة صيف بمديرية دوعن، وقد طاف الوفد الذي رأسه أ. د. عبدالله سعيد الجعيدي رئيس المركز بكل مكونات هذا الحصن الأثري الذي لم يزل تاريخ بنائه محل بحث ودراسات من قبل العديد من المختصين والمهتمين بتراث وتاريخ الأجداد في وادي دوعن خاصة وحضرموت عامة.

وخلال الجولة التفقدية بمرافقة الأخوين محمد بن صويلح منسق الزيارة وعلي بن حمران ممثل مؤسسة دوعن للتنمية اللذين قدما شرحًا مفصلًا عن مكونات هذا الحصن الأثري الذي تم إعادة تأهيله مؤخرًا ليغدو بهذه الروعة الجمالية أكد أ. د. عبدالله الجعيدي على عمق الرسالة التي يقدمها هذا المعلم (مصنعة آل العمودي) مشيرًا إلى أننا اليوم نطوف بذروة التاريخ الحضرمي المجيد ونمسك بسنام الحضارة التليدة للأجداد الذي كانوا يعشقون الأرض ويذودون عنها على الرغم من ندرة الإمكانات وقلة المواد وبساطة الأدوات التي بها بنيت هذه المصنعة منذ مئات السنين في أقل تقدير، مثنيًا على جهود الخيرين من أبناء دوعن ومؤسسة دوعن للتنمية لحرصهم على إعادة تأهيل المصنعة وترميم ما تعرض للضرر خلال السنوات الماضية مبديًا استعداد مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر للإسهام في حفظ التراث والعناية بالوثائق والمخطوطات وترميم الآثار والمعالم التي تنتشر في كل أرجاء حضرموت، مشيدًا بجهود الأستاذ صالح عمر باناعمة رئيس مؤسسة دوعن للتنمية في التنسيق والمساهمة في إنجاح هذه الزيارة العلمية والثقافية لوفد المركز إلى مديرية دوعن.

وتأتي هذه الزيارة ضمن خطة المركز السنوية وفي سياق النزولات الميدانية واللقاءات الثنائية مع المرجعيات والنخب الأكاديمية والعلمية والثقافية لمناقشة المشروع الاستراتيجي المستقبلي (الموسوعة الحضرمية: الأعلام- القبائل - البلدان) الذي يتبناه المركز ويكثف جهوده لإنجازه وفق معايير وأسس علمية ومنهجية رصينة.

11
العدد (7)
يناير
مارس
2018م

إن الوثائق مثل النجوم
تستمد ضياءها من
ذاتها، لكنها لا تبخل
بنورها على من اقترب
منها، وحاول استنطاقها

من وثائق تاريخ إمارة آل بن بريك في الشحر

(اتفاقيتان بين النقيب ناجي بن علي بن ناجي بن بريك وآل بني بكر وثلاثة في يافع سنة ١٢٢٥هـ)

أ.د. علي صالح الخلاقي

وثيقة رقم(١)
بين آل بن بريك وبني بكر

الحمد لله وحده

تاريخ يوم السبت والنصف شهر ربيع ثاني سنة ١٢٢٥ هـ[١] فقد احتضروا[٢] بحضورنا وهما الآتي ذكرهم الصدر الشيخ عبدالله بن عوض بن دينيش البكري وعقال بني بكر والسيارة من أصحابهم ومن سار سيرهم، وكذلك الآتي ذكرهما ياقوت حيدر وعبدالرب بن مطر[٣] المندخلين[٤] والقاطعين على سيدهم الولد النقيب ناجي بن علي ناجي بن بريك، والرديم من فوقهم[٥] الصدر الشيخ عبدالقوي بن صالح علي ناجي الناخبي بأنهم شلوا[٦] المذكورين الصدر الشيخ عبدالله عوض دينيش وعقال بني بكر وبني بكر ومن سار سيرهم بأنهم تبعه وسمعه وسامعين مطيعين بما صرفهم[٧] فيه ناجي بن علي، ولا أحد له تقديم ولا تأخير إلا بما صرفهم فيه على من كان بعد وقرب، يافعي وقبيلي، وحافظين صائنين بما يلوث[٨] ناجي علي ومن قال بقوله في خلاء وبلاد وشائم ولائم وصديق وحليف، خلاف ما صرفهم فيه بالسمع والطاعة، وأمرهم وشورهم ورأيهم لله ولناجي بن علي وأيضًا[٩] قلمتهم[١٠] من حال يصلون بندر الشحر، قلمة النفر خمسة قروش[١١] شهري وقوتهم الكفاية وزلاجهم[١٢] عندما يتروحون وتحصل الكفاية فلهم زلاجهم الذي يوديهم[١٣] بيوتهم وساعية إلى بندر شقرة وزلاج من قوت وكراء وقوت وكسوة العسكر عند وصولهم، كساء الذي يشيم[١٤] ناجي بن علي بن بريك وأيضًا لناجي بن علي قيوس[١٥] وثيقة الذي ترضي الشيخ عبدالقوي بما اختل ويكل من ساحل شقرة ومن قدر الله عليه بمرض أو موت مصروفه جاري من جيز[١٦] أصحابه لحتى يتروحون.

[ثم جملة غير واضحة المعنى في السطر الأخير]..

وثيقة رقم (٢)
بين آل بن بريك وخلاقة

الحمد لله وحده

تاريخ يوم الثلوث وثمانية عشر ربيع ثاني سنة ١٢٢٥هـ[١٧] فقد احتضروا بحضورنا وهما الآتي ذكرهم، وهذا شاهد كريم بيد الأصناء[١٨] الشيخ حسين بن صالح محمّد أحمد الخلاقي[١٩] وعُقّال خلاقة وآل خلاقة ومن سار سيرهم من الصدر الشيخ عبدالقوي بن صالح علي بن ناجي الناخبي وياقوت حيدر وعبدالرب بن مطره تابعين الولد النقيب ناجي بن علي بن ناجي بن عمر بن بريك بأنهم شلّوا[٢٠] أهل خلاقة الشيخ حسين بن صالح وأصحابه أهل خلاقة في قُلمتهم من حال ما يصلون بندر الشحر إن شاء الله أن للنفر قلمته خمسة قروش عين كل شهر وقوتهم وكساهم عندما يصلون بندر الشحر، وقوتهم وما يحتاجون عند وصولهم وكسوتهم حال يصلون الشحر جواز[٢١] ناجي بن علي بن بريك الذي يستيمهم[٢٢] وباروتهم ورصاصهم وفتيلهم وعند مروحهم حل الفسح[٢٣] عندما يستكفي ناجي بن علي، فللمذكورين زلاجهم الذي يودّيهم جبال يافع وركوبهم من عيرول[٢٤] إلى شقرة وكراء مشيهم إلى جبال يافع مُودّا[٢٥]، ومن حال يصلون ستة أشهر فلا لهم فَسْح، ومن بعد الستة الأشهر الشور برأس ناجي بن علي يفسح وإلا يمجلس[٢٦] على حسب ما حدّد القُلمة بأول المسطور، هذا وبَيْنَنا واندخلنا[٢٧] بما نظم بهذا المسطور، إن نحنا عريفتهم[٢٨] يا الثلاثة الأنفار بما قصر عليهم، جرى ذلك بالرضا والخيرة، والتزموا الشيخ عبدالقوي بن صالح وعَبيّد الولد النقيب ناجي بن علي بن بريك إن من قدّر الله عليه موت أو قتل أو مرض فكل ما هو له قُلمة وغير ذلك من جايز[٢٩] أصحابه لحتى يُفسحون

وهذا لزم[٣٠] بجنب الولد النقيب ناجي بن علي بن بريك، جرى ذلك والله خير الشاهدين.

كتبه نائب الشرع العالي عبدالحبيب بن أحمد حيدر عز الدين مع الختم الخاص به.

التحقيق والتعليق

هاتان الوثيقتان من أقدم الوثائق التي تُنشر لأول مرة عن تاريخ الإمارة البريكية في الشحر (١١٦٥-١٢٨٣هـ/١٧٥١-١٨٦٦م) وتميطان اللثام عن جوانب خفية من تاريخها الذي ما زال يكتنفه الغموض. ويلزمني الوفاء الاعتراف بأنني حصلت على هاتين الوثيقتين في أرشيف قضاة وفقهاء يافع آل عز الدين البكري، وهما بقلم الفقيه عبدالحبيب بن أحمد حيدر عز الدين البكري الذي كانت له ارتباطات وثيقة وعلاقة حميمة مع كل من أمراء الدولتين الكسادية والبريكية ومع سادة عينات وال كثير، حيث سمح لي الأخ الفاضل ناصر علي محمد الفقيه عز الدين البكري مشكوراً بتصويرهما مع وثائق ومراسلات كثيرة تاريخية خاصة بعلاقة يافع وحضرموت وغيرها، وأكبرتُ فيه روح التجاوب الذي ينم عن وعيه وقناعته بأن مثل هذه الوثائق هي ملكٌ للتاريخ وينبغي أن تخرج من محابسها وأقفاصها وتُوثق وتُنشر لتكون في متناول الباحثين قبل أن تتعرض للتلف أو الضياع، كما يبدو من بعضها، ونأمل أن يقتدي به الآخرون، لا سيما أن التوثيق الآن أمرٌ سهل لا يتطلب التخلي أو التفريط بأصول الوثائق والاكتفاء فقط بتصويرها مباشرة.

رأيت ضرورة وأهمية نشر الوثيقتين بوصفهما مصادر تاريخية أصلية تعودان إلى زمن أحداث ذلك العصر، وتقدمان معلومات جديدة مفيدة تسد بعض النقص في تاريخ الإمارة البريكية التي ربما لجأت إلى عقد اتفاقيات مماثلة مع قبائل أخرى من حضرموت ويافع بغرض تعزيز أركانها في مدينة الشحر وما جاورها والدفاع عنها من أية مخاطر محتملة تهددها، كما بينت الأحداث لاحقًا.

فالإطار الزمني لهاتين الوثيقتين يعود إلى تلك الفترة التي شهدت تنافساً وصراعًا على التوسع والنفوذ بين الإمارة البريكية، وهي الإمارة اليافعية الثانية التي تكونت في حضرموت بعد الإمارة الكسادية (١١١٥-١٢٩٩هـ/١٧٠٣-١٨٨١م)، بحكم جوارهما الجغرافي المحصور بين المكلا والشحر ومحيطهما، بل دارت بينهما معارك ومواجهات لسنا بصدد الحديث عنها، غير أن ما يدفعنا للإشارة إليها هو أن الوثيقتين اللتين بين أيدينا ذات صلة تاريخية بهذا الصراع وحشد كل طرف أنصار ومقاتلين، خاصة من الداخل الحضرمي أو من منطقة يافع، وكما يتبين فإن هاتين

الوثيقتين تعودان إلى عشرينيات القرن الثالث عشر الهجري، فالأولى مؤرخة في ١٥ ربيع ثاني سنة ١٢٢٥هـ/ الموافق ٢٠ مايو ١٨١٠م، والثانية في ١٨ ربيع ثاني سنة ١٢٢٥هـ/ الموافق ٢٣ مايو ١٨١٠م، وهذه الفترة هي التي برز فيها اسم الأمير القوي النقيب ناجي بن علي بن ناجي بن عمر بن بريك الذي تولى الإمارة بعد تنازل عمه حسين بن ناجي عن الإمارة طوعًا وشهدت الشحر في فترة حكمه جملة من التطورات السياسية والاقتصادية. يصفه مؤلف (نشر النفحات المسكية في أخبار الشحر المحمية) بقوله: «كان ملكًا شجاعًا مقدامًا نبيهًا فاتكًا سالكًا طريق العدل ذا نباهة وسخاء وكرم مع سماحة النفس وصلاح الطوية والتفقد الكامل في شأن رعيته وعنده حدس ودهاء في الأمور السياسية»[٢١].

كُتبت الوثيقتان باللهجة المحلية ووردت فيهما كلمات ومصطلحات يبدو لنا بعضها غريبًا، لكن لها دلالاتها ومعانيها الواضحة في العُرف القبلي، ومع ذلك فقد شاب الوثيقتين الكثير من الأخطاء الإملائية، وقد تدخلنا في تصويبها في النص بما لا يخل بالأصل المنشور للوثيقتين، كما يوجد فيهما تكرار ممل لبعض العبارات والألفاظ ، وعدم وضوح بعض كلمات قليلة وقد اجتهدنا في توضيح معناها لتسهيل فهم النص، من خلال وضع هوامش توضح معاني المفردات العامية بشكل عام.

وإجمالاً فإن عباراتها وألفاظها كانت واضحة دون شك لدى أطرافها في ذلك الزمن، وهذا بيت القصيد من كتابتها حينها، فقد كُتبت ليس بغرض النشر والتعميم وإنما لتحديد التزامات الأطراف بوضوح تام وباللهجة التي يتحدثون بها وأدت بذلك الغرض من صياغتها.

والوثيقتان متقاربتان بالفترة الزمنية، بفارق ثلاثة أيام بينهما، ومتشابهتان بالنص والمضمون وكاتبهما واحد، هو نائب الشرع العالي الفقيه عبدالحبيب بن أحمد حيدر، وهذا اللقب حصل عليه من سادة عينات الذين كانوا يتمتعون بسلطة روحية طاغية في يافع، وكان هو يحظى بتقدير عال لدى أمراء آل بن بريك وغيرهم، ولمكانته وكبر سنه فإنه يصف النقيب ناجي بن علي بـ(الولد).

حُررت الاتفاقية الأولى يوم السبت، منتصف ربيع ثاني سنة ١٢٢٥هـ، بحضور الشيخ عبدالله بن عوض بن دينيش البكري وعُقّال بني بكر، كطرف يمثل بني بكر، وهي أكبر بلدة في يافع الجبل، ويمثل (آل بن بريك) كل من ياقوت حيدر وعبدالرب بن مطر، نيابة عن سيدهم النقيب ناجي بن علي ناجي بن بريك وبإشراف المسئول المباشر عنهم الشيخ عبدالقوي بن صالح علي ناجي الناخبي، وتقضي الاتفاقية بما يلي:

- التزام الشيخ عبدالله عوض دينيش وعُقّال بني بكر وبني بكر ومن سار سيرهم بأنهم تَبْعَة وسُمْعَة وسامعين مطيعين بما وجههم فيه ناجي بن علي ولا أحد له تقديم ولا تأخير إلا بما أمرهم به على أيٍّ من كان، بعيد أو قريب، يافعي أو قبيلي، وأن يكونوا حافظين صانين لسمعة ناجي علي مما يلوثها، في أي مكان يوجدون فيه في خلاء أو بلاد، أو أمام شاتم أو لائم أو صديق أو حليف، خلافًا لما وجههم (صرفهم) فيه بالسمع والطاعة وأن يكون أمرهم وشورهم ورأيهم لله ولناجي بن علي.

- أن يكون راتبهم (قَلمتهم) من حال وصولهم إلى بندر الشحر لكل فرد خمسة قروش شهريًا إلى جانب غذائهم الكافي.

- أن تُدفع لهم تكاليف عودتهم (زلاجهم) عند ما يتروحون بعد الاستغناء عنهم، بما يوصلهم إلى بيوتهم وساعية تنقلهم إلى بندر شقرة، بما في ذلك القوت وأجرة إيصالهم (الكراء).

- للعسكر عند وصولهم الكساء الذي يشرّف (يشيّم) ناجي بن علي بن بريك، وعليه التزامات (قيوس) وثيقة ترضي الشيخ عبدالقوي بحدوث أي خلل من ساحل شقرة.

من قدر الله عليه بمرض أو موت تكون مستحقاته جارية أسوة بأصحابه حتى يعودون (يتروحون).

****

الوثيقة الثانية، مؤرخة يوم الثلاثاء، الموافق ١٨ ربيع ثاني سنة ١٢٢٥هـ، وهي شاهد كريم بيد الشيخ حسين بن صالح محمّد أحمد الخلاقي وعُقّال خلاقة وآل خلاقة ومن سار سيرهم من قبل الصدر الشيخ عبدالقوي بن صالح علي بن ناجي الناخبي ممثلاً للنقيب ناجي بن علي ومعه ياقوت حيدر وعبدالرب بن مطر، وأهم ما تضمنته:

- التزام ممثلي بن بريك للشيخ حسين بن صالح ولأصحابه أهل خلاقة في راتبهم الشهري (قَلمتهم) من حال وصولهم بندر الشحر.

- أن يكون للنفر راتب خمسة قروش عين كل شهر وقوتهم وكساهم عندما يصلون بندر الشحر، وكذلك تسليحهم (باروتهم ورصاصهم وفتيلهم).

- عند انتهاء العقد أو حالما يستغني عنهم ناجي بن علي فللمذكورين تكاليف إيابهم إلى جبال يافع، بما في ذلك ركوبهم إلى شقرة وأجرة وصولهم إلى جبال يافع.

- لا يحق لهم من حين وصولهم إلى الشحر ولمدة ستة أشهر المغادرة (أي ليس لهم فسْح)، أما بعد الستة الأشهر فالقرار بيد ناجي بن علي إما أن يسمح لهم بالمغادرة أو يجدد مكوثهم حسب الراتب المحدد في أول الوثيقة (المسطور).

- يؤكد الثلاثة الممثلون لآل بريك، الشيخ عبدالقوي بن صالح وعُبيّد النقيب ناجي بن علي بن بريك، أنهم القيّمون بأمر القوم (عرّيفتهم) بما قصر عليهم جراء ذلك بالرضا والخيرة.

- يلتزم آل بن بريك بأن من قدّر الله عليه بموت أو قتل أو مرض فله راتبه الشهري وغير ذلك أسوة بأصحابه حتى يُسمح بمغادرتهم (يُفسحون).

لا شك أن لجوء الأمير ناجي بن علي إلى عقد مثل هذه الاتفاقيات يؤكد ما قيل عن حنكته ودهائه وفراسته وبُعْد نظره وحسن تقديره للأمور فبدا بذلك وكأنه يستبق تطورات الأحداث اللاحقة ويحتاط لها ويعد العدة للتحكم بها وإحراز النصر. فبعد أقل من عامين من توقيع الوثيقتين، عادت الحرب من جديد مع الكسادي، وتحديداً في عام ١٢٢٧هـ/ ١٨١٢م حينما هاجمت السفن الكسادية ميناء الشحر واستولت على السفن الراسية في الميناء التي وصلت من شرق إفريقيا محملة بالبضائع لبعض تجار المدينة، ثم قامت بسحبها إلى ميناء المكلا، واشتبكت مع القوات الكسادية في منطقة (الحرشيات)[٣٢]، حيث ألحقت بها الهزيمة فانسحبت إلى (البقرين) و(الديس)[٣٣] فاستولى آل بن بريك عليها، ثم تقدمت قواتهم نحو (البقرين) و(الديس) فاستولت عليهما ثم واصلت تقدمها نحو المدينة، فسيطرت على الحصون المطلة عليها. وبعد ذلك توسط في النزاع بين الجانبين بعض العلويين من آل العيدروس، وتم الاتفاق على أن تعاد جميع السفن التي استولى عليها الكسادي مع حمولتها لأصحابها التجار في الشحر، ويعود آل بن بريك بقواتهم إلى الشحر[٣٤]. وفي ضوء ذلك نستخلص أن بن بريك لم يكن يطمح بالسيطرة على المكلا وإنما أراد تأديب الكسادي على تحرشاته، بدليل استجابته للوساطة وهو في موقع القوة بعد انتصاره الكاسح وحصاره للمكلا وقبول العودة بقواته إلى الشحر.

ومن هنا ندرك أهمية عقد مثل هذه الاتفاقيات التي لم يبتدعها آل بن بريك لتعزيز قوتهم، بل ساروا على نهج من سبقهم، بما في ذلك آل كثير وغيرهم، واعتمدوا على صلة القرابة في جذب مقاتلين مؤقتين من يافع، حسب الحاجة لذلك كما تنص الاتفاقيتان، إلى جانب اتفاقيات مماثلة ربما أبرمت مع قبائل حضرمية أخرى، ويلاحظ أن عقد هذه الاتفاقيات قد سبق الاحتكاكات والمواجهات اللاحقة مع الكساديين، الأمر الذي ينم على بُعد نظر النقيب علي بن ناجي واستعداده المبكر لاحتمالات المخاطر القادمة التي أثبتت الأيام صحتها.

الهوامش:

١. يوافق ٢٠ مايو ١٨١٠م.

٢. احتضروا: أي حضروا.

٣. هما من عبيد آل بن بريك.

٤. المندخلين: بمعنى المخولين بالصلاحية.

٥. الرديم من فوقهم: المسئول والمشرف عليهم.

٦. شلّوا: التزموا.

٧. صرفهم: وجْههم.

٨. يلوث: يسيء.

٩. كُتبت (واعيظاً) والصحيح وأيضاً.

١٠. قلمتهم: من القَلمة وهو الراتب.

١١. قروش: مفردها قرش، وهو الريال النمساوي (ماريا تيريزا) الذي ظل متداولاً إلى عشية الاستقلال. ويُسمى (قرش فرنصي).

١٢. زلاجهم: تكاليف عودتهم.

١٣. يودّيهم: يوصلهم.

١٤. يشيّم: يشرّف.

١٥. قيوس وثيقة: بمعنى التزامات وثيقة.

١٦. من جيز أصحابه: من سائر أو من ضمن أصحابه

١٧. يوافق ٢٣ مايو ١٨١٠م.

١٨. الأصناء: جمع صنو وهو الأخ الشقيق (نصيحة)

١٩. شيخ خلاقة في عصره، وهو جد الشيخ الشهير يحيى محمد حسين الخلاقي الذي عاش إلى مطلع ثلاثينيات القرن العشرين.

٢٠. شلّوا أهل خلاقة: بمعنى التزموا أو تعهدوا لأهل خلاقة.

٢١. جواز: موافقة، من إجازة الشيء.

٢٢. يستيمهم: لعل المقصود يؤمهم.

٢٣. حل الفَسْح: عند السماح لهم بالمغادرة.

٢٤. عيرول: لعلها مكان ركوبهم من ساحل حضرموت، إلى ميناء شقرة في أبين.

٢٥. مودًا: موصّل.

٢٦. يفسح: يسمح لهم بالمغادرة. يمجلس: يبقيهم جالسين في مهمتهم.

٢٧. بدينا واندخلنا: ظهرنا وتدخلنا.

٢٨. نحن عرفتهم: نحن القيّمون بأمرهم.

٢٩. من جيز أصحابه: من سائر أو من ضمن أصحابه.

٣٠. لزم: التزام أو عهد.

٣١. نشر النفحات المسكية في أخبار الشحر المحمية: عبدالله بن محمد بن عبدالله بن أبي بكر جمل الليل (ت ١٣٤٧هـ)، جزءان، مخطوط رقم ٢٢٠١، الهيئة العامة للآثار والمخطوطات والمتاحف – تريم، ج ٢، ورقة رقم ١٠٠. عن: إمارة آل بن بريك في الشحر: خالد حسن الجوهي، دار الوفاق-عدن، ط١، ٢٠١٠م، ص ٦١.

٣٢. الحرشيات: منطقة زراعية تكثر فيها الأشجار، وهي تبعد عن المكلا بحوالي خمسة أميال إلى الشرق.

٣٣. البقرين: موقع خارج المكلا وهو مدخل المدينة من الشمال. أما الديس فهي أحد أحياء المكلا اليوم.

٣٤. الدولة الكثيرية الثانية في حضرموت، ثابت صالح اليزيدي، دار الثقافة العربية- الشارقة، ط١، ٢٠٠٢م، ص ٧٧-٧٨.

15
العدد (7)
يناير
مارس
2018م

(٢ - ٢)

حضرموت في الدراسات والمؤلفات الببليوغرافية

كنا قد تناولنا في العدد (السادس) من مجلة (حضرموت الثقافية) عدداً من المؤلفات الببليوغرافية الخاصة بحضرموت، وفي هذا العدد نتناول جملة من المؤلفات الببليوغرافية العامّة التي حظيت بذكر متفاوت للإنتاج الفكري الحضرمي.

د. حسن صالح الفلام العمودي

١- عبدالله محمد الحبشي:

له عدد من الأعمال الببليوغرافية الخاصة باليمن كتبها في فترات زمنية مختلفة منها:

- مراجع تاريخ اليمن[١].
- حكام اليمن المؤلفون المجتهدون[٢].
- فهرست مخطوطات بعض المكتبات الخاصة في اليمن[٣].
- معجم الموضوعات المطروقة في التأليف الإسلامي وبيان ما ألف فيها[٤].
- مصادر الفكر العربي الإسلامي في اليمن[٥].

مصنفات الحبشي السابقة الذكر كانت وما زالت قبلة للباحثين في تاريخ اليمن الفكري والحضاري؛ ولذلك عوّل عليها كل أصحاب الدراسات العلمية والأدبية والتاريخية والإسلامية بكل أصنافها من علوم القرآن، والحديث، والسيرة، والتراجم، والطبقات وغيرها. كما اعتمد عليها جُل المشتغلين بالدراسات الببليوغرافية، بل لا توجد دراسة لم تستفد منها طالما وهي تنقب عن ما سطرته أقلام أهل العلم في مجالات المعرفة الإنسانية المتعددة. ومدونات الحبشي تلك إذا ما استثنينا كتابه (معجم الموضوعات...)، فإن كتابه الأخير (مصادر الفكر...)، قد استوعب مجمل ما احتوته تلك الكتب من عناوين أساسية وأصيلة للإنتاج الفكري اليمني على كافة المستويات الشعبية والمثقفة، إضافة إلى أنه يهمنا في هذه الدراسة المعنية بتقصي المؤلفات الببليوغرافية العامة التي تناولت بعضًا من الإنتاج الفكري المتعلق بالحياة العلمية والفكرية والثقافية لحضرموت لذلك لا بدّ من تناوله.

الكتاب موسوعة ببليوغرافية استوعب فيها المؤلف الإنتاج الفكري الخاص باليمن وحضرموت على مدى تاريخي طويل قرابة أربعة عشر قرنًا، وفيه رسم المؤلف خارطة جغرافية لذلك الإنتاج جاءت في (٦٨١ صفحة) من الحجم الوسط، وزّعها على عدد من المحاور؛ بحسب التقسيم الإسلامي المعتمد للفنون فجاءت على النحو الموالي:

١- علوم القرآن ومتعلقاته (ص ص ١١- ٣٣).
٢- علم الحديث (ص ص٣٧- ٧٩).
٣- السيرة النبوية ومتعلقاتها (ص ص٨٣- ٨٩).
٤- علم الكلام (ص ص٩٣- ١٤٩).
٥- الفقه وأصوله وعلم الفرائض (ص ص١٥٣- ٢٦٨).
٦- التصوف (ص ص ٢٧١- ٣٠٨).
٧- الأدب (ص ص ٣١١- ٣٦٣).
٨- علوم اللغة والبيان والنحو (ص ص٣٦٧- ٣٩٦).
٩- التاريخ (ص ص٣٩٩- ٤٧٢).
١٠- العلوم وتشمل: المعارف العامة، وعلوم السياسة، ونظام الدواوين، وعلم الفلك، وعلوم المساحة الحساب، والطب، والمنطق، وأدب البحث،

والمناظـرة، والزراعـة، والكيميـاء، والموسيقى، والملاحة، والفلسفة، (ص ص٤٧٥-٥٠٣).

كما ألحق تلك المحاور بقسم أسماه (مؤلفات حكام اليمن) وهو نفس الكتاب الذي سبق له نشره تحت عنوان (حكام اليمن المؤلفون المجتهدون)، وقـدم له الأديب الأستاذ زيد بن علي الوزير.

وأخيرًا قائمة بمراجع الدراسة وفهرس للأعلام.

وقـد سـعى المؤلف إلى التمهيد والتعريف بـالفنون الذي يتناولها، ثم رتّبت مادته حسب الموضوعات، وجعل المؤلفين في ترتيب زمنيّ، وترجم لهم، وذكر أعمالهم مخطوطة أو مطبوعة أو مفقودة، وعرّف بمصادرهم. وقـد سـاق فيه من عرفتهم اليمن وحـضرموت من الكتّاب للفترة التي يتناولها، واستحوذت على اهتمام المؤلف الإسهامات الفكرية للمؤلفين الحضارم في شـتى فنون المعرفة الإنسـانية وضروبها، فجاءت مبثوثة بين أقسام كتابه وفقًا والخط الذي رسمه المؤلف لنفسه. والكتاب على شموله وفائدته إلا أنه لا يخلو من بعض الثغرات، فضلًا عن الأخطاء التوثيقية والمطبعية التي تنبه إليها غيرنا[٦].

٢. دليل الأطروحـات الجامعية: ماجستير - دكتوراه في الجامعات الحكومية اليمنية للفترة من عام ١٩٦٢-٢٠٠٧م[٧]:

يعد هذا الدليل الأول من نوعه في اليمن، يهتم بحـصر الإنتاج الفكري المتعلق باليمن الذي أجازته الجامعات اليمنية الحـكومية والأهلية، فضلًا عن الجامعات العربية والأجنبية الأخرى.

وقـد جاء في (٩٠٣ صفحـات) من الحجم الكبير، مقاس (٢١ × ٢٨ سم)، اشتملت الصفحات الـ(٢٢ الأولى) على تقديم ودراسـة تحـليلية وإحـصائية للأطروحـات الجامعية وفقًا والمنهج البيليومتري، مدعمة بجداول إحصائية حـيث تمت الإشـارة إلى الضبـط الببـليوغرافي للأطروحـات، وكذا التحليل الزمني لها في الفترة المشـار إليها سـلفًا، ناهيك عن اللغات التي أنجزت بها تلك الأطروحات، علاوة على توزيعها بحسب إنتاجها في دول العالم، وأخيرًا الحقول العلمية والمعرفية التي غطتها تلك الأطروحات التي تمثلت في:

أولًا: العلوم الإنسانية والآداب واللغات وتشمل:

١- اللغات (عربية + إنجليزية).
٢- الآداب. ٣- علم النفس.
٤- الجغرافيا. ٥- التاريخ.
٦- دراسات إسلامية. ٧- الفلسفة.

وقد أجيزت في هذه المجالات (١٧١٧) أطروحـة، بنسبـة (٢٩,٠٩٪) من الإجمالي الكلي للأطروحات.

ثانيًا: العلـوم الاجتماعيـة وتضـم الموضوعات الآتية:

١- الإدارة العامة.
٢- إدارة الأعمال. ٣- التسويق.
٤- البنوك. ٥- التجارة.
٦- المناهج التربوية والتربية المدرسية والإشراف التربوي. ٧- علوم التربية.
٨- العلوم الإسلامية.
٩- الشريعة والقانون.
١٠- العلوم السياسية. ١١- الإعلام.

وقد أجيزت في هذه المجالات (٢٣١٢) أطروحـة بنسبـة (٣٩,١٧٪) من الإجمالي الكلي للأطروحات.

ثالثًا: مجالات العلوم التطبيقـية والتكنولوجيا وتشمل المجالات الآتية:

١- إدارة نظم الحاسـوب. ٢- الزراعة.
٣- الطب. ٤- العلوم. ٥- البـرمجيات.
٦- العمارة والفنون المعمارية.
٧- الرياضيات. ٨- الصناعة. ٩- الفيزياء
١٠- الهندسة. ١١- الجيولوجيا.

وقد أجيزت في هذه المجالات (١٨٧١) أطروحـة بنسبـة (٣١,٧٤٪) من الإجمالي الكلي للأطروحات.

كما حملت آخر صفحات مقدمة الدليل على تسع توصيات ومقترحات منها ما يتعلق بالمكتبـة الوطنية اليمنية والمركز الوطني للمعلومات بشـأن الأطروحـات التي ما زالت في حـوزة أصحابها سواء ما كان منها لدى أفراد أو مؤسسـات علمية وأكاديمية مدنية أم مؤسسات عسكرية وأمنية، وضرورة التنسـيق والتشـاور مع تلك الجهات لتوثيقها وضبطها وإتاحتها للباحثين والدارسـين. كما نوهت التوصيات بالجامعات بالتعاون مع المركز الوطني للوثائق للقيام باستنساخ الأطروحات

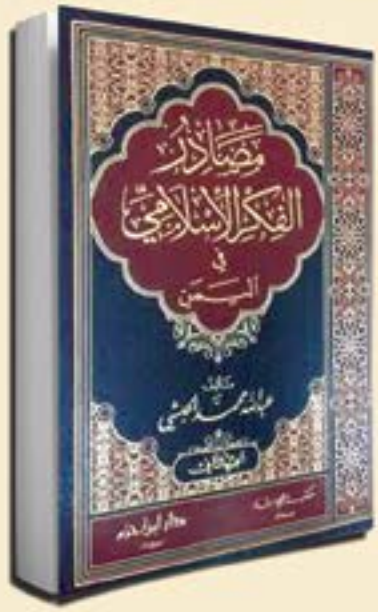

الجامعية على شـــرائح مايكروفيش للحفاظ على حقوق الآخرين، بالإضافة إلى حـفظها من الضياع والتمزق. كما أوصى الدليل كل جامعة يمنية بـعمل ملخصات لما بحـوزتها من رسـائل جامعية، ومن ثمّ إتاحتها على الإنترنت للاطلاع عليها من قبـل الباحـثين والدارسـين الجدد تفاديًا لعدم تكرار البحث في الدراسات.

لقد احـتوى الدليل على ذكر (٥٩٠٢ عنوانًا)، جاءت مقسـمة إلى قسـمين: أول خاص برسائل الماجستير الذي بلغ عددها (٤١٥٩ عنوانًا)، وجاءت بـين الصفحـات (٢٥- ٤٣٢)، وثان خاص برسـائل الدكتوراه التي بـلغ عدد عناوينها (١٧٤٣ عنوانًا)، وشـغلت الصفحـات من (٤٣٥- ٦٠٣)، وقـد جاءت معلومات تلك الرسائل في تسعة قوالب على النحو الآتي:

الرقـم المسلسـل، عنوان الرسـالة، الجامعة الحـاصل منها، بـلد التخرج، سنة الدراسـة، لغة الدراسـة، المجال، المكتبـة المتوافر فيها، وأخيرًا اسـم الباحث.

لقد ضم الدليل بين دفتيه (خمسين أطروحة عن حـضرموت) منها (ثلاثون رسالة ماجسـتير)، و(عشـرون رسـالة دكتـوراه)، موزعـة علـى المجـالات العلمية التي شـملها الدليل. لا ريب أن جهودًا مضنية بـذلت في إعداد ذلك الدليل، ولم يكن بمقدور المشـتغلين فيه الإلمام بـكل ما تم إجازته من قبـل الجامعات الأمـر الـذي أكدتـه توصيات الدليل نفسه. ويبدو أن القائمين عليه تواصلوا مع الجامعات اليمنية لمدهم بـما توافر فيها من عناوين، غير أن من أوكلـت إليـه المهمـة فـي جامعـة حـضرموت لم يعط ذلك الموضوع ما يستحقه من الاهتمام والوقت، بـدليل أننا رصدنا أكثر مما ذكره الدليل في بعض مكتبات كليات الجامعة[٨].

٣- د. السيد مصطفى سالم:

(المؤرخون اليمنيون في العهد العثماني الأول ١٥٣٨- ١٦٣٥م)[٩].

يعد الدكتور السيد مصطفى سالم من أوائل الروّاد الذين اختصوا بدراسـة تاريخ اليمن الشـمالي الحـديث والمعاصر، وقـد أعد رسـائله الجامعية العليا الماجسـتير والدكتوراه في هذا الاختصاص[١٠]، مما سـهل له عملية التواصل مع مصادر ومراجع تاريخ هـذا البلد، وأصبـح أحـد المتوافرين عليه، هذه الدراسـة جاءت في (٩٧ صفحـة) من الحجم المتوسـط، اشـتملت على تقـديم بقلم الأسـتاذ الدكتور أحـمد عزت عبـدالكريم (رئيس الجمعية المصرية للدراسـات التاريخية) الذي أشـاد بمسـاهمة الدكتور السـيد مصطفى سالم في دراسة تاريخ اليمن الحـديث والمعاصر وتخصصه فيه، وما أخرج من دراسات عنه، ثم نوّه بـأهمية الكتاب الذي يقـدمه، ودوره في لفت انتباه المؤلف إلى بـعض القـضايا التي تجب الإشارة إليها حتى تكتمل الرسالة التي يريد المؤلف إيصالها إلى القراء.

أما مقدمة المؤلف فقد حـملت جملة من التساؤلات عن قـضية إحـياء التراث العربي ودور الدول والأفراد والجماعات فيها، والجهود التي بـذلتها مصر في هذا المنحـى. كما لوّح إلى أن هذه الدراسة (المتواضعة) تعد من المراحل التعريفية والضرورية التي تسبـق أو تصاحـب خطوات إحـياء التراث. وقـد صدّر الكاتب بحـثه بدراسـة تمهيدية أشـار فيها إلى الظروف التاريخية التي أحـاطت بـأولئك المؤرخين -الذين يدرسـهم- والتي في خضمها ظهرت كتابـاتهم، كنتاج لحـركة التأليف التاريخي التي شـهدها هذا الجزء من بـلاد العرب، وجعلها تتميز نسبـيًا عن غيرها من كتابـات البـلدان العربـية الأخرى، منوهًا بـما اكتسـت بـه تلك الأعمال من صفات يمنية، وطابـع إسلامي.

ثمّ استعرض موضوع بحثه المتضمن دراسـة لـ(اثني عشـر مؤرخًا يمنيًا) ظهروا في (القرنين العاشر والحـادي عشـر الهجريين/ القـرنين السـادس عشـر والسابـع عشـر الميلاديين)، مقسمًا إياهم إلى مجموعتين (أصحاب كتب التراجم)، و(أصحـاب كتب التاريخ العام)، مبـينًا في المجموعة الأخيرة المؤرخين المنحازين للحكم العثماني أو للأئمة الزيديين. وقـد عني في دراسـتهم بـترجمتهم وأسـلوب كتابتهم، وموضوعاتها، واهتماماتهم، ومواقـفهم الفكرية والسياسـية، وما تميز بـه كلٌ عن الآخر. كما ألحـق الدراسة بمؤلفاتهم التاريخية في فروع المعرفة المطروقـة في عصرهم. هذا بـالإضافة إلى قـائمة المصادر المخطوطة والمطبـوعة، فضلًا عن المراجع باللغة العربية والإنجليزية.

لقد تناولت الدراسة (ثلاثة من مؤرخي حـضرموت) هما عبدالقادر بـن شـيخ العيدروس، ومحـمد بـن أبـي بـكر بـن عبدالله الشلّي، وأبو الطيب عبدالله بن أحـمد بـامخرمة، وقـد التزم بـالمنهج الذي رسـمه لنفسـه في تناولهما، فجاءت ترجمته لهما ضافية، ناهيك عن دراسته لكتبهم، إضافة إلى ما تميزوا به من صفات في أسلوبـهم بـوصفهم ممثلين لأصحـاب كتب التراجم[١١]. كما أشـار إلى مؤلفاتهم عند ذكره لمؤلفات المؤرخين الذين درسهم[١٢].

٤- د. أيمن فؤاد سيد:

(مصـادر تـاريـخ اليمـن فـي العصـر الإسلامي)[١٣]:

تعد هذه الدراسة من أوائل البحـوث التـي عالجت المصادر اليمنية وغيـر اليمنية ذات العلاقة بـتاريخ هذا البلد عبر عصوره الإسلامية المختلفة طيلة أربعة عشـر قـرنًا. وقـدم لها المؤلف

بتعريف الكتابة التاريخية عند اليمنيين قبيل وبعد الإسلام، مستعرضًا بعض الملاحظات العامة حول المصادر، كما لم تفته الإشارة إلى التعريف بالتراث اليمني المنتشر في مكتبات العالم. أما المدوّنات نفسها فقد قسّمها حسب العصور والقرون، مقدمًا لكل منها بفصل يُبيّن إطارها التاريخي والثقافي، ويُتبع ذلك بالمؤلفين الذين عاشوا في ذلك العصر، مرتبًا إياهم حسب سنوات وفاتهم ومترجمًا لهم. كما أورد مؤلفاتهم وأوضح منها المخطوط والمطبوع. وهذه الدراسة لا غنى عنها لمن يبحث في تاريخ اليمن.

وما يميز هذه الدراسة أنّ مؤلفها سلك منهجًا علميًا دقيقًا في عرض مصادره ووصفها، إضافة إلى رفدها بملاحق تضمّنت قائمة بأسماء المصادر والمراجع والدراسات الحديثة، وقائمة بأسماء ملوك اليمن وسلاطينها منذ انفصال البلاد عن الحكم العباسي حتى آخر الأئمة الزيديين (محمد البدر). وقد تضمّنت تلك القوائم مصادر التراجم إضافة إلى تحديد مدة حكمهم، علاوة على ما اشتملت عليه تلك الدراسة من فهارس بأسماء المؤلفين والكتب والمحققين والناشرين والأماكن والبلدان الأمر الذي يساعد الباحث في الوصول إلى مراده بأقل وقت ممكن.

٥- د. شاكر مصطفى:

عمل موسوعي ضخم تناول فيه المؤلف تطور علم التاريخ في بلاد الإسلام، في مختلف أطواره وعصوره وعني بدراسة المؤرخين ومدارسهم ومصنفاتهم وتقنياتهم العلمية فيها، فضلًا عن مصادرهم وأخرج كل ذلك تحت عنوان (التاريخ العربي والمؤرخون، دراسة في تطور علم التاريخ ومعرفة رجاله في الإسلام)، وجاء في (أربعة أجزاء)[١٤]. وقد حظيت المدرسة التاريخية اليمنية مع حضرموت بعناية المؤلف وقد جاء حديثه عنها بين ثنايا (الفصل الثالث) من (الجزء الأوّل) المتعلق بالمدرسة اليمنية الأولى قبل الإسلام وإرهاصات قيامها وأعلامها المؤسسين ونوعيّة المادة التاريخية التي قدمتها، حتى أواسط القرن السابع[١٥] حينذاك دخلت المدرسة مرحلة جديدة من تاريخها ليتناوله المؤلف في (الفصل السابع عشر) من (الجزء الثاني)[١٦]، مقسمًا إياها إلى مرحلتين:

أولى: وقد أعاد فيها بنوع من التوسّع ما أورده في (الجزء الأول)، وثانية: أبرز فيها أسباب زوال المرحلة الأولى، وطبيعة ما تقدمه المصادر عن اليمن من مادّة تاريخية، وكذا أسباب اهتمامها بتاريخ اليمن، ثم الملامح العامّة. ويعرّج بعد ذلك على مؤرّخي هذه المدرسة موضحًا أبرز ممثلي المرحلتين[١٧]. وقد تابع مسيرة (المدرسة التاريخية اليمنية مع حضرموت) في الفصلين (التاسع والعشرين والثلاثين) من (الجزء الرابع)[١٨] اللذين أبرز فيهما سماتها العامّة مع ذكر المؤرخين (الكبار) و(الثانويين). وقد نوّه بأنه لا يعني بالثانويين المؤرخين الصغار أو الذين لا قيمة تاريخية لأعمالهم إنما هم من اقتصر في الغالب على تأليف كتاب واحد أو كتابين سواء كانت محلية أو مذهبية أو ينظم التاريخ شعرًا أو يشرح هذا الشعر. وهو وإن عمّم استنتاجه عن المدرسة الأخيرة -وكان محقًا في بعض منها- إلا أن منهجه الشمولي الذي سلكه قد أخفى عنه بعضًا من خصائص الكتابة التاريخية في حضرموت، خاصة أنه لم يطلع على مظانّ تلك المصادر التي يتناولها: وهي خمسة عشر مصدرًا من أعمال باطحن، ومحمد عبدالرحمن باعبّاد، والشّواف، وعبدالرحمن الخطيب، وعبدالله بن معروف بن عمير، وعلي بن أبي بكر السقّاف، وشنبل، وباشيبان، وخرد. وقد اكتفى بما جاءت به مراجعه التي اعتمد عليها مثل: المشرع الروي للشلّي، أو تاريخ الشعراء الحضرميين للسقّاف، ومصادر تاريخ اليمن لأيمن فؤاد سيد، إضافة إلى بعض أعمال عبدالله محمد الحبشي مثل مراجع تاريخ اليمن، ومصادر الفكر.

٦- عبدالله حسين العمري:

(مصادر التراث اليمني في المتحف البريطاني)[١٩]:

الكتاب عبارة عن حوصلة لمراجعات المؤلف وزياراته للمتحف البريطاني

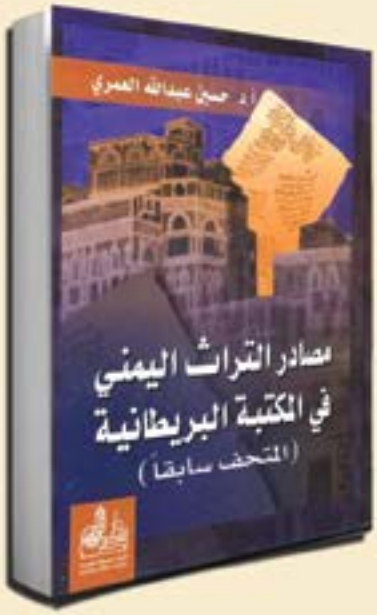

منذ التحاقه بجامعة كمبردج. وكان يرجى منه تسليط الضوء على ما يوجد بالمتحف البريطاني من كنوز التراث اليمني. وقد جاء الكتاب في (٣٨٧ صفحة) من الحجم الوسط. اشتمل على مقدمة وقسمين. وقد عالج في المقدمة جملة من القضايا مثل التراث والتجديد، والخارطة الجغرافية لانتشار مليون مخطوطة عربية في رفوف مكتبات العالم مبينًا مواطن وجودها وأعدادها. ثم يعطف على ذكر نشأة (المتحف البريطاني) الذي كان ثمرة من ثمار عصر التنوير في أوروبا وما رافق ذلك العصر من نتائج على مجمل نواحي الحياة. فبرز الاهتمام بالبحث العلمي وتدفق البعثات العلمية نحو أرجاء العالم القديم للتعرف على أحواله عامة وتراثه الفكري والحضاري خاصة، ومن ثم اقتناء ما يمكن الحصول عليه بعدة طرق ووسائل الأمر الذي أسهم في تجمع ثروات كبيرة من المخطوطات الإسلامية في أوروبا ومن بينها المخطوطات اليمنية التي كان لها حضورها في تلك المكتبات العالمية، ولا سيما (المتحف البريطاني) الذي شكلت مقتنياته من تلك المخطوطات موضوع كتابه هذا.

٧- د. سلطان ناجي:

(ببليوجرافيا مختارة وتفسيرية عن اليمن)[٢٠]:

يعد هذا الكتاب من أوائل الأعمال الببليوغرافية اليمنية المبكرة، وقد حاول مؤلفه نشره مرتين، وكاد أن يوأد لولا تدخل الصدفة في انبعاثه من قبل الأشقاء في دولة الكويت، فخرج إلينا بصورته الحالية مشتملاً على (١٨٤ صفحة) من الحجم الكبير، وكل صفحة مقسومة على عمودين، والكتاب في إطاره العام يتكوّن من ثلاثة أقسام:

أول وخص به المطبوعات الأجنبية فاحتوى على (١٩٧٩ عنواناً)، فكان من أكبر الأقسام وأهمها، وقدم له بمقدمة تاريخية باللغة الإنكليزية أوجز فيها القول عن تاريخ اليمن عبر مراحل تاريخه المختلفة وجاءت في ستة أجزاء:

الأول منها في التاريخ القديم وحضارته حيث أشار إلى الدول والممالك التي قامت في هذا الجزء من بلاد العرب فأتى على ذكر دولة معين، ومملكة سبأ، وقتبان، وأوسان، وحمير، وحضرموت. ثم أشار إلى ذكر الديانتين المسيحية واليهودية، ثم عطف على فترة الغزو الحبشي والفارسي.

أما الجزء الثاني من المقدمة فقد خص به تاريخ اليمن في عهد الإسلام من القرن السابع إلى القرن السادس عشر الميلادين، أشار فيه إلى الدويلات المستقلة التي شهد قيامها هذه الناحية من الجزيرة العربية مثل: الدولة الزيادية، واليعفرية، والقرامطة، والزيدية، والنجاحية، والصليحية، والزريعية، والحاتمية، والأيوبية، والرسولية، وأخيرًا الدولة الطاهرية.

ثم تناول في (الجزء الثالث) الصراع في البحر الأحمر من أجل التجارة. بينما تحدث في (الجزء الرابع) عن اليمن منذ التدخل التركي إلى الاستعمار البريطاني، وجاء (الجزء الخامس) عن الإرهاصات البريطانية الأولى لاحتلال عدن، أما (الجزء الأخير) فعني بالاستعمار البريطاني حتى الاستقلال، وفيه تتبع المؤلف السياسات الست التي انتهجتها بريطانيا، بدءاً من (فرق تسد) مروراً بـ(الصيغة المطاطية)، فضلًا عن المشكلة الحدودية والسياسة الإمامية، ناهيك عن حكومة الاتحاد، وأخيرًا الكفاح المسلح والانسحاب البريطاني. ولما كانت تلك المفردات التي تناولها المؤلف في مقدمته بمثابة عهود مهمة من تاريخ جهة اليمن، فقد سعى إلى تحديد فتراتها الزمنية بالتاريخ الميلادي، باستثناء عهود الدول والممالك القديمة التي أهملها ربما لعدم أتفاق الباحثين على تحديد فترات حكمها بدقة.

كاد كتاب الدكتور سلطان ناجي أن يوأد لولا تدخل الصدفة في انبعاثه من قبل الأشقاء في دولة الكويت، فخرج إلينا في صورته الحالية مشتملاً على مائة وأربع وثمانين صفحة

أما القسم نفسه -المطبوعات الأجنبية- وبحسب مقدمة المؤلف فقد وزعه على اثنين وعشرين فصلًا اشتملت المواضيع الآتية: عام، ورحلات، واكتشافات، وآثار، ونقوش، ونميات ونقود، وتاريخ (قديم - إسلامي - حديث)، وجغرافيا، ونبات، وزراعة وري، واقتصاد، وإثنولوجيا، ولغة، وأقليات، وأحوال اجتماعية، وعادات وتقاليد، وتغير اجتماعي، وصحة عامة وأمراض، وتربية، وجزر، (سقطرى، ميون، كمران... إلخ)[٢١].

أما القسم الثاني من الكتاب فقد عني بالمصادر التاريخية المخطوطة فرصد (٢٥٨ مخطوطة). بينما جاء القسم الثالث في المطبوعات العربية فذكر منها (٥٦٠ عنوانًا). وقد سبق القسمين الأخيرين بالحديث عن علم الببليوغرافيا وأهميته، وبيّن أسباب اهتمام المؤلف به فضلًا عن الصعوبات التي واجهها عند تأليف كتابه ونشره.

لا ريب أن الكتاب قد أدى دوره ومهمته في التعريف بما تم تأليفه وتصنيفه من مؤلفات عن ناحية اليمن سواءً ما كتب منها باللغة العربية -مخطوطًا كان أم مطبوعًا- أو باللغات الأجنبية التي كانت أكبر من القسمين الأول والثاني من حيث عدد العنوانات ويبدو أن وجود المؤلف في بيئات تتحدث اللغة الإنجليزية فضلًا عن دراسته في بريطانيا قد أسهم في رفد موضوعه بهذا العدد من الدراسات. كما أن أهمية هذا المصنف تكمن في انبعاثه في وقت لم يتم فيه بعد نشر كثير من كنوز تراث أهل اليمن. ولذلك كان لمؤلفه الفضل على المشتغلين والمعنيين بدراسة تاريخ وحضارة هذه الناحية من جزيرة العرب بما قدمه من أسماء للمصادر والمراجع والدراسات الحديثة وأن كانت (مختارة). لا سيما أن المؤلف لم يحشر موضوع كتابه في جانب معين من جوانب الإنتاج الفكري بل طرق جوانب متعددة منه. إضافة إلى أنه قد سلك منهجًا لم يسبقه غيره إليه حسب زعمه. فإذا كان جُل أصحاب الفهارس والأعمال الببليوغرافية السابقة عليه قد تناولوا فيها أسماء مؤلفيها، وعناوين كتبهم، ومكان نشرها، وعدد صفحاتها، فإنه زاد عليهم بإيراده بعض محتويات الكتب التي يقدّمها والاستشهاد بجزء مما جاء في مقدمتها[٢٢]، ويبدو أن ذلك كان دافعًا له بأن جعل من عمله هذا ببليوغرافيا وتفسيريًا في آن واحد حسبما حمله عنوان كتابه. لقد نبه المؤلف إلى أنه لم يقم برصد كل المؤلفات والمدونات، إنما اختار بعضًا منها دون أن يُبيّن أسباب ذلك الاختيار. إن المنهج الانتقائي الذي سلكه المؤلف في اختيار عنوانات مصادره ومراجعه عكس نفسه على حجم المادة التي يقدمها عن حضرموت حيث لا يصادف الباحث فيه إلا القليل مما تم ذكره عنها في تلك الفترة مع أن ما دوّن عن حضرموت باللغات الأوربية حتى عام ١٩٧١م يزيد على خمسة آلاف نص بين كتاب ومقال[٢٣].

الهوامش:

١. نشر في دمشق، ط/ ١٩٧٢م.

٢. نشر دار القرآن الكريم، بيروت، ط١/ ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، وقد حققه (Fherhard, E.N.W)، ونشر في behrrassowitz ألمانيا.

٣. تحقيق جوليان يوهانسين، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن، ط/ ١٩٩٤م.

٤. نشره المجمع الثقافي، أبوظبي، ط/ ١٩٧٩م.

٥. مركز الدراسات اليمنية، صنعاء، د.ت، وقد تم نشره.

٦. العمري (حسين بن عبدالله): مصادر التراث اليمني في المتحف البريطاني، دار المختار للتأليف والطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط/ ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م، ص ص١٤-١٦.

٧. صدر هذا الدليل عن رئاسة الوزراء، المجلس الأعلى لتخطيط التعليم، الأمانة العامة، د.ن، ٢٠٠٨م.

٨. العمودي (د. حسن صالح الفلام) حضرموت في الدراسات الجامعية ماجستير ودكتوراه، دار حضرموت للدراسات والنشر، ط١/ ٢٠١١م.

٩. سالم (د. السيد مصطفى): المؤرخون اليمنيون في العهد العثماني الأول ١٥٣٨-١٦٣٥م، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، المطبعة العالمية، القاهرة، ١٩٧١م.

١٠. كانت رسالته للماجستير بعنوان (تكوين اليمن الحديث أو اليمن والإمام يحيى ١٩٠٤-١٩٤٨م).

١١. سالم (د. السيد مصطفى): المؤرخون، ص ص٢٣-٣٧.

١٢. المرجع نفسه، ص ص٨٨-٩٠.

١٣. المعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة، نصوص وترجمات، المجلد (٧)، ط/ ١٩٧٤م.

١٤. مصطفى (شاكر): التاريخ العربي والمؤرخون، دراسة في تطور علم التاريخ ومعرفة رجاله في الإسلام، تم نشر هذه الأجزاء من طرف دار العلم للملايين، بيروت، ج١، ط١/ ١٩٨٣م، ج٢، ط٢/ ١٩٨٠م، ج٣، ط١/ ١٩٩٠م، ج٤، ط١/ ١٩٩٣م.

١٥. المرجع نفسه، ج١، ص ص١٣٥-١٣٩.

١٦. مصطفى (شاكر): التاريخ العربي والمؤرخون، ج٢، ط٢/ ١٩٨٠م، ص ص٣٠٥-٣٦١.

١٧. سبق للمؤلف أن نشر كل ذلك في مقال له تحت مسمى (التاريخ والمؤرخون في اليمن الإسلامية حتى القرن السابع الهجري) في مجلة كلية الآداب والتربية، جامعة الكويت، ع ١٣، يونيو حزيران، ١٩٧٨م، ص ص٩١-١١٥.

١٨. مصطفى (شاكر): التاريخ العربي المؤرخون، ج٤، ص ص٢٢٩-٢٩٣.

١٩. مصطفى (شاكر): التاريخ العربي المؤرخون، ج٤، ص ص٢٢٩-٢٩٣.

٢٠. ناجي (سلطان): جامعة الكويت، مراقبة المكتبات، السلسلة الببليوجرافية رقم ٦، أغسطس ١٩٧٣م.

٢١. ناجي (سلطان): ببليوجرافيا، ص١٣.

٢٢. ناجي (سلطان): ببليوجرافيا، ص١٣.

٢٣. آر. بي (سيرجنت): حول مصادر التاريخ الحضرمي، ص١٣. (مقدمة المترجم).

مصادر تاريخ حضرموت

حتى القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي

درج كثير من المؤرخين على تحقيب وتقسيم علم التأريخ إلى حقب وعصور زمنية: قديمة، وإسلامية، وحديثة ومعاصرة، رغم تحفظ البعض على ذلك التقسيم؛ معدين أنّ التأريخ واحد للإنسانية والأمة، أو أنّ التاريخ الإسلامي واحد منذ ظهور الإسلام إلى قيام الساعة، فلا حديث ولا معاصر.

ومع أنّ آخرين قد استحسنوا هذا التقسيم لأسباب أدناها: سهولة دارسته والتخصص فيه.

وبناء على ذلك فإنّ موضوعنا يختص بعصر التأريخ الإسلامي، والذي ربما أسماه البعض بالتأريخ الوسيط كمسمًى أوروبي والذي يبدأ من ظهور الإسلام إلى ما بعد القرن العاشر وقيام دولة الخلافة العثمانية.

د. محمد يسلم عبدالنور *

والكتابة التاريخية في حضرموت لا تختلف عنها في بلاد الإسلام – التدوين التاريخي ومصادره – قامت على طريقين:

الأولى: الطريق العمودية أو التصاعدية، وهي: أنّ المؤرخ يبتدئ بالتاريخ منذ الخليقة أو ظهور الإسلام أو بحدث ما وينتهي بعصره وبوفاته أو بمدة سابقة لعصره، فهي إذًا طريقة لها بداية ونهاية، وهذا التناول في حوادث التأريخ يعرف بالتاريخ الحولي.

الثانية: الطريق الأفقية، وتختص بالمكان دون الزمان، فمكانها حضرموت في أضيق حدودها واليمن في أوسطها، وبلاد الإسلام في أوسعها، وتدرس شرائح منتخبة من الناس موزعة على المجتمع في امتداداته العريضة: (سادة، ومشايخ، وفقهاء، وقضاة) وهو ما يسمّى بالتاريخ حسب الطبقات.

وعند تناول الكتابة والمصادر في حضرموت أجد لزامًا عليّ أنْ أقسّم تلك المصادر وأوزّعها إلى أربعة:

مصادر مندثرة: وهي التي لا يوجد منها سوى اسمها واسم مؤلفها، أو بعض منه.

مصادر مفقودة وضائعة: وهي التي لم نعثر عليها رغم محاولاتنا المتكررة لذلك، ونأمل بوجودها في مكتبات خاصة في حضرموت أو خارجها أو خارج اليمن.

مصادر مخطوطة: وهي التي وقفنا عليها بالطرق الرسمية أو الخاصة.

مصادر مطبوعة: وهي المتاحة للباحثين بالشراء أو في المكتبات العامة.

وتناولت المصادر الأربعة تلك بالتفصيل على النحو الآتي:

أولًا: المصادر المندثرة:

١- كتاب الياقوت الثمين وقوت قلب الفطن اللقين فيما يتعلق بالعلماء والفقهاء والأولياء والصالحين والحوادث وذكر السلاطين والأعيان:

لمؤلف مجهول وهو من علماء تريم الأوائل، وقد اعتمد عليه المحدث محمد علي خرد (ت ٩٦٠هـ) في كتابه الغرر[١].

ويُعَدُّ هذا الكتاب أقدم مصدر تاريخي لذكر الإمام يحيى بن العظيم الحاتمي تلميذ الإمام محمد بن علوي بن محمد بن علوي بن عبيدالله بن المهاجر أحمد صاحب بيت جبير (ت ٥١٢هـ)[٢]. وبنو حاتم من قدماء فقهاء تريم الأئمة والعلماء المشهورون[٣].

٢- تاريخ الإمام جمال الدين محمد بن أحمد بن أبي الحب (ت ٦١١هـ):

وهو عبارة عن تاريخ وتراجم؛ وممن ترجم لهم الشيخ سالم بن بصري (ت ٦٠٤هـ)[٤]، وآل أبي الحب من فقهاء تريم، الأئمة الخطباء[٥]، وقد انقرضت هذه الأسرة من تريم منذ عهد قديم.

٣- تاريخ الإمام التقي الورع الزكي القاضي شهاب الدين أحمد بن محمد بن أبي عيسى (ت ٦٢٨هـ):

وآل باعيسى من فقهاء تريم[٦]، أشار إليهم باوزير في التحفة[٧]، وهذا المصدر قد اعتمد عليه خرد في كتابه الغرر[٨].

وهؤلاء هم عصر الرعيل الأول من المؤرخين التريميين الذين كانوا في عصر النهضة العلمية بحضرموت؛ وهي النصف الأخر من القرن السادس إلى بدايات القرن السابع للهجرة[٩].

٤- تحفة المريد وأنس الفريد (تحفة الراغبين) في مناقب العارف بالله سعد بن علي الظفاري (ت ٦٠٢هـ)[٥]:

لمحمد بن علي بن أبي طحن (ت في ق٧هـ)، ومن جملة ما تضمنه هذا الكتاب أربع رسائل ومكاتبات بعثها شيخه، منها اثنتان إلى محمد بن علي بن أبي علوي (ت ٦٥٣هـ)، والثالثة لبعض أهل عدن، والرابعة كتبها تعزية لأولاد الشيخ الصوفي محمد بن حسين البجلي.

وقد قام محمد بن أبي طحن بإيراد تلك الرسائل والتعليق عليها، وبالأخص الرسالتين اللتين بعثهما شيخه سعد الظفاري إلى محمد بن علي بن أبي علوي الذي حاول فيها الشارح (المؤلف) الحط والغض من قدره ومكانته[١١].

ويبرز إشكال آخر هنا وهي تلك الرسالة التي ضمنها أبو طحن في كتابه، والتي بعثها شيخه سعد الظفاري إلى أولاد الشيخ محمد بن حسين البجلي تعزية في وفاة والدهم، فهي وإن كانت تعطي لنا علاقة صوفية حضرموت بصوفية تهامة، فإنها تحملنا على السؤال: كيف لشيخه أن يبعث برسالة تعزية في شخص توفي بعده؟! فقد توفي الشيخ محمد بن حسين البجلي سنة ٦٢١هـ[١٢]، وبهذا لا تصح هذه إلا أن يكون هناك محمد بن حسين البجلي آخر متقدم الوفاة، أو أن أبا طحن قد افترى تلك الرسالة بعد وفاة الاثنين معًا[١٣]، مما يجعلنا كذلك لا نستبعد افتراءه أيضًا لرسالتي محمد بن علي بن أبي علوي.

٥- كتاب في مناقب السادة آل أبي علوي[١٤]:

لحسن الورع بن علي بن محمد مولى الدويلة (ت ٧٨٩هـ).

٦- كتاب مختصر لطيف في ذكر الصالحين[١٥]:

لسليمان بن أحمد بن محمد الخطيب (ت ٧٩٧هـ)، وهذان المصدران اعتمد عليهما الخطيب (ت ٨٥٥هـ) في كتابه (الجوهر الشفاف)[١٦].

٧- تراجم الأولياء والصالحين:

للقاضي جمال الدين محمد بن مسعود بن سعد باشكيل (ت ٨٧١هـ)، ترجم فيه لجماعة من السادة، وقد اعتمد عليه بامخرمة في كتابه: (النسبة إلى المواضع والبلدان)[١٧].

٨- تقييدات تاريخية:

للقاضي جمال الدين محمد بن مسعود بن سعد باشكيل (ت ٨٧١هـ) السابق، وقد ظفر بها علوي بن طاهر الحداد (ت ١٣٨٢هـ) واستعان بها في كتابه (عقود الألماس)[١٨].

٩- بهجة السمر في أخبار سعاد المشتهر:

للملاح الربان سالم بن عوض باسباع (ت ٩٥٠هـ) وهو مذكرات شخصية كتبها بأسلوب عامي، مؤرخًا الغزو البرتغالي على الشحر عام ٩٢٩هـ[١٩]، وقد استقى معظم مادته المؤرخ محمد عبدالقادر بامطرف (ت ١٩٨٨م) في كتابه (الشهداء السبعة)[٢٠].

١٠- مفتاح السعادة والخير في مناقب آل باقشير:

لعبد الله بن محمد باقشير (ت ٩٥٨هـ)، ومادته قد استعان بها محمد سعيد باقشير (ت ١٠٧٧هـ) في كتابه (الفتوحات المكية في تراجم السادة القشيرية)[٢١].

ثانيًا: المصادر المفقودة الضائعة:

١- رحلة الإمام المهاجر:

للإمام أحمد بن عيسى (ت ٣٤٥هـ)، فقد ورد في رسالة "مكاتبة" بين محمد بن عقيل بن يحيى (ت ١٣٥٠هـ) من اليمن إلى علوي بن طاهر الحداد (ت ١٣٨٢هـ) في جوهور في ١٤ رجب ١٣٤٩هـ "ورحلة المهاجر أحمد جدّوا في حصولها وطبعها بدون توانٍ"، ورسالة أخرى في ٣٠ ذي الحجة ١٣٤٩هـ بينهما "ورحلة المهاجر أحمد بن عيسى أحب أن تنقلوها ولو بأجرة زهيدة إذا كان نشرها بالطباعة يتأخر"[٢٢]، وهذا دليل وجود الرحلة عند علوي الحداد.

٢- السلسل المهذب والمنهل الأحلى العذب:

للشيخ محمد بن أبي بكر بن عمر بن أبي عباد (ت ٨٠١هـ) ضمّنه تراجم أربعين رجلاً من صالحي عصره ورتبهم في ثلاث طبقات، وذكر في ترجمة كل رجل من رجال كل طبقة تاريخ حياته وزهده وورعه ونقواه وكراماته وتاريخ وفاته[٢٣].

٣- تاريخ ابن حسان:

للشيخ عبدالرحمن بن علي حسان (ت ٨١٨هـ) وهو ثلاثة تواريخ في وفيات الأعيان اليمنيين ومواليدهم[٢٤]، وهي (البسيط) و(الوسيط) و(البهاء)، وقد وقف علوي بن طاهر الحداد على الصغير منها في مكتبة شيخه أحمد بن حسن العطاس، ولما زار حبان عام ١٣٢٢هـ أفاده سالم بن أحمد المحضار أنّ عنده نسخة من تاريخ ابن حسان[٢٥]، وقد نقل المؤرخ الطيب بامخرمة (ت ٩٤٧هـ) نقولات منه، وجدها بخط والده تتعلق بتاريخ حضرموت[٢٦].

٤-٥-٦- مناقب محمد بن علي بن أبي علوي (ت٦٥٢هـ)، والشيخ سعيد بن عيسى العمودي (ت٦٧١هـ) والشيخ عبدالله بن محمد بن أبي عباد (القديم) (ت٦٨٧هـ)[٢٧]:

وجميعها للشيخ عبدالرحمن بن علي حسان (ت٨١٨هـ).

٧- تاريخ باشراحيل:

للقاضي محمد بن عبد الرحمن باشراحيل (ت ٩٢٣هـ)، ينقل عنه عبدالرحمن بن عبيدالله السقاف (ت ١٣٧٥هـ) في مؤلفاته.

٨- رشف الزلال الروي في التكميل والتذييل على طبقات الإسنوي:

للشيخ عبد الله بن عمر بامخرمة (ت ٩٧٢هـ)، وهو كما جاء من عنوانه تكميلاً على (طبقات الشافعية) للإسنوي (ت ٧٧٢هـ)، وقد نقل منه الطيب بافقيه في (تاريخ الشحر)، وباجمال في (الدر الفاخر).

٩- فيض الجود في سيرة فخر الوجود:

للشيخ حسن بن أحمد باشعيب (ت ١٠٣٠هـ)، وهو في ترجمة الشيخ أبي بكر بن سالم (ت ٩٩٢هـ).

ثالثًا: المصادر المخطوطة:

١- المنهج القويم والشفاء للسقيم في مناقب الشيخ عبدالله بن محمد القديم:

للشيخ محمد بن أبي بكر باعباد (ت ٨٠١هـ)، وهو في ترجمة الشيخ القديم عبدالله بن محمد باعباد (ت٦٨٧هـ) وأولاده وأحفاده، استطرد فيه ذكر مناقبهم وكراماتهم وعلاقاتهم بعلماء حضرموت والخارج، وهو يعد بمثابة سفر عظيم ومصدر مهم ليس لتاريخ هذه الأسرة فحسب، بل وتاريخ حضرموت لمدة قرنين من الزمان.

٢- الجوهر الشفاف في ذكر فضائل ومناقب وكرامات السادة الأشراف من آل أبي علوي وغيرهم من الأولياء والصالحين والأكابر العراف:

للشيخ عبد الرحمن بن محمد الخطيب (ت ٨٥٥هـ)، ويقع الكتاب في جزئين أو ثلاثة

على اختلاف النسخ، ابتدأ في تأليفه سنة ٨٢٠هـ، واحتوى على أربعة فصول واثنتين وخمسمائة حكاية.

الفصل الأول: في ذكر شيء من فضائل الأولياء والصالحين.

الفصل الثاني: في إثبات كرامات الأولياء.

الفصل الثالث: في تريم ومقبرتها ومساجدها وجبالها من الفضل والخير.

الفصل الرابع: في فضل أهل بيت الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

وجعل الفصل الثاني في أربع طبقات، وإذا ذكر شيخًا سرَد كراماته، ثم أتبع كل شيخ من أولاده، ومن في طبقته على النحو الآتي:

- الطبقة الأولى: من عصر علي بن علوي خالع قسم (ت ٥٢٧هـ) وبها ٢٥ حكاية.

- الطبقة الثانية: من عصر الفقيه المقدم محمد بن علي (ت ٦٥٣هـ) إلى الحكاية ١٠٦.

- الطبقة الثالثة: من عصر علي بن علوي بن الفقيه المقدم (ت ٧٠٩هـ) إلى الحكاية ٢٤١.

- الطبقة الرابعة: من عصر عبد الرحمن السقاف (ت ٨١٩هـ) إلى الحكاية ٥٠٢.

ونقل حكايات الطبقات الثلاث الأولى من مصدرين: الأول: لحسن الورع بن علي (ت ٧٨٩هـ)، والآخر: لسليمان بن أحمد الخطيب (ت٧٩٧هـ) كما ذكرنا سلفًا[٢٨]. وقد حذف الإسناد فيها كونها حكايات مشهورة بين الناس فلا تحتاج إلى إسناد وطلبًا للاختصار، أما الطبقة الرابعة فروى حكاياتها من مشايخه، لأنهم قريبو عهد به.

وقد قمت بدارسة منهجه واستخلاص مادته التاريخية ودراستها في كتاب صدر عن دار تريم للدراسات والنشر ٢٠١٤م باسم: (منهج الخطيب التريمي ومادته التاريخية في كتابه الجوهر الشفاف).

٣- فتح الله الرحيم الرحمن في مناقب عبدالله بن أبي بكر العيدروس:

لعمر بن عبد الرحمن السقاف باعلوي صاحب الحمراء (ت ٨٨٩هـ)، وهو في ترجمة عبدالله بن أبي بكر العيدروس (ت ٨٦٥هـ) جاء في مقدمة وثمانية فصول وخاتمة، جاءت المقدمة في حسن الظن بالله وبرسوله وبعباده، الفصل الأول في نسبه، والثاني في صفته، والثالث في مولده، والرابع في أخلاقه، والخامس في أحواله، والسادس في من أثنى عليه، والسابع في كراماته، والثامن في كلامه، والخاتمة في وفاته.

٤- الدر المدهش البهي في مناقب الشيخ سعد بن علي مذحج الحضرمي التريمي (ت ٨٥٧هـ):

لعلي بن أبي السكران باعلوي (ت ٨٩٥هـ)، الذي بدأ بتأليفه عام ٨٤٤هـ في حياة صاحب الترجمة، حوى عدّة فصول في مولده ونشأته وتعليمه وكراماته ومناقبه وما قيل فيه ووفاته.

٥- تحفة النفوس والروض المأنوس في مناقب العيدروس، المسمى بالتحفة النورانية:

للشيخ عبدالله بن عبدالرحمن باوزير المتوفى نهاية القرن التاسع، وهو في ترجمة عبدالله بن أبي بكر العيدروس (ت ٨٦٥هـ)، بدأه بالحديث عن خروج الإمام أحمد بن عيسى (ت ٣٤٥هـ) من البصرة إلى حضرموت وأولاده، ثم عرّج على صاحب الترجمة – العيدروس – وذكر كراماته على نسق حكايات الخطيب في (الجوهر الشفاف)، ثم ذكر فصلاً في فضائل السيدة فاطمة الزهراء البتول، وأمها خديجة الكبرى، والسبطين الحسن والحسين، وذريتهم ونسلهم، والفقيه المقدم محمد بن علي وكراماته، وأولاده إلى الشيخ عمر المحضار، وقد استقى المؤلف معلوماته من شيوخ عدّة منهم الإمام الفقيه علي بن محمد بن جديد (ت ٦٢٠هـ)، والإمام الفقيه محمد بن أبي بكر باعباد (ت ٨٠١هـ)، والشيخ عبدالرحمن حسان (ت ٨١٨هـ)، والشيخ الفقيه مسعود باشكيل (ت ٨٣٨هـ).

٦- ترياق أسقام القلوب الواف في ذكر حكايات السادة الأشراف:

لعمر بن محمد باشيبان (ت ٩٤٤هـ) في ثلاثة أجزاء: جاء الأول منه في فضل الأولياء والصالحين، والثاني في ذكر كرامات الأولياء، والثالث والأخير اختص بفضل مدينة تريم وأهلها، فهو إذًا لا يختلف عن (الجوهر الشفاف) إلا من حيث حصر موضوعه في تراجم السادة العلويين.

٧- العقد النبوي في مناقب السادة الأشراف بني علوي:

للإمام شيخ بن عبدالله العيدروس (ت ٩٩٠هـ) في جزئين: بدأ الأول منه بسيرة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وابنته فاطمة الزهراء البتول، وزوجها علي بن أبي طالب، وابنَيْها الحسن والحسين، وأحفادهم، والمهاجر، والفقيه المقدّم إلى أحمد بن أبي بكر بن عبدالرحمن السقاف (ت ٨٦٩هـ)، وبدأ الجزء الثاني بترجمة عبدالله بن أبي بكر العيدروس إلى والده ثم تحدّث عن نفسه وقراءته العلمية، وختم كتابه بمعجزات الرسول صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم.

٨- أنس السالكين في حكايات (مناقب) الصالحين أو إلى مقامات الواصلين:

للإمام عبد الرحمن بن علي باهارون (ت ٩٩٠هـ)، مشتمل على أربعمائة وستة وخمسين من حكايات الصالحين، ويليها أربعة فصول، غير أنّ الموجود منه يبدأ بالحكاية الثامنة والعشرين، الفصل الأول في ترب حضرموت ومساجدها وشعابها، وتحدّث فيها عن صفات أهل تريم، والثاني في ذكر النبي هود عليه الصلاة والسلام، والثالث في لباس الخرقة الشريفة ونسبتها، والرابع في ذكر الجنان وما يشوّق الطالب إلى نعيمها.

٩- ذكرى الحبيب في مناقب مولى الكثيب:

لعبدالرحمن بن أحمد البيض (ت ١٠٠١هـ)، ويُعَدُّ أول ترجمة وسيرة ذاتية للشيخ أبي بكر بن سالم (ت ٩٩٢هـ)، وينسب خطًا لسالم بن أحمد باجندان.

١٠- مواهب الرب الرؤوف في مناقب الشيخ العارف بالله معروف:

لمحمد بن عبد الرحمن بن سراج الدين باجمال (ت ١٠١٩هـ)، وهو في ترجمة شيخه وجده معروف بن عبد الله بن أحمد باجمال (ت ٩٦٩هـ)، جعله في أربعة أبواب، الأول في نسبه وقبيلته ومولده ونشأته، والثاني في دعوته إلى الله ومذكراته، والثالث في كراماته، والأخير في وصيته ووفاته.

١١- بلوغ الفلفر والمغانم في مناقب أبي بكر بن سالم:

لمحمد بن عبدالرحمن بن سراج الدين باجمال (ت١٠١٩هـ)، وهو رسالة صغيرة في كرامات أبي بكر بن سالم (ت ٩٩٢هـ).

١٢- بـرد النعيم في أنسـاب الأنصار خطبا، تريم:

للشيخ محمد بن عبدالله الخطيب (ت بعد سنة ١٠٢٥هـ)، رتّبه في مقدمة وأربعة فصول وخاتمة، جاءت المقدمة في ذكر فضائل أسرة آل الخطيب وشمائلهم، أما الفصول الأربعة الأخرى فقد جعلها لأنساب الخطباء، ودورهم في الحياة الثقافية والعلمية بتريم، وتوليهم أمور الفقه والخطابة، ومساهمتهم في التعليم، كما تضمن إشارات تاريخية لها أهميّتها في تدوين تاريخ حضرموت السياسي، أما الخاتمة فهي عبارة عن وصية أسماها (البرق اللامع والمهند القاطع) في ترجمة جدّهم عباد بن بشر، الذي يزعم المؤلف بانتساب أسرته إليه، موضحًا كيفية وصوله إلى حضرموت برفقة الجيش الذي أرسله خليفة رسول الله أبي بكر الصديق للقضاء على حركة الرِّدّة [٢٩]، وجميع نسخ هذا الكتاب قد بُتِرَ جزء منها، وسيصدر محققًا قريبًا إن شاء الله.

رابعا: المصادر المطبوعة:

١- البرقة المشيقة في ذكر لباس الخرقة الأنيقة:

لعلي بن أبي بكر السكران باعلوي (ت ٨٩٥هـ)، وهو في التصوف وفي لباس خرقته ومن تنسب، ونسبة الصحبة والمتابعة والتحكيم لمشايخ حضرموت من آل أبي علوي وغيرهم [٣٠]، وطبع بمصر عام ١٣٤٧هـ على نفقة علي بن عبدالرحمن بن سهل.

٢- الأنموذج اللطيف في مناقب الأستاذ الأعظم الفقيه المقدم محمد بن علي باعلوي (ت ٦٥٣هـ):

لعلي بن أبي بكر السكران باعلوي (ت ٨٩٥هـ)، وقد طبع مع (البرقة المشيقة) ملحقًا به.

٣- التاريخ الأكمل الأقدم الشهير بتاريخ شنبل:

للمؤرخ أحمد بن عبدالله شنبل (ت ٩٢٠هـ)، وهو تاريخ مختصر وعام، جامع لتاريخ حضرموت، واستطرادات إلى تاريخ اليمن والعالم الإسلامي، مرتّب على السنين ابتدأ النصف الأخير منه والموجود من سنة ٥٠١هـ إلى سنة ٩٢٠هـ [٣١]، وهو مصدرٌ لجميع تواريخ حضرموت، وقد تكتّم شنبل على مصادره ولم يذكرها لا في قليل أو كثير، وعند مقارنته بالنقولات التي نقلها بامخرمة في (قلادة النحر) من تاريخ ابن حسان وجدناها هي نفسها عند شنبل، فيحتمل أن يكون هو أو يكون مستلاً من تاريخ ابن حسان المفقود، وقام الأستاذ عبدالله بن محمد الحبشي بتحقيق هذا الكتاب وأسماه (تاريخ حضرموت)، وطبعه على نفقة الشيخ محفوظ سالم شماخ عام ١٤١٥هـ/١٩٩٤م، ثم أعيد طباعته مرة أخرى عام ٢٠٠٤م بمناسبة إعلان صنعاء عاصمة للثقافة العربية.

٤- مواهب القدوس في مناقب ابن العيدروس:

للشيخ محمد بن عمر بحرق (ت ٩٣٠هـ)، وهو في ترجمة أبي بكر بن عبدالله العيدروس العدني (ت ٩١٤هـ)، وقد حوى فصلين:

الأول: في تاريخ مولده وسيرته إلى وفاته، وتنقّل أطواره في إقامته وأسفاره وكراماته وتوطّنه بعدن، وذكر والده أحمد المساوى (ت ٩٢٢هـ)، وأمه عائشة بنت عمر المحضار (ت ٨٨٨هـ)، وعمّه الشيخ علي بن أبي بكر (ت ٨٩٥هـ). والثاني: في شرح قصيدته التي أولها: ببسم الله مولانا ابتدينا، والكتاب لم يطبع في ضمن المجموعة العيدروسية، المكوّنة من أربعة كتب، التي طُبِعَتْ بالهند، فقام طاهر بن محمد العيدروس بطباعته سنة ١٤٠٩هـ تحت الاسم نفسه المسمّى (المجموعة العيدروسية)، وشملت سبعة كتب، حوى أحدها (مواهب القدوس)، غير أنّ الطباعة جاءت كثيرة الأخطاء والحذف.

٥- قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر:

للطيب بن عبدالله بامخرمة (ت٩٤٧هـ)، في ثلاثة أجزاء، احتوى على مادة تراجمية لمشاهير العالم الإسلامي واليمن وحضرموت بكافة تخصصاتهم رجالاً ونساءً، مرتبة ترتيبًا تصاعديًا حسب سنوات وفاتهم، مقسّمًا المائة سنة إلى خمس طبقات، كل طبقة عشرون عامًا، تتبّعها حوادثه من السنة الأولى للهجرة إلى سنة ٩٢٧هـ كما عُني الكتاب بالكثير من النواحي الدينية والعلمية والأدبية فضلاً عن النواحي الاجتماعية والاقتصادية، وتراجم لأشخاص لا تجد أثراً لسيرهم عند غيره، كما أنه نقل نقولات من تاريخ ابن حسان (ت ٨١٨هـ) وجدها بخط والده يتعلق بتاريخ حضرموت، أخذها برمّتها شنبل (ت ٩٢٠هـ) في تاريخه، وقد قام كلٌ من: عبدالغني علي الأهجري، وعبدالرحمن جيلان صغير، ومحمد يسلم عبدالنور بدراسة الأجزاء الثلاثة وتحقيقها على التوالي؛ ونالوا به درجة علمية (الماجستير) من جامعة صنعاء ٢٠٠٢م، وصدر عن وزارة الثقافة في ضمن إصدارات صنعاء عاصمة الثقافة العربية ٢٠٠٤م، في ثلاثة أجزاء، ثم صدر فيما بعد عن دار المنهاج جدة عام ٢٠٠٨م في ستة أجزاء من غير الإشارة إلى التحقيق والطبعة الأولى رغم الاستفادة منها.

٦- النسبة إلى المواضع والبلدان:

للطيب بن عبدالله بامخرمة (ت ٩٤٧هـ)، رتبه على حروف المعجم، وقد قام محمد عبدالله المعلمي ومطهر الجبل بتحقيقه ونالا به درجة الماجستير من جامعة صنعاء ٢٠٠٤م؛ نأمل أن يرى النور، وطبع عام ٢٠٠٤م بمركز الوثائق والبحوث - أبوظبي - الإمارات العربية.

٧- العقد الثمين الفاخر في تاريخ القرن العاشر:

لعبدالله بن محمد بن أحمد باسنجله (ت ٩٨٦هـ)، ويعد أول كتاب يؤرّخ لفترة القرن العاشر، ألّفه بطلب من الشيخ محمد بن عبدالرحمن العمودي (ت ٩٧٨هـ)، بدأه بالسنة الأولى بعد التسعمائة إلى السابعة والسبعين بعد التسعمائة، والتي لم يكملها، كما أن سنة ٩٦٣هـ لا تحتوي على أحداث، واختص في حوادث ووفيات اليمن وخاصة حضرموت وعدن، واستطرد إلى حوادث مكة، كما أرّخ فيه للدولة الكثيرية الأولى، والدولة الطاهرية، والحملة المملوكية على اليمن ومنازلة البرتغال لهم، وقد صدر عن مكتبة الإرشاد بصنعاء ٢٠٠٧م، بتحقيق عبد الله محمد الحبشي وأسماه (تاريخ الشحر).

٨- الغرر، غرر البهاء الضوي، ودرر الجمال البديع البهي في ذكر الائمة الأمجاد، والعلماء العارفين النقاد والفقهاء، المبرزين الأسياد من بني الشيخ بصري:

وبني الشيخ جديد، وبني الشيخ علوي بن الشيخ عبيدالله بن الشيخ أحمد بن عيسى الأشراف الحسينيين.

للمحدّث محمد بن علي خرد (ت ٩٦٠هـ)، وهو في تراجم فقهاء بني الشيخ عبد الله بن أحمد بن عيسى (ت ٣٨٣هـ) وذريتهم، ومن عاصرهم من فقهاء تريم إلى عصر المؤلف، ويُعدُّ المؤلف أول مَنْ فصل مناقب الشخصيات عن تراجمها، وأول من جمع بينها منفصلين في كتاب واحد، ويؤخذ عليه الإكثار في الإطناب الوصفي والمديح في تراجم تلك الشخصيات أكثر من أيّ مؤلف آخر، وطبع في مطابع المكتب المصري الحديث عام ١٤٠٥هـ.

٩- شوارق الأنوار في الأنبياء والأولياء الأخيار من عرب وعجم.

المسمّى (قصعة العسل) لسعيد بن سالم الشوّاف (ت ٩٩٠هـ)، وهو عبارة عن أرجوزة طويلة، تناول فيها فضائل ومدح الأنبياء من آدم إلى سيدنا وحبيبنا محمد صلوات الله وسلامه عليهم، ثم عرّج على ذكر الخلفاء الراشدين، وعدد من الصحابة، وعدد من الأولياء، ومشايخ الصوفية في حضرموت من كافة الفئات الاجتماعية وغيرهم من الأقطار الأخرى باللهجة الحضرمية الدارجة[٢١]، وأفرد لكل ترجمة بيتَيْن غالباً وختمها بلفظ الجلالة (الله)، وقد طُبع في حيدر أباد الهند عام ١٣١٩هـ.

١٠- تاريخ حوادث السنين ووفاة العلماء العاملين والسادة المربين والأولياء الصالحين.

لمحمد بن عمر الطيب (ت بعد ١٠٠١هـ)، واختص بتاريخ القرن العاشر عن مدينة الشحر وحضرموت وعدن وزبيد، وقد اعتمد فيه على ثلاثة مصادر هي: (قلادة النحر) لبامخرمة (ت ٩٤٧هـ)، و(العقد الثمين) لباسنجلة (ت ٩٨٦هـ)، و (النور السافر) للعيدروس (ت ١٠٣٨هـ)، وقام الأستاذ عبدالله بن محمد الحبشي بتحقيقه وطبعته مكتبة الإرشاد بصنعاء عام ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م، وأسماه (تاريخ الشحر وأخبار القرن العاشر)، كما قام الأستاذ أحمد صالح رابضة بدراسته وتحقيقه ونال به درجة علمية (الماجستير) من جامعة عدن ١٩٩٩- ٢٠٠٠م، وصدر في ضمن إصدارات جامعة عدن الكتاب الجامعي (٤) ٢٠١١م.

١١- الدر الفاخر في تراجم أعيان القرن العاشر.

لمحمد بن عبد الرحمن بن سراج الدين باجمال (ت ١٠١٩هـ)، وهو القسم الثالث من كتابه المجموع، والذي ضمّ إليه (مواهب الرب الرؤوف) و (بلوغ الظفر والمغانم)، وهو - أي العقد الفاخر - خاتمة الخاتمة ألفه سنة ٩٩٠هـ، وجعله في تراجم شيخه الشيخ معروف باجمال (ت ٩٦٩هـ)، فحوى تراجم من أسرته آل باجمال ومنهم نسوة، وآل العمودي، وآل باهرمز، وآل باغضل، وآل بامخرمة، وآل باعباد، كما ترجم لشخصيات من السادة كالعيدروس، وآل شهاب الدين، وآل بلفقيه، وغيرهم، وقد صدر عن دار تريم للدراسات والنشر بالاشتراك مع مركز النور للدراسات والأبحاث ٢٠٠٨م، بدراسة وتحقيق كاتب هذه السطور.

١٢- النور السافر عن أخبار القرن العاشر.

لعبدالقادر بن شيخ بن عبدالله العيدروس (ت ١٠٣٨هـ) بالهند، والذي انتهى من تأليفه سنة ١٠١٢هـ، وحوى تراجم علماء القرن العاشر من العالم الإسلامي كافة، بدأه بمقدمة أشار فيها إلى دواعي تأليفه، والمصادر التي استقى منها مادته ومنهجه، ثم تناول سيرة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وبنهايتها سرد تراجمه على الطريقة العمودية الحولية، وأصبح

هذا الكتاب أحد المصادر المعتمدة في الحديث عن علماء حضرموت في القرن العاشر، حتى أنّ ابن العماد الحنبلي (ت ١٠٨٩هـ) يكاد في كتابه (شذرات الذهب في أخبار من ذهب) قد استلّ مجمل ما أورده العيدروس عن حضرموت في (النور السافر) في مواضع متعددة[٢٢]، وقد اعتنى به محمد رشيد أفندي الصفار ونشرته المكتبة العربية ببغداد سنة ١٣٥٣هـ/ ١٩٣٤م، ثم أعادتْ طبعه بالاعتماد على هذه الطبعة دارُ الكتب العلمية ببيروت عام ١٩٨٥م، وأخيراً تم طباعته محقّقًا من قبل محمود الأرناؤوط وآخرين وطبعته دار صادر بيروت عام ٢٠٠١م بفهارس فنية.

١٣- السنا الباهر بتكميل النور السافر.

للمؤرخ محمد بن أبي بكر الشلي (ت ١٠٩٣هـ)، وهو تكميل وإضافة لما أورده العيدروس في كتابه (النور السافر) من تراجم، وقد طبعته مكتبة الإرشاد

بصنعاء عام ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، بتحقيق عبد الله محمد الحبشي.

١٤- المشرع الروي في مناقب السادة الكرام آل أبي علوي.

لمحمد بن أبي بكر الشلي (ت ١٠٩٣هـ/ ١٦٨٢م)، وهو في التاريخ المحلي لحضرموت، يقع في جزئين، تضمّن الأول منه ذكر تاريخ حضرموت ومدنها، أما الجزء الثاني فقد تضمّن تراجم (٢٧٨) شيخًا من علماء بني علوي بن عبيدالله بن المهاجر (ت بعد ٣٠٠هـ/ ٩١٢م)، منهم (١٦٢) شيخًا حتى

القرن العاشر الهجري، والبقية في القرن الحادي عشر الهجري ويقدم هذا الكتاب مادة تراجمية جيدة لعلماء هذه الأسرة، والملاحظ على أسلوب المؤلف في كتابه الإطراء والثناء مثله مثل سابقيه، ولا يخلو الكتاب من بعض الهنات ونعذر مؤلفه في ذلك، حيث وضع كتابه في مكة بعيداً عن حضرموت، وقد طبع بالمطبعة الشرفية بمصر سنة ١٣١٩هـ/١٩٠١م، وأعيد طباعته مرة أخرى بحذف كرامات المترجمين لهم سنة ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

وامتازت هذه المصادر بعدد من الخصائص هي [٣٤]:

١- التركيز على الكرامات وخوارق العادات إلى حد الإفراط في الوصف لها، لأنها منقولة بلفظ الرواة وتصرفهم، وليست مثبتة بلفظ صاحب الكرامة ذاته، مما أدى إلى حصول الزيادات التي تصرف الحكايات عن حقائقها.

٢- التكلف في الإطناب الوصفي والمديح، حيث كانت لسان وأسلوب ومرادفات وقاموس ذلك العصر.

٣- السجع والمرادفات والمحسنات البديعية، واختيار الكلمات القاموسية الغريبة مع غاية في البراعة اللفظية، اعتبرها جيل اليوم كلاماً متكلفاً ومعقداً غاية التعقيد لضعف وانحطاط لغتنا.

٤- استعمال التعابير الدارجة والألفاظ العامية، التي يقتصر فهم المراد منها على بلد وزمن موقوت.

٥- الاقتباس من القرآن الكريم والحديث الشريف، واستخدام الشعر لإظهار المقدرة على الكتابة، وسعة الثقافة والاطلاع.

٦- النقل الحرفي مما سبقها، فضلاً على أن مؤلفيها يزيدون على ما يخص الحوادث والتراجم المعاصرة لهم.

٧- ليس لتلك المصادر في الغالب المخطوط منها والمطبوع فهارس فنية، ولا عناوين يسهل الأخذ منها، والرجوع إليها عند الحاجة، فإذا كنت تبحث عن معلومة ما، فعليك أن تقرأ الكتاب من الغلاف إلى الغلاف حتى تعثر على ما ترى، فلا تستطيع أن تقطع بالنفي أو الإثبات عن وجود ما تطلبه أو عدمه ما لم تقرأ الكتاب جميعه [٣٥].

الخاتمة:

- تمكّن الباحث من خلال بحثه من رصد عدد (١٠) من المصادر المندثرة، وعدد (٩) من المصادر المفقودة الضائعة، وعدد (١٢) من المصادر المخطوطة، وعدد (١٤) من المصادر المطبوعة هو كل ما يمكن رصده في هذه المدة التاريخية.

- تنوّع موضوعات هذه المصادر وتباين مادتها بين قلّة وكثرة.

- تتضمن كتب الطبقات والتراجم معلومات مهمّة تبلورُ ما ورد في المصادر الأخرى، واشتملت عليه من مادة تتعلق بالجوانب الاجتماعية والعلمية التي تهم الباحث موزعة على التراجم.

- مناشدة جهات الاختصاص من حكومية ومراكز بحثية ومنظمات مجتمع مدني للبحث عن تلك المصادر المفقودة، والضائعة داخل اليمن وخارجه لئلا تصبح في حكم المصادر المندثرة.

- توجيه المختصين بدراسة وتحقيق المصادر المخطوطة ونشرها للاستفادة منها، وتقديم الدعم والمساعدة لهم من قبل المعنيين: وزارة الثقافة، الجامعات، المراكز العلمية، ورجال الخير والأعمال.

- ضرورة إعادة طبع ما تم طبعه من تلك المصادر المطبوعة، لأنها طبعت من غير تحقيق، واحتوائها على الكثير من الغلطات والأخطاء، أو أنها أصبحت مخطوطة بمرور سنوات عديدة على طباعتها.

- خلاصة القول وعلى ضوء تلك المصادر يجب أن ينظر في قراءة تاريخ حضرموت أولاً، ثم إعادة تدوينه مغربلاً من تلك الشوائب والأخطاء التي لُصقت به ثانياً وفقاً لأسس علمية حديثة تُراعَى فيها جميع الجوانب السياسية والاقتصادية والعلمية والاجتماعية خاصة وأنّ من تلك الجوانب وغيرها لم يدرس ويدوّن بعد، ولن يكون ذلك إلا على يد المتخصصين من أبنائه؛ لذا فقد ظهرت دراسات ورسائل وأطاريح (ماجستير ودكتوراه) وأبحاث علمية رصينة عن حضرموت إلى القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، علّنا نتناولها في أعداد قادمة. والله الموفق..

---

* أستاذ التاريخ الإسلامي وحضارته المشارك - جامعة حضرموت.

الهوامش:

١) خرد، الفرر، صـ٣٤.
٢) بلفقيه، نحو المدخل إلى التاريخ الحضرمي، صـ١٠.
٣) باعلوي، البرقة المشيقة، صـ١١٦.
٤) الشلي، المشرع الروي، جـ٢، صـ١١٢.
٥) باعلوي، البرقة المشيقة، صـ١١٧.
٦) باعلوي، المصدر نفسه والصفحة.
٧) بلوزير، التحفة النورانية، صـ٦.
٨) خرد، الفرر، صـ٣٤.
٩) عبدالنور، الحياة العلمية في حضرموت، صـ٤٥٤.
١٠) اطلع عليها المؤرخ صالح بن علي الحامد (ت١٣٨٦هـ/١٩٦٦م) في شعبان ١٣٦٦هـ/ ١٩٤٦م في مكتبة السيد حسين بن عبدالرحمن بن سهل، والتي ضمت إلى مكتبة الأحقاف للمخطوطات تريم حضرموت، وهي كما وصفها نسخة قديمة وثمينة وبخط جميل فرغ من نساختها في ١٩ ربيع الأول ٩٧٨هـ بقلم عمر بن إبراهيم الحباني (باعبود: مذكرات، صـ٢).
١١) باعلوي، البرقة المشيقة، صـ١٠١ - الحامد، تاريخ حضرموت، جـ٢، صـ٧٢ - باعبود، مذكرات، صـ٦.
١٢) الجندي، السلوك، ج٢، صـ٣٦٣ - الخزرجي، طراز أعلام، ج٣، صـ١٤٧ - الشرجي، طبقات الخواص، صـ٢٦٧ - بامخرمة، قلادة النحر، جـ٣، صـ٢٧٢.
١٣) باعبود: مذكرات، صـ٥.
١٤) الشلي، المشرع الروي، ج٢، صـ٩٠.
١٥) الخطيب: البرد النعيم، صـ٨٩.
١٦) الخطيب، الجوهر الشفاف، جـ١، صـ٨.
١٧) بامخرمة، النسبة، صـ١.
١٨) الحداد، عقود الألماس، جـ٢، صـ٦٥.
١٩) الحبشي، مصادر الفكر، صـ٤٣٣.
٢٠) بامطرف، الشهداء السبعة، صـ١٢.
٢١) باقشير، الفتوحات المكية، صـ٢.
٢٢) ابن عقيل، العنّب الجميل، صـ١٢.
٢٣) الحداد، عقود الألماس، جـ٢، صـ٧٢.
٢٤) خرد، الفرر، صـ٣٩٢ - الشلي، المشرع الروي، جـ٢، صـ١٨٨.
٢٥) الحداد، عقود الألماس، جـ٢، صـ٥٨.
٢٦) بامخرمة، قلادة النحر، جـ٣، صـ٣٤٥٣-٣٤٥٥.
٢٧) خرد، الفرر، صـ٣٩٢ - الشلي، المشرع الروي، جـ٢، صـ١١١.
٢٨) وهما المصدران الخامس والسادس من المصادر المندثرة.
٢٩) الفلام، مصادر تاريخ حضرموت، صـ٣١٥.
٣٠) كان لنا بحث في المؤتمر الدولي الأول (التاريخ والمؤرخون الحضارم) ٢٠١٦م: كتب النصوف من مصادر تاريخ حضرموت كتاب "البرقة المشيقة" للشيخ علي باعلوي (ت٨٩٥هـ/ ١٤٨٩م) أنموذجاً.
٣١) بحسب أقدم مخطوطة له سنة ١٠٢٢هـ.
٣٢) الفلام، مصادر تاريخ حضرموت، ص ٣٢١ .
٣٣) الفلام، مصادر تاريخ حضرموت، صـ٣٠٣.
٣٤) المشهور، شروط الاتصاف لمن يريد مطالعة كتب الأسلاف، صـ٤٩-٦٢.
٣٥) عبد النور، الحياة العلمية في حضرموت، صـ٢٩-٣٠.

27
العدد (7)
يناير
مارس
2018م

الأشموس

بين مهرة والصدف

من هم الأشموس ؟

الأشموس - أوشماسة اسم له صدى وبصمة في التاريخ، ويعتزّ بها أصحابه، وينتسب هذا الاسم قبائل الصيعر -صاعر- في حضرموت وما تجاورها في المملكة العربية السعودية، وكذلك قبائل مهرية مثل قبائل - الصعر - ولا أدري هل هم إخوانهم قبائل - الصار - صار - ينتسبون إلى الأشموس أم لا . وفيما نعلم ممّن التقينا بهم من المهرة أنهم وصيعر حضرموت إخوان فرّق بينهم تيس. هذه معلومة مشاعة ومتواترة عند الطرفين وحتى أكون دقيقًا في هذه المعلومة فقد سمعتها مشافهةً قبل سنوات في وادي المسيلة في دحسوتن من أحد مشايخ قبائل - الصار - وهو رجل معروف مشهور.

وعليه يرى البعض إذا كان ما ذُكِرَ صحيحًا من قولهم هذا في ثبوت أخوّتهم ثمّ قول كلّ طرف منهم أنّه يرجع إلى أشموس فتكون قد التقت حلقتا البطان وانسبك القولان فما المانع في أنْ يكون أشموسًا واحدًا يجمعهم في كون هو أبو الجميع ومن ثم يكون سهلاً تفسير وحدة هذين الاسمين عند المقابلة ـ صعر = صيعر وصار = صاعر ، وهذا التحوير القليل في الأسماء عند المهرة إنما حدث نتيجة انتقالها من لسان إلى لسان آخر، أو بعبارة أخرى من الفصيح إلى لسان مهرة مثاله اسم محمد يساوي مهومد، وسليمان - سليمون، وسعد - سئد أو ساد، وذامن - ذامون ، وهكذا والأمثلة كثيرة. وإنما هذه استهلالة قصيرة في التعريف بمن ينتمون إلى الأشموس فيما نعلم والله أعلم.

الباحث
البخيت بن حسن العساني

الأشموس في القاموس:

يلزمنا قبل أن تأخذنا التفاصيل في هذا الموضوع أن ندخل إلى قاموس اللغة لنعرف لمحة عن جذور هذا الاسم واشتقاقاته، فقد قال أبو العباس الحموي: (وَقَالَ ابْنُ فَارِس: اشْتَدَّتْ شَمْسُهُ، وَشَمَسَ الْفَرَسُ يَشْمِسُ، وَيَشْمُسُ أَيْضًا، شُمُوسًا وَشِمَاسًا بِالْكَسْرِ اسْتَعْصَى عَلَى رَاكِبِهِ فَهُوَ شَمُوسٌ، وَخَيْلٌ شُمُسٌ مِثْلُ رَسُولٍ وَرُسُلٍ. قَالَ: رَكَضَ الشَّمُوس نَاجِزًا بِنَاجِزٍ. قَالُوا: وَلَا يُقَالُ: فَرَسٌ شَمُوصٌ بِالصَّادِ، وَمِنْهُ [ص:٣٢٣] قِيلَ لِلرَّجُلِ الصَّعْبِ الْخُلُقِ شَمُوسٌ أَيْضًا وَشَمَّاسٌ بِصِيغَةِ اسْمِ فَاعِلٍ لِلْمُبَالَغَةِ وَشَمَاسَةٌ بِفَتْحِ الشِّينِ وَالتَّخْفِيفِ وَحُكِيَ ضَمُّ الشِّينِ)(١) أظنُّ أنّ هذا التعريف اللغوي لاسم الأشموس كافٍ ؛ فهو يكشف لنا سرّ هذا الاسم الصعب وقد سرّني إذْ وجدتُ أنّ هذا الاشتقاق- شماسة - قد نصّ عليه الشيخ هنا وأنّه من اشتقاقات الأشموس .

توجيه قول ابن الكلبي وزيادة الهمداني :

يُثارُ خلافٌ بين وقتٍ وآخر حول نسب الأشموس هلْ هُمْ مِنْ أصل مهرة كما ذكر ذلك الكلبي أوْ هُمْ مِنْ الصَّدف دخلوا في مهرة كما ذكر الهمداني.

الذين رجّحوا قول الكلبي قالوا هو أقدم من الهمداني بما يقرب من ٢٠٠ سنة ، وهو أعلم بنسب مهرة من الهمداني، لأنّه من قضاعة فهو أعرف بقومه. قال هشام ابن الكلبي: وهؤلاء

بنو مَهرة بن حيدان بن عمرو بن الحاف ابن قُضاعة وولد مهرةَ بن حيدان: الأمريّ، والدين، وأشموسًا، ونعميًا، وتدغيًا[٢].

وجاء عند الهمداني صاحب (الإكليل) و(صفة جزيرة العرب) وقال: إنّ الأشموس دخلوا في مهرة وليسوا منهم ، وإنّهم انتسبوا إليهم وإنّ أصلهم من الصُدف. وقد ذكر الهمداني قبائل الأشموس التي دخلتْ في مهرة وهي ١- الصيعر ٢- اللخاء ٣- الثغماء أو الثُغماء ٤- والساته.

قال الهمداني: «فأمّا الصيعر والثُغماء واللخاء فمِن الصدف دخلتْ في حيدان بن عمرو واستمر في نسب الصدف»[٣]. وقال: «ولأنّ الصدف قد كانت تَحَمْيَرَتْ قديمًا ودخل بعضها في مهرة ابن حيدان»[٤]. وقال: «وولد أشموس بن مالك بن حريم أربعة نفر: الصيعر، والثُغماء، والساته، واللخاء بطون دخلوا في مهرة»[٥].

هذه النصوص لا يمكن لأي باحث أن يتجاوزها بأيّ حال من الأحوال، وابن الكلبي ذكر الواقع الموجود في زمانه كما ذُكر له وهو الموجود في زماننا أيضًا أنّ الأشموس أحد فروع المهرة، والهمداني نفسه في القرن الرابع الهجري عندما ذكر أبا ثور المهري قال: «فمن الثعين بنو تبلة بن شماسة رهط أبي ثور صاحب الأسعا اليوم»[٦]، والهمداني يعلم أنّ ثعين من مهرة.

وأظنّ أنّه لا يجادل أحدٌ في أنّ شماسة هي الأشموس أو أنّ [ذا شمسن] المذكورة في النقش هي الأشموس وكذلك ما ذُكر في كتب التاريخ إلى القرن العاشر الهجري فيذكر بني شماسة من سلاطين المشقاص أنّهم يرجعون إلى الأشموس.

وليس هنا تناقض في نظري بين ابن الكلبي والهمداني، ولكن الهمداني أتى بزيادة علم غير موجودة عند الكلبي - والذي علم حجة على مَنْ لم يُعلم - كما هي قاعدة علم الرجال عند المحدّثين، هذه الزيادة التي أتى بها الهمداني موثّقة في أعلى درجات التوثيق، والتوثيق هذا على ثلاث درجات:

١- نزوله بنفسه إلى حضرموت.

٢- اعتماده على رواة معاصرين له في حضرموت وقد ذكر أسماءهم.

٣-أخذه لنسب الصدف من مصادر مدوّنة محفوظة في سجل ابن أبان في صعدة كما سوف يأتي.

وهذا التدوين جاهلي قديم من غير شك فلقد ذُكر في نقش إرياني - ٣٢ - الذي كُتب في بداية القرن الرابع الميلادي أسماء بعض زعماء الصدف في حضرموت مثل جمّان [جمين] وجذيمة وثوبان، وهي مذكورة في مشجّرة الصدف عند الهمداني.

ويلزمنا إذا أردنا أن نرد هذه المعلومة أن نرد غيرها من الزيادات في نسب مهرة وأماكن وجودهم وبعض من تاريخهم لم يذكره الكلبي وذكره الهمداني. ولذلك نقول إن ابن الكلبي قال بما علم والهمداني قال بما علم ولا تنافر بينهم.

ونعود إلى أسماء القبائل الثلاث الأخيرة التي ذكرها الهمداني وهي الساته واللخاء والثُغماء، أمّا الاسم الأوّل وهو الصيعر فهو على ما يبدو هو المحمول باسم - صعر- الذي تنضوي تحته مجموعة قبائل مهرية يبدو أنهم قبائل الأشموس، فقد ذكر أبو عمر الكندي أحد قادتهم في مصر وهو (مهدي بن زياد المهري ثمّ أحد الصعر)، في واقعة حدثت عام ١٦٨هجرية في منطقة حوف، والاسم كأنه حُمل معهم من بلادهم وسميت به الأرض التي نزلوها في مصر[٧].

أمّا الثُغماء فهذه القبيلة على الرغم من أنّها من الأشموس فإنها على ما يبدو قبيلة لها كيانها وثقلها فقد ذكرت باسمها مع ذكر الأشموس في بناء قلعة (ذا سلمن) في سناء[٨]، وقد ذكر ابن حجر العسقلاني أحد الصحابة وهو من القادة في مصر وله موقف معروف مشهور هناك، وهو من هذه القبيلة - الثُغماء، وإليك ترجمته ثمّ التعليق: (٦٢٥- برْح- بكسر أوله وسكون الراء بعدها مهملة – ابن عُسكُر بضم العين المهملة وسكون السين المهملة وضمّ الكاف بعدها راء، ضبطه ابن ماكولا ونسبه، فقال: برح بن عسكر بن وثّار بن كزغ بن حضرمين بن الثُغماء بن مهريّ بن عمرو بن الحاف بن قضاعة. وذكرها بن يونس فقال: له وفادة على النبيّ صلّى اللّه عليه وسلم، وشهد فتح مصر، واختطّ بها دارًا وسكنها. وهو

معروف من أهل البصرة. وقال المنذريّ: كان السّلفي يقول: عسكل بلام، قال: ورأيته بخطه كذلك، وكتبه أيضًا بالحاء المهملة بدل العين. والله أعلم)[٩].

يلاحظ في سلسلة النسب لبرح ثلاثة أسماء اسم وتار، واسم حضرمين، واسم الثغماء. بالنسبة لاسم وتار في السلسلة فقد اكتفى مجموعة من أصحاب التراجم والتاريخ بذكر اسمه الوتار – برح بن عسكر بن وتار. وهم ابن مَنْدَه وابن الأثير وابن يونس الصدفي وابن نقطة[١٠]. وهذا الفرع - وتار - أظنه هو نفسه المذكور في سلسلة أبي ثور المهري بن شماسة، فقد قال الهمداني: (وهو عمرو بن محمد بن محمد بن كنانة بن جبل بن تبلة، ويقال لهم بنو قصيف ومن قصيف بنو وتار بكسر الواو وهم الوتاريون)[١١]. وأمّا اسم حضرمين فمعناه حضرمي وهو تعريف أن أصله حضرمي من حضرموت وقد ورد في (أسد الغابة) بدل بن حضرمين – بن حضرمي -، واسم الثغماء معروف وهو الثغماء بن الأشموس.

أيضًا هناك أحد الأشموس من أصحاب القرن الثالث الهجري ذكره الأمير ابن ماكولا[١٢]، وهو (أصبغ بن دحيّة الصدفي ثمّ لبطن يقال لهم - الأشمو – روى عن رشدين ابن سعد وابن وهب) قال محقّق الكتاب معلّقًا في الهامش على هذا الاسم - الأشمو- (كذا في الأصل عقب الواو بياض يسع حرفًا واحدًا، فلعلّ الصواب (الأشمور). طبعًا لا يُعرف بطن في الصدف باسم الأشمور، والحرف الذي كان في مكان البياض إنما هو حرف - س -، فيكون اسم البطن الأشموس وهو بطن مذكور في مشجّرة الصدف وهو أشموس بن حريم بن مالك الصدف.

الأمر الثاني: أنّ رشدين ابن سعد الذي روى عنه أصبغ بن دحيّة بن الأشموس هو مهري معروف من أهل مصر.

ومنْ مشاهير التابعين عبدالرحمن بن شماسة المهري، تُوفي بعد المائة، من أهل مصر كما في (تاريخ الإسلام) للذهبي وغيره، و لا يبعد أنْ يكون إلى هذه النسبة المبحوثة - الأشموس - وليس غريبًا أنْ تكون سلسلة نسبه إلى مهرة ثمّ إلى قضاعة مثل غيره من الأشموس، ولكن الغريب أنْ يقال له عبدالرحمن بن شماسة التجيبي كما وجدته في (مسند الإمام أحمد بن حنبل)، وكذلك في (مسند أبي يعلى الموصلي) في عدّة أحاديث، أيمكن أنْ يقال إنّ هذه النسبة كانت عندما كان مهرة في ديوان كندة فكانت نسبة عبدالرحمن في تجيب ؟ أم هو وَهْمٌ وقع فيه أحد الرواة ؟ الله أعلم.

مشجرة الصدف:

هناك في الجزء الثاني من (الإكليل) أورد الهمداني مشجرة الصدف كاملة ومفصّلة بجميع فروعها، وذكر تداخلاتهم مع غيرهم مفصلة أيضًا، وذكر الفروع الصدفية التي دخلت مع غيرها وهذه المشجّرة التي ذكرها الهمداني هي كما صرح بذلك من سجل الأنساب في صعدة، وهو سجلّ جاهلي (سجل ابن أبان)، ثمّ إنّ الهمداني كما ذكر قد عرضها على شيخ الصدف في حضرموت وهو محمد بن زغلب الصدفي وأقرّها.

قال الهمداني: (بطون الصدف عن الصعديين من أصحاب السجل مقروء على بعض نسابة الصدف.

بسم الله الرحمن الرحيم، قرأت على محمد بن زغلب بن الحارث بن محمد الصدفي من ولد ألمى بن الصدف من أهل دمون من الحجرين بحضرموت نسبة الصعديين فعرفتها وضبطها عنه)[١٣].

أوّلًا: أنّ مشجّرة الصدف مشجرة تعود لما قبل الإسلام.

ثانيًا: أنّه قد تمّ تقييدها في السجل وهو (سجل ابن أبان).

ثالثًا: أنّ الهمداني قد نزل حضرموت وعرض على نسابة الصدف وشيخها محمد بن زغلب في دمّون هذه المشجّرة وضبطها عنه.

قال الباحث الروسي الدكتور سرجيس فرانتسوزوف: (توحي سلاسل الأنساب الصدفية المذكورة لدى الهمداني المبدوءة بالبسملة (بسم الله الرحمن الرحيم) بأنها كانت منفصلة عن أعماله وضمّها الهمداني بصيغتها تلك إلى مؤلفاته، فلقد كانت هذه السلاسل في البداية داخلة في السجلات التي وضعها سكان مدينة صعدة في شمال اليمن. وبعد ذلك قام بتصحيحها ومقابلتها رجل من مدينة دمّون في القرن التاسع واسمه محمد بن زغلب الصدفي. [٣٦، جزء٢ ص١٦])[١٤].

المصادر:

(١): المصباح المنير في غريب الشرح الكبير- الشاملة.

(٢) الكتاب: نسب معد واليمن الكبير- الشاملة.

(٣) الإكليل ١/ ١٩١.

(٤) الإكليل ٢ / ٤١.

(٥) الإكليل ٢/ ٥٢ - ٥٣.

(٦) الإكليل ١/ ١٩٢- ويقال في نسبهم أيضًا بادجان هو بن فارس ومن خلال الاطلاع على كتب التاريخ والأنساب حاولت تحقيق نسبهم في بحث آخر أسميته (الأمانة في نسب بادجانة) - أو (الالتماسة في نسبة بني شماسة).

(٧) كتاب الولاة. وكتاب القضاة - الشاملة.

(٨) تاريخ حضرموت الاجتماعي والسياسي قبيل الإسلام وبعده.

(٩) الإصابة في تمييز الصحابة - الشاملة.

(١٠) الكتب = تاريخ ابن يونس- أسد الغابة – إكمال الإكمال – معرفة الصحابة - الشاملة.

(١١) الإكليل ١/ ١٩٢ - ١٩٣.

(١٢) الإكمال في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف في الأسماء والكنى والأنساب. الشاملة.

(١٣) الإكليل ٢/ ٤٤ - ٤٥ مع ملاحظة أن هناك تصحيفًا وأوهامًا تحتاج إلى تصحيح.

(١٤) تاريخ حضرموت الاجتماعي والسياسي قبيل الإسلام وبعده.

فنون الرسم والنحت وتطورها في حضرموت القديمة*

لا شك أن الفنون تعد من أهم المصادر التاريخية، فهي المرآة العاكسة لمختلف جوانب الحياة على مر العصور، بل كانت أساس المصادر في دراسة عصور ما قبل التاريخ على وجه الخصوص. فقد أمدتنا بالكثير من المعلومات عن الحياة الدينية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، فمن خلالها تعرّف الباحثون على بعض رسوم وتماثيل ما عُرف بالآلهات والحكام والشخصيات المميزة في المجتمع، بالإضافة إلى معرفة هيئات أجسامهم والوضعيّات المتكرّرة، التي ربما تكون ذات صلة شبه مؤكدة تتعلق بالشخصيات (المقدسة أو الرسمية) وما في حكمها. بالإضافة إلى أنها أوضحت بعض المعلومات الأخرى مثل الملابس، الأدوات، الأسلحة، الرموز والشعارات، النباتات، والحيوانات، والطيور، التي يستخدمونها أو يتعاملون معها في حياتهم، وصولًا إلى الكثير من ملامح تفكيرهم وعقائدهم، وإلى غير ذلك من المعلومات المهمّة التي يمكن الوصول إليها.

وحسب علمنا فإنّ موضوع دراسة الفنون في حضرموت القديمة بشكل خاص لم يُدرَسْ دراسة منهجية في بوتقة متكاملة بعد، وربّما تمّت دراسة نماذج لبعض القطع الفنية - من فترات مختلفة - سواء، تلك التي كانت تأتي عن طريق نبش المواقع الأثرية، أو عن طريق المسوحات والتنقيبات الأثرية المنظمة من قبل البعثات العلمية التي عملت في حضرموت.

وحتى نستطيع أنْ نُلمّ بمختلف الفنون التشكيلية، علينا أنْ نحدّدها ضمن إطارات زمنية/ تقنية، ونضع لها هيكلًا تفصيليًا على النحو الآتي:

د.حسين أبوبكر العيدروس

أ) فنون الرسوم والنحت في عصور ما قبل التاريخ:

وتحت هذا الإطار الزمني تنضوي جميع الفنون التي أنتجت في مرحلة ما قبل التاريخ، وأقدم ما لدينا يعود للعصر الحجري الحديث (حوالي ٨٠٠٠ سنة) مثل:

١. **الرسوم الصخرية**: وهي الرسوم التي يتمّ عملها على مختلف الصخور في مواقعها الأصلية، مثل الجبال والأودية والصحاري وعلى قارعة الطرقات القديمة، وظهرت من هذه الفنون أساليب متنوعة منها: رسوم ملونة، نحت غائر، طرق، حك.

٢. **تماثيل حجرية صغيرة**: ومن هذا النوع أنتجت عددٌ من التماثيل التي ربما استخدمت لأغراض عقائدية تتعلق بالتقرب إلى ما عُرف بالآلهات، التي كانت تُعبد فيما قبل التاريخ، والتي عادة ما تتعلق بالرزق (هطول المطر، إنبات الشجر)، وكثير منها يخصّ ما عُرف بـ(الهات الخصوبة، الأمومة)، وقد تأتي على أشكال متباينة، أبرزها تماثيل نسوية بدينة ذات ملامح محدودة جدًا، وربما يبرز شيء من الأعضاء التناسلية كرمز للخصوبة والحياة، ومن نماذجها تماثيل (وادي عِدم، وموقع راوك).

٣. **تماثيل نحت جزلي (شواهد قبور)**: ومن هذا النوع الذي برز خلال العصر الحجري النحاسي والعصر البرونزي في وادي حضرموت والهضبة، أنتجت خلاله نماذج من شواهد القبور تجسّد شخصيات ذكورية ذات ملامح محدودة جدًا، تم التركيز خلالها على الشكل العام للجذع وملامح للوجه ذي اللحية وذراعَيْن وحزام يشدُّ منطقة الخصر وُضعَ عليه خنجر (جنبية) بشكل مائل وسكين صغير. ولم تظهرْ أية نماذج نسوية في هذه الشواهد.

ب) فنون الرسم والنحت في العصر التاريخي:

خلال عصر الكتابة ظهرت نماذج متعدّدة للرسوم الصخرية متلازمة مع كتابات بخط المسند الجنوبي والخط الثمودي، يمثل تسجيل ذكريات متواضعة لأسماء أشخاص ربّما يتعلّق بالقوافل التجارية والأحداث الحربية وغيرها، ومن هذه النماذج ظهرت على أشكال مختلفة منها:

١. **رسوم ونقوش (كتابات) صغرية**: ظهرت في مواقع الرسوم والنقوش الصخرية

المنتمية لهذه المرحلة بأساليب متنوّعة، مثل: الرسوم والكتابات الملوّنة غالبًا باللون الأحمر (ألوان المغرة)، أو بالطرق، أو بالحكّ، أو بالحزّ.

٢. رسوم ملونة على الأواني الفخارية:

لم يكن الإنسان في حضرموت القديمة ينتج أدوات منزله الفخارية بغرض استخدامها للطباخة أو لحفظ المواد أو تقديم الطعام فيها فحسب؛ بل كان يضفي عليها السمات الجمالية كالتلوين بخطوط متقاطعة أو معيّنات أو مربعات أو بشكل أمواج أو خطوط متقطعة بارزة، أو بأشكال رسوم لها علاقة بحياته اليومية، فظهرت منها نماذج رائعة من موقع ريبون بوادي دوعن تمثل رسومًا للوعول.

٣. رسوم محزوزة على المعادن: تظهر بعض الأواني والمعدّات والأدوات المصنوعة من المعادن، مثل البرونز، التي تم تشكيل هذه المواد بها، تظهر عليها بعض الزخارف ذات الأشكال البسيطة، مثل الحزوز في أشكال خطوط متنوعة.

٤. تماثيل حجرية، رخامية، برونزية: من العصر التاريخي تظهر أنواع متعدّدة من التماثيل، التي تمثل في شكلها أشكالًا آدمية أو حيوانية أو زخارف نباتية أو زخارف هندسية، ووجدت الكثير من التماثيل المنحوتة على الأحجار الكلسية (الأكثر انتشارًا واستعمالًا في حضرموت بحكم طبيعة المنطقة)، ومنها تماثيل الوعول ورؤوس الثيران التي تتكرّر في موائد القرابين. كما تمّ النحت أيضًا على الألباستر والرخام الأبيض المائل للاصفرار، بالإضافة إلى تشكيل المعادن وأبرزها البرونز.

٥. تماثيل طينية صغيرة (تراكوتا): انتشرت التماثيل الإهدائية الصغيرة المصنوعة من الطين والطين المحروق، التي تمثل بعض الحيوانات، مثل: الوعول والأبقار، وبعض الدُمَى الآدمية، ويمكن الإشارة إلى أنه تمّ العثور على مثل هذه التماثيل بكميات كبيرة، منها في منطقة الجوف شمال اليمن بشكل خاص.

٦. زخارف الزينة المنحوتة (حجرية، خشبية، جصية): انتشرت الزخارف المنحوتة على البلاطات الحجرية بوجه خاص والمستخدمة في المباني الدينية القديمة (المعابد)، وتمثّل زخارفها أشكالًا هندسية متنوعة، أبرزها ما عُرف بـ(البوابات الوهمية)، بالإضافة إلى الزخارف النباتية وأشهرها زخارف ورق وعناقيد العنب، كما ظهرت أنواع أخرى خلال العصر الميلادي، وبنهاية القرن الخامس الميلادي وبدء القرن السادس تظهر نماذج من فنون ممزوجة بتأثيرات خارجية، أبرزها ساسانية وبيزنطية، تظهر نماذجها في (حصن العر)، فقد تزيّنت تيجان الأعمدة برسوم حيوانية وآدمية مع أدوات صيد وحرب في مشاهد صيد غير مألوفة في تاريخ الفن القديم في حضرموت.

٧. النقوش الكتابية: وخلال العصر التاريخي انتشرت تدريجيًا أنواع وأشكال مختلفة من الحروف المعروفة بـ(المسند)، كتبت بطرق متعدّدة، منها الأفقي من اليمين إلى اليسار، وأخرى أفقي من اليسار إلى اليمين، وأخرى عمودية، وأخرى في داخل أشكال إطارية متنوّعة، بيضاوية وأشكال غير منتظمة، وبمواد مختلفة بعضها بالألوان الحمراء والسوداء والبيضاء.

في أصل الفنون وبداياتها:

لو تطرّقنا لهذا الموضوع بإسهاب فإن الأمر يحتاج إلى كتب ذات أجزاء متعدّدة، ولهذا فإننا سنقتصر على خطوط عريضة فقط، ومن أراد

من راوك

تمثال نصفي برونزي من الغرف

الاستزادة فالمراجع بهذا الخصوص كثيرة. فمن المعتقد أن نشأة الفنون أساساً قد ارتكزت على عاملين أساسيين، كان لهما الأثر الواضح على تشكُّل الفنون وتطوُّرها عبر التاريخ في مختلف مناطق العالم وهما:

• **الجانب الديني (العقائدي)**: منذ أن نشأ الإنسان وهو يتفكّر فيما حوله من ظواهر لم يجدْ لها تفسيراً يقنعه، ومن شدّة حيرته كان يضع لها تفسيراً يرتبط بأقوى الكائنات، وتارة بأقوى قوى الطبيعة، وكل هذا جعله يصل إلى قناعة بأن يُسلِّم الأمر لها اتقاءً لشرِّها، ودرْءاً لمخاطرها، فنشأ الاعتقاد وتطوّر عبر آلاف السنين، حتى تحوّل إلى طقوس عُبدت فيها أصناف كثيرة من الحيوانات ومن القوى والمظاهر، مثل: (الشمس، والقمر، والنجوم، والماء، والبحر، والريح، والنار ....إلخ). وهكذا ظهرت ما عُرف بـ(الأديان الوضعية)، واستمرّتْ حتى وقتنا الحاضر في بعض البلدان. وفي حضرموت عُرفت بعضُ المقدّسات مثل (سين، وشمس، وعثتر، وحميم، وأليم، وموتر، وحول..... إلخ).

• **الجانب الميثولوجي (الأسطوري)**: ارتبطت العقائد بالأساطير التي نشأت لإعطاء تفسير للظواهر الغريبة، ومنح الشخصيات المتميِّزة من حيث (القدرات، والقوة، والسيطرة، والتحكم....إلخ) مكانة خاصة، كالكهنة ثم العبادة ووصلت في أقصاها إلى الألوهية، ولذلك ظهرتْ فروع أخرى مثل: السحر والشعوذة والخرافات والملاحم والقصص الشعبية، التي توثّق وتسجّل لأحداث وشخصيات، تجمعُ بين (الواقعية والوهمية)، وكانت من نتائج ذلك وانعكاساتها على الفنون وجود نماذج لرسوم أو منحوتات خرافية (كائنات أسطورية تجمع بين هيئة الآدمي والحيوان)، ومن نماذجها لوحة من موقع الغُرف التاريخي لفرس مُجنح. وكان نصيب المعابد من هذه الفنون هو الغالب بشكل مُميّز. وسيطرتْ رسومُ الحيوانات ومنحوتاتُها على أغلب هذه الفنون، وتميّزتْ أنواعٌ محدّدة على غيرها بكثرة التماثيل.

أقسام الفنون وتصنيفاتها:

وبالنسبة للفنون في حضرموت القديمة يمكن تصنيفها إجمالًا إلى ثلاثة أقسام رئيسة، بناءً على طابعها وطرق صناعتها أو السمات الفنية لها، وهي:

١. **فنون محلية**: (أنتجت في حضرموت ذاتها، وتحمل سمات محلية خاصة).

٢. **فنون مختلطة**: (أنتجت في حضرموت، لكن تأثرت بطابع خارجي).

٣. **فنون منقولة**: (فنون مستوردة من خارج اليمن، ومنها مصرية، من بلاد الرافدين، يونانية، رومانية، بيزنطية، ساسانية، ....).

وممّا يذكر أنّ أحد ملوك حضرموت قد استورد تماثيلَ برونزية من اليونان في حوالي القرن السادس ق. م (عقيل ٢٠١٠: ٣٧). ولذلك فقد انتقلت الكثير من أسماء المعبودات الأكثر شهرة في مناطق الشرق القديم إلى بلاد جنوب الجزيرة العربية (اليمن)، ومنها على سبيل المثال (سين، عثتر .....).

تم عمل هذه الفنون سواء رسوم أو تماثيل في الأصل لتُقدَّمَ كإهداءات نذرية، فكانت مُكرّسةً لِمَا عُرف بالآلهة كما تفيد بذلك النقوش المدوّنة على بعضها، ووضع بعضها في المقابر مثل مقابر (غيل بن يُمين) و(الهضبة الجنوبية)، وأخرى وُجدتْ بين أنقاض مبانٍ قديمة من العصر البرونزي كما هو في موقع (راوك) والتي ربّما تتعلّق بما عُرف بآلهات الخصب والمطر، وفي الفترة التاريخية منها ما يتعلّق برسم أو نحت الكائنات الأسطورية، أو طقوس الصيد كما في نحت (حصن العر) ورسوم (البرقه) و(جوجة) وغيرها، التي تمثّل مهمّتها كما فسّرها بعض الباحثين وهي للحماية والحراسة، وأن أجنحتها القوية تتخطّى المسافات الطويلة، بالإضافة إلى رمزيتها كحدٍّ فاصل بين الحياة والموت (عقيل ٢٠١٠: ١٦٢).

أقدم المواقع في حضرموت:

اكتُشِفَتْ بوساطة البعثة اليمنية السوفيتية المشتركة عددٌ من مواقع عصور ما قبل التاريخ في حضرموت، من بينها موقعان يحتويان على أدوات حجرية، يعود تاريخها إلى عصر أولدواي (Oldvai)، وهو أقدم مرحلة من مراحل العصر الحجري، إلى جانب الكشف عن أول آثار لكهوف من العصر الحجري القديم، يتم العثور عليها في الجزيرة العربية (غريازنيفسكي ١٩٨٨: ٢٢٣، ٢٢٤). أبرزها (كهف القرّه) و(كهف الأمير)، في وادي دوعن بغرب حضرموت.

يؤرّخ (كهف القرّه)، بناءً على الأدوات الحجرية القديمة، إلى البلايستوسين الأدنى والأوسط، أي منذ ٧٠٠,٠٠٠ سنة من الوقت الحاضر (Amirkhanove ١٩٩١: ٣٤٣، ١٩٩٤: ٢٢١،٢٢٢؛ أمير خانوف ١٩٨٤: ١٧، ١٨؛ ١٩٨٥: ٢٤، ٢٥؛ ١٩٨٦: ١٤). غير أنه لا وجود لأية رسوم على جدرانه. كما كشفت البعثة الفرنسية في الجول الشمالي (وادي وعشة) أقدم وأكبر ورش لتصنيع الأدوات الحجرية، تعود للعصر الحجري الحديث. ثم تأتي أقدم الرسوم الصخرية التي تمّ الكشف عنها في أعالي (وادي بن علي)، وتمّ تأرختها إلى العصر الحجري الحديث (٨٠٠٠ سنة)، وتمثل رسومًا ملوّنة لطبعات الأيدي.

لوحة الطائر الخرافي

هناك فجوات كبيرة في تاريخ الفنون في حضرموت القديمة، لا سيّما في عصور ما قبل التاريخ، وما زالت غير واضحة تمامًا، وربّما يشير ذلك إلى وجود هجرات طويلة، والأمر ما زال قيد البحث والدراسة. أمّا خلال العصر التاريخي فقد تنوّعت الفنون بشكل يمكن معه معرفة أصولها ومصادرها والتأثيرات التي ظهرت على بعضها، في حين تجسّدت الفنون ذات الطابع المحلي، وظهرت نماذج متعدّدة منها، مثل الرسوم الصخرية (رسم، نقش، كتابة)، وفنون الرسم على الفخار وغيره، وفنون النحت على الحجر والرخام والخشب وزخارف تزيين العمارة، وفنون صب البرونز بأنواعها المختلفة.

لوحة الوعل والكلب

فن الرسوم والنقوش الصخرية:

الرسوم والنقوش الصخرية، ينقسم هذا الفن إلى مرحلتين:

١. **مرحلة ما قبل التاريخ**: اقتصرت هذه المرحلة على وجود رسوم آدمية وحيوانية ونباتية ورموز.

٢. **مرحلة العصور التاريخية**: بدأت تظهر خلال هذه الفترة حروف الكتابة، ثمّ تطوّرتْ وتنوّعتْ أشكالها وتعبيراتها والأدوات التي كتبت بها، واستمرّتْ في الوقت نفسه ظهور الرسوم الأخرى إلى جانب الكتابات، وكانت في بعض الأوقات تفسر الرسوم أو الرموز.

رسوم صخرية بأساليب مختلفة: تنوّعتْ أساليب تنفيذ الرسوم والمواد التي يتم التنفيذ بها، ومن الأساليب:

١. الحفر الغائر، الطرق، الحك، الحز.

٢. الرسوم الملونة.

الرسم بالألوان على الفخار:

من النماذج الجميلة التي تدلّ على رقيّ الفن وتطوّره في حضرموت القديمة، تلك الكسر الفخارية التي استُخرجتْ من حفريّات موقع (ربيون)، عليها رسوم وعول رُسِمَتْ باللون الأحمر.

النحت في حضرموت القديمة:

عرف الحضارمة منذ عصور ما قبل التاريخ فنون النحت، بأنواع متباينة منها (النحت الكامل، النحت الجزئي)،

وأبرز ما تركه لنا في النحت الكلّي تلك التماثيل الصغيرة التي تمثل أشكالًا آدمية من موقع (راوك)، تعود للعصر البرونزي، ومن نماذج النحت الجزئي تماثيل الشواهد القبورية من العصر الحجري النحاسي من مواقع مثل (مواقع غيل بن يُمين، موقع بايوت، موقع عَرَف، موقع سُونَة).

وخلال العصر التاريخي لا شك أنّه قد تطوّر فنّ النحت من حيث ازدياد المواد، ومن حيث التقنية، ومن حيث رمزية المنحوتات، فظهرتْ منحوتاتٌ رخامية وحجرية وتماثيل فخارية وأخرى معدنية، بالإضافة إلى كثرة استخدام النحت للزينة المعمارية ولأدوات مختلفة الاستخدام، مثل: الموائد والمطاحن والمساحق وغيرها. وعُرف النحت الجزئي مثل (نحت شواهد القبور، نحت اللوحات الجدارية)، بالإضافة إلى المسانِد المكتوبة بخط المسند، الذي اتّخذ أشكالًا مختلفة، تطوّر خلالها رسم الحروف تطوّرًا منضبطًا بحيث استدل الباحثون على تطوّره في تأرخة المواقع والأسماء والأحداث، وتمّ تشكيل وصب البرونز لعمل الأواني المنزلية والمعدات والتماثيل المتنوعة (الآدمية والحيوانية) مختلفة الأحجام (الصغيرة والكبيرة) بأشكال وأساليب فنية متنوعة.

الخاتمة:

تُعَدُّ الفنون من أهم مصادر كتابة التاريخ، وما زلنا نطمح إلى المزيد من البحث الدقيق والمتخصص في مجال الفنون بشكل عام، ففيها تكمن الكثير من المعلومات المهمّة التي يسعى الباحثون للحصول عليها.

وما استعرضناه هنا ليس إلا النَّزْرَ اليسيرَ ممّا يمكن أن يحدّدَ لنا الخطوط العريضة لأهمية الفنون في قراءة التاريخ، فهي المعطيات التي تربطنا بالمعتقدات القديمة والأساطير التي كان لها الأثر البالغ في حياة الشعوب القديمة. ففي حضرموت القديمة وغيرها من المناطق الأخرى شهدتْ تطوّرًا ملموسًا في شتّى مجالات الحياة، ومنها الفنون التشكيلية بمختلف فروعها وتقسيماتها، ومن الواضح أنّها كانت تمتلك صلات بمناطق أخرى أبعد مثل بلاد الرافدين ومصر وبلاد الشام وبلاد الأغريق والساسان، فضلًا عن اتصالها بالمناطق القريبة من محيطها الجغرافي في شبه الجزيرة العربية، التي تشترك معها في كثير من السمات مع وجود سمات خاصة بها.

رسم من جوجة

خلال هذا العرض تمّ التطرّق لنماذج مختارة ومتنوّعة وبارزة، ولم تستعرض كلّ التصنيفات، أو الموجودات والمعثورات في حضرموت القديمة بحكم اتساع الرقعة الجغرافية والفترة الزمنية، واقتصرنا على منطقة جغرافية محدّدة وهي (وادي حضرموت والهضبة)، بينما استبعدْنا من هذا العرض والإطار الجغرافي المعروف لحضرموت القديمة، الذي يضمّ المناطق الساحلية ومناطق شبوة غربًا، ووصولًا إلى ظفار شرقًا، وكذلك جزيرة سقطرى، وكل تلك المناطق تزخر بالكثير من الفنون المتنوعة، مما سيجعل المادة واسعة لا تتسع لها صفحات المجلات المحدودة.

نأمل من الباحثين في هذا المجال التركيز على دراستها دراسة مفصلة وربطها بالمواقع الأثرية، فمشكلة دراسة الفنون في اليمن القديم تكمُن في أنّ معظم القطع الفنية قد جاءت بطرق غير شرعية، أو بطريقة غير علمية، فأكثرُها جاء عبر نَبْش المواقع، الأمرُ الذي أفقدَها أهميّتها العلمية، وربّما أدّى إلى التشكيك في مصداقية انتمائها الثقافي.

وأخيرًا وليس آخرًا، نتمنّى أن يقدّم عرضُنا هذا فكرةً ولو يسيرةً عن تصنيف الفنون في حضرموت القديمة، التي تعطي فكرة عن تطوّرها منذ عصور ما قبل التاريخ حتى ما قبل الإسلام. كما أنّنا لم نتوسّعْ في مسألة التأرخة أو مناقشة الأساليب الخاصة بالصناعة، فهذا الموضوع يحتاج إلى كثير من الوقت والمساحة لمقارنة الأدلّة وبرهنتها؛ لأن المؤثرات في فنون حضرموت متعدّدة، ومنها على سبيل المثال ما هو من بلاد الرافدين، ومصر، واليونان، وفارس، وغيرها. ونأمل أن نكون قد قدّمْنا عرضًا يُلقي بعضَ الضوء على ملامح هذه الفنون، يهدف الى إنعام النظر وتسليط الضوء حولها من جديد، فهي بحاجةٍ إلى إعادةِ قراءةٍ مرّةً أخرى.

* ملخص محاضرة ألقيت في مركز حضرموت للدراسات في أثنا، ندوة (المعالم الحضارية لحضرموت القديمة حتى فجر الإسلام).

نبات الحوير، والنيل وكساء الأجداد

مقدمة:

عرف الإنسان صبغة النيل وتسمى النيلة أيضًا منذ آلاف السنين، وفي العالم العربي كانت صبغة النيلة تستخدم منذ أكثر من أربعة آلاف سنة، وكانت مدينة زبيد معروفة بصباغة النيل منذ العصور الوسطى(١). وفي معجم المعاني الجامع - معجم عربي - يعرّف النيل بأنه «جنسٌ نباتات مُحولة أو مُعمّرة، من الفصيلة القرنيّة، تُزرع لاستخراج مادة زرقاء للصّباغ من ورقها، تسمّى النّيلَ، ويسمّى أيضًا نيلج وهو صباغ أزرق يستخرج من ورق نبات النّيل. وكلمة (نيل) في الأمازيغية تعني الأزرق، ومنها أطلق لفظ (نيلة) التي تطلق على المادة الزرقاء التي تستخرج منه ولذلك فكلمة نيله nila تعني الأزرق الداكن(٢٠). وباللغة الإنجليزية يسمى النبات والصبغة باسم Indigo وفي اللغة الإغريقية تعني (الذي يأتي من الهند) مما يعزز الرأي بأن منشأ هذه الصبغة هو الهند India وعلى وجه التحديد منطقة السند (يشمل باكستان وشمال غرب الهند)، وقد زرع منذ أكثر من ٥٠٠٠ سنة(٢).

محمد عيدروس علي السليماني
mohammad.aidrus@gmail.com

الوصف النباتي و الأصناف:

تستخرج صبغة النيل من نبات الاسم الغالب عليه هو (الحوير) في معظم مناطق شبوة وحضرموت، أما في بيحان فيسمى (الجور). والصنف الذي كانت تغلب زراعته في تلك المناطق ومنطقة حريب هو Indigofera argentea، وهو من جنس النباتات البقولية المعمرة، من الفصيلة القرنية Fabaceae أي أن ثماره تتكون في قرون صغيرة، وأوراقه مركبة، تتكون الواحدة منها من خمس وريقات صغيرة، وهي خفيفة الاخضرار وبيضاوية الشكل، وزهوره بنفسجية اللون(١). وفي كامل نموه يكوّن النبات شجيرة طولها يصل إلى نصف متر ارتفاعًا وحوالي متر عرضًا تقريبًا(٢). والنبات عميق الجذور ولولا ذلك لما تحمل الجفاف. وبصورة عامة فإن النبات يحتوي على العديد من القلويات، التي تجعل طعمه غير مستساغ للحيوانات (٤)، إلا في ظروف الجفاف. عادة ما يزرع في الأراضي الهامشية، أي التي لا تسقى على الوديان الرئيسة. وهو يحتاج إلى تربة قليلة القلوية. والصنف السائد في مناطقنا يحصد مرة في السنة؛ فإن كان للورق فيحصد قبل الإزهار، وإن كان للبذور فيبقى حتى تنضج القرون(١). وعندما يحصدونه أول مرة يسمونه (الختنة)، وتقوم النساء في العادة بحصد النبات، ويقوم الرجال بذلك أيضًا إذا لزم الأمر، ويتم من خلال جزّه من فوق الأرض بقليل؛ حيث يعود النمو من ذلك الجزء المتبقي فوق الأرض، ومما تبقى من النبات يورق من جديد أي يعقب، ويدوم النبات حوالي خمس سنوات، وعندما يشيخ النبات يصفر ويضعف فيسمونه (عرامة الحوير). وهنا تتم زراعة مساحة أخرى غير التي أجهدت به، أي أن زُرّاعه يتّبعون دورة زراعية. وكثير من تلك الأراضي التي كانت تزرع الحوير، هي اليوم إمّا بور (جادرة) أو أنها أصبحت مساقي (مضاوح) لأرض تقع أسفلها(١).

وخلال عصور التاريخ المختلفة وفرت أصناف عديدة أخرى صبغة النيل؛ فمعظم صبغة النيلة الطبيعية تستخرج من النوع Indigofera المتوطن في المناطق الاستوائية. أمّا في المناطق المعتدلة المناخ فمن نبات النيلج (Woad)، وفي آسيا يوجد صنف Isatis tinctoria ويسمى أيضًا Indigofera sumatrana. أمّا في أمريكا الجنوبية ووسطها، فالصنفان السائدان هما Indigofera suffruticosa (Anil de pasto)؛ لاحظ تأثر أمريكا اللاتينية (الجنوبية) باللغة العربية فبين القوسين ما يعني (عجينة النيل)، وصنف آخر اسمه (Indigofera arrecta) Natal indigo أمّا في آسيا فالصنف الرئيس كان Indigofera tinctoria، ويطلق عليه (النيل الحقيقي)، وتبلغ نسبة صبغة النيل ما نسبته ٠,٣٥٪ من وزن الورقة (٢١).

مناطق زراعة نبات الحوير:

مثلما يزرع الإنسان الحوير، ينبت نبات الحوير بشكل بري أيضًا، ولم تزل توجد بعض نباتات منه هنا وهناك في مديرية عتق من محافظة شبوة وفي مناطق أخرى، ولا تميزها إلا عين من عاصروا أيام عزّه، رجالًا ونساء.

كانت الهند حتى نهاية القرن الثامن عشر القطر الوحيد الذي يصدّر هذه الصبغة إلى جميع أنحاء العالم؛ حيث كانت تزرع أكثر من مليون فدان من نبات (الحوير)، ويسمى نبات (النيلة) أيضًا(١، ٢). في وقتنا الحاضر فإن محصول الحوير/ النيلة (صنف Indigofera tinctoria) هو أحد المحاصيل التي تزرع للتصدير في منطقة التاميل نادو في الهند، كما يزرع في كل من ولاية مدراس والبنغال(٨). ويستخدم الحوير هنا في تسميد الأراضي الزراعية كسماد أخضر. أمّا محليًا فكانت زراعة النبات واسعة الانتشار في مناطق عديدة مما يسمى اليوم محافظة شبوة ، ووادي حضرموت. و يذكر المؤرخ عبدالقادر محمد الصبان أنّ المنطقة الواقعة من شمال جذع بسيئون إلى مريمة ثم المسيال كانت تزرع بأشجار الحوير، التي يستخرج منها صبغة النيلة، ثمّ سمّيت المنطقة بالحوير إلى اليوم. وفي تهامة وعمان والسعودية (كانت منطقة صبيا و ما جاورها شهيرة بزراعته حتى ١٩٤٠م تقريبًا)، وفي العديد من البلاد العربية الأخرى. أمّا في اليمن الشمالي فقد ذكر الرحالة الغربيون الذين زاروا تهامة في حوالي ١٨٨٧م بأن النبات كان واسع الانتشار في تهامة وكذا حرفة صباغة النيل(٤).

استخراج صبغة النيل من نبات الحوير:

تستخرج صبغة النيل من أوراق نبات الحوير كما أسلفنا؛ وتترك الأوراق حتى تجفّ وتتساقط من الغصون، فيجمعونها، ويقوم أصحاب الأرض ببيع الأوراق إلى محترفي الصباغة، وكانت العديد من الأسر تمتهن هذه الحرفة في مناطق مختلفة، فعلى سبيل المثال قد ذكر البريطاني ويمان بوري عندما مر بالمصينعة (تتبع مديرية الصعيد- محافظة شبوة) في عام ١٨٩٩م ذكر أنها قرية صباغين وحويك، وهؤلاء كانوا يلقبون بـ(الصبن) جمع (صبّان)، لكن دخل في مهنة الصباغة الكثيرون بعدهم لكنهم لم يلقبوا بهذا اللقب. (الصورتان من بيحان وعمان) من المرجع رقم(٤).

وتبدأ مراحل تصنيع صبغة النيل بمرحلة ذلح (تنقية) أوراق الحوير من أية شوائب كالحب ويسمى الحرز والعظم وهو بواقي الغصون، ويبقى الورق فيقومون بدقّه حتى يصبح دقيقًا، ثم يضعونه في الأزيار ومفردها زير (أي القلل من الفخار)، وتسمّى أيضًا الأدواح. بعد ذلك يسكب الماء فوق الورق المدقوق، ثم تستعمل عصا طويلة في أسفلها زواند، مصنوعة من عيدان النخيل، من أربع جهات طويلة تسمى (المضرب) لتحريك الخليط في حركة مستمرة من الصباح حتى ما بعد الظهيرة، وربما لمدة اثني عشرة ساعة تقريبًا. ولكن عندما يقوم العامل هنا باستخدام مضربين، مضرب في كل يد ويضرب بكل مضرب في زير، تسمى هذه العملية (زغيت)(١). وتتيح هذه العملية اختلاط الأكسجين الموجود في الهواء بمحتوى الزير، حتى يبدأ ظهور أول رغوة أي الزبد وتسمى أيضًا (بادي)، فتتكون أربع مواد في الزير، أعلاها (الرغوة)، وأسفلها ماء أصفر اللون مثل لون مادة الديزل ويسمّونه (الزرت)، والرغوة والزرت عديما الفائدة، وأسفل الزرت تكون (صبغة النيل) أو اختصارًا

حصاد نبات الحوير في أوزبكستان ، ويوضع على الأرض ويحمل إلى مكان تجميعه وتجفيفه من أجل جمع أوراقه التي تستخرج منها صبغة النيل(٣)

عبدالله ناصر شوبان
آخر الصبّاغين في بيحان ١٩٨٩م.

سنيدي بن سالم
من ولاية عبري -عمان- ١٩٩٥م [٤]

استخراج صبغة النيل
من أوراق نبات الحوير- بيحان ١٩٤٢م [٥]

سنطلق عليها كلمة (النيل) فقط، ثم أسفل النيل في قاع الزير مادة تسمى (الغثر). والنيل يستخدم لصباغة الملابس البيضاء والغثر يستخدم سماداً للأرض. ويبقى النيل في الزير لمدة يومين. بعد ذلك يخرجونه من الأزيار ويكون في تلك الحالة متماسكًا ولونه مثل أكباد الإبل[٦]. وبصورة عامة فإن الزير الممتلئ أوراقًا و ماءً ينتج كيلوجرامًا واحدًا من صبغة النيل [٦]. والصور أعلاه تظهر المضرب في عمان[٤]، وصورتا عملية الاستخراج من بيحان[٤] و[٥].

وتعد صبغة النيل أو (النيلة) من أقدم الصبغات الثابته التي عرفها الإنسان؛ فإن أقدم ذكر لها يعود إلى حوالي أربعة آلاف سنة. كما أنّ اللفائف التي استخدمها قدماء المصريين في إحاطة المومياء بعد التحنيط .. ما يزال لونها الأزرق واضحًا وثابتًا حتى اليوم[١٩].

عجينة صبغة النيل بعد إنتاجها من ورق نبات الحوير

في وادي حضرموت كانت حرفة الصباغة مرتبطة بالحياكة حيث تصبغ المنسوجات المحاكة محليًا بالنيلة، وغالبًا ما يكون اللون الأسود (هكذا ذكر في المصدر) هو الأشهر، كما ذكر العلامة ابن عبيداللاه في كتابه (إدام القوت في ذكر بلدان حضرموت) أنّ ثمانين حملًا من الحوير وردت شباماً، مما يعني أن شبام كانت إمّا مركزًا مهمًا لتجارة الحوير وإمّا مركزًا للصباغة بالنيلة.

عملية صباغة القماش الأبيض (الكار):

بعد تكوّن النيل يستخرج من الزير ويلفّ في قماش أبيض، ويترك يومين آخرين. بعد ذلك ينقلونه، أي النيل، في أول مراحله إلى أزيار مدفونة إلى أعناقها في الأرض و تسمى (الجوبة)، ويضاف إليها الماء و مادة تسمى (الحطم)* وهي مادة تساعد في تحسين عملية الصباغة، وتستخرج من شجر العَصَل. ويقوم بهذه العملية الرجال فقط. (في حضرموت لعل الجدير بالذكر في الموضوع أن الصبن يخلطون مادة (الشب)** بالنيلة عند الصباغة من أجل ثبات أشد للون وتغميقه)، وفي المثل الحضرمي: (الشب بالنيل والقهوة لها الزنجبيل)، (لا بد أن الحطم والشب أسمان للمادة نفسها)، وفي المثل الشعبي (جمل الحطم في القافلة مستريح)، أي أنّ هذه المادة رخيصة الثمن ولا يتجرأ أحد على سرقتها لو تركت من غير حراسة [١]. فتغمر الأقمشة القطنية البيضاء (الكار) في هذا الخليط في الجونة لحوالي ثلاثة أيام، حتى تكتسب الأقمشة لونًا نيلي اللون، وبعد تجفيف القماش يوضع على حجر كبير مستوي السطح، ثم يتم فركه بأداة خشبية تسمى (المكمدة) مصنوعة من أشجار العشط، ويضرب ويفرك بها القماش حتى يكتسب لمعانًا واضحًا [١]. وقد شبه أحد الكتّاب المكمدة بأنها قطعة خشبية أشبه بمضرب لعبة (الكريكت)[٤] فتضرب

تجفيف القماش المصبوغ بالنيل
في زبيد - تهامة في ١٩٨٤م [٤]

رجل من الطوارق يلبس كساء
مصبوغًا بالنيلة ويلمع بشكل مميز

القماش الذي يكون على قطعة حجرية ملساء أخرى تكون أسفل القماش، وهم أيضًا بهذه الطريقة يجعلون لها بريقًا لامعًا جدًا وهي أهم مراحل التنييل [١٢]، ويسمى القماش الأزرق الناتج (مكمود). كما أنهم يروكون القماش الأزرق أيضًا بحجر أملس، وينتج عن هذه العملية قماشٌ أزرقٌ يسمّى (الجرود)، وهو أغلى ثمنًا من المكمود [١]. وبصورة عامة، كانت حرفة الصباغة منتشرة في معظم منطقة العوالق العليا وبيحان وغيرها من المناطق كما أسلفنا. كما كان هناك استخدام آخر للنيل: حيث كان أجدادنا يخلطون صبغة النيل مع السليط (زيت السمسم) فيصبغون بها أجسادهم، حتى يتقوا حرارة الصيف وبرد الشتاء على ما يذكر. وأتذكر وأنا صغير رائحة الكساء النيلي المميّزة ولمعانه المميّز كما في صورة الرجل الطارقي.

وفي المكلا كانت تقع مصابغ النيلة بالقرب من الكورنيش بقرب (مدرسة الحرية)[١٤]. أما في وادي حضرموت فقد اشتهرت عائلة (جروان) بالصبانة أي الصباغة؛ والحديث بالحديث يذكر فإن الأغنية الحضرمية حفظت في طي معانيها شيئًا من هذا التراث الشعبي، والذي يتمثل في الحرف والصناعات الشعبية، ولعلكم سمعتم بأغنية المحضار التي يقول فيها:

صبيغتي في حبل جروان
قد لي زمن من ربحة النيل
يعطيه مني ألف حنّان
من يا مجيب أم العناكيل
القال ما ينفع ولا القيل
من قال شيء يصدق بقيله
ما يجتـب في الناس صباغ
لي ما علم في الكف نيله [١٨]

أنواع الملابس في ذلك الزمان:

كانت صباغة القماش القطني الأبيض بغرض استخدامه للبس الرجال والنساء، وكان الكساء النيلي هو السائد في مناطق شبوة وحضرموت وأبين ويافع، ولا بد أن هناك مناطق أخرى أيضًا. والرجال إلى جانب اللبس النيلي فهي تدهن أجسامها بصبغة النيل وزيت السمسم مما يكسبه لمعانًا في زرقة.. كما أنّ ذلك أيضًا لبس الطوارق رجالًا ونساء.

مجموعة من الرجال تلمع صدورهم من صبغة النيل التي صبغوا بها أجسامهم- منطقة يبعث- حضرموت ١٩٣٧م

كانت ملابس أجدادنا متواضعة جدًا ليس في نوعيتها فحسب، بل في عددها. فملبس الرجل يتكون من ثلاث قطع فقط، وهي الغماقة (يلف بها رأسه)، والبركالة (يحتبي بها الرجل ويتلبّس بها)، والمقطب (المحزم) والتي تستر نصفه الأسفل، ما بين السرّة والركبة. ومن المعلوم أنّ أجدادنا لم يعرفوا الملابس الداخلية. وفي إحدى الصورتين نرى رجلًا من منطقة أمقليته يلبس القطع الثلاث، كما نلاحظ كيف انسدل شعره على صدره، وكان البعض يعكف شعره أيضًا.

كان نبات الحوير يزرع في عموم المنطقة إلى قبيل عام ١٩٥٠م، وفي منطقة العوالق العليا من محافظة شبوة كانت الناس كلها تلبس الكساء المصبوغ بالنيل، باستثناء قبيلة همام العولقية وهم في ذلك الزمان معظمهم رحّل، ومن القبائل الأخرى التي لم تلبس الكساء النيلي قبيلة بلحارث في مديرية عسيلان، فهم وهمام يلبسون لباسًا أبيضَ ضافيًا على أجسادهم وربما يعود ذلك لكونهم يعيشون على مقربة من أطراف صحراء الربع الخالي، وكما يبدو أن لبس الكساء النيلي مرتبط بالمناطق الجبلية. كما لاحظ الرحالة الهولندي فان در مولن عندما زار نصاب في طريقه إلى حضرموت في شهر مارس ١٩٣٩م، أن السيد عبدالله بن محمد الجفري يلبس كساءً أبيضَ، على خلاف الناس في نصاب [٧]، علمًا أنّ بعض السادة كانوا يلبسون الكساء النيلي كذلك. أما في عام ١٩٤٩م كان كساء الناس في وادي بيحان وجوارها هو الكساء النيلي. أما

تظهر الصورة (الجونة)، والزير حيث يستخرج النيل، والحجر الكبيرة المستوية السطح التي يطرق عليها الكساء المصبوغ بالنيل. الصورة ملتقطة في تهامة عام ١٩٨٣م [١]

مجموعة من قبائل الحموم في عام ١٩٢٧م مكتسية بالملابس النيلية وأجسادهم ملطخة بصبغة النيلة

مجموعة من رجال القبائل بلباسهم النيلي قبيل انخراطهم في قوة حرس الحكومة- لاحظ القطع الثلاث للملبس: العمامة للرأس والبركانة يحتبون ويتلبسون بها والمقطب

دورين إنجرامز (زوجة هارولد إنجرامز) فقد ذكرت أنه في عام ١٩٣٧م كان الكساء الإعتيادي للناس في قرى حضرموت هو الكساء النيلي. كما كان يهود حبّان وباقي أفراد تجمّعاتهم الصغيرة في المنطقة يلبسون الكساء النيلي مثل أقرانهم العرب. أمّا في البيوت وبالذات في غرفة البيت المخصصة لجلوس الضيوف فكان يلاحظ وجود خط (زرق/ نيلي على جدرانها، سببه استناد الرجال -بمستوى لوح الكتف- بملابسهم وأجسامهم المصبوغة بالنيل، على تلك الجدران. وبصورة عامة ففي مناطق محافظة شبوة وإلى عام ١٩٥١م كان الكساء المصبوغ بالنيل هو اللبس السائد للرجال والنساء في المنطقة، ومنذ تلك السنة فقد بدأت الأقمشة الملوّنة بالدخول إلى المنطقة بسبب انفتاحها جواً وبراً على عدن[١].

الحوبر و النيل و الكساء النيلي في الاقتصاد و السياسة:

تعرّف المحاصيل الصناعية بأنها «المحاصيل التي تنتج سلعًا أخرى تساهم في قطاع الإنتاج، ولكن ليست للغذاء، وتؤثر المحاصيل الصناعية في المجتمع من خلال توفيرها سلعًا تخفّف من الاعتماد على الخارج في الاستيراد»[٢].

لذلك فنبات الحوبر هو المحصول الصناعي الأهم في مناطق عديدة في ذلك الزمان، من باب أن أوراقه تستخدم لإنتاج سلعة أخرى وهي صبغة (النيل)، التي تستخدم في حرفة أخرى وهي صباغة القماش الأبيض الذي يستخدم ككساء للرجال والنساء. وبصورة عامة ينتج عن نبات الحوبر ثلاث منتجات وهي: الحَب، والأغصان، والأوراق. فالحَب يباع لاستخدامه بذورًا، والغصون علفًا للماشية، أمّا الأوراق فتستخدم لصنع صبغة النيل. وكان ذكر النيل يسحر الألباب بقدر ذكر الحرير والبهارات في ذلك الزمان. وكان هذا النبات لايقل أهمية عن نباتات السمسم والذرة والقمح.

وفيما يخص حرفة الصباغة فقد ذكر كارستن نيبور في القرن الثامن عشر بأنه شاهد أكثر من ٦٠٠ زيرًا مملوءة بمادة النيل معروضة للبيع في سوق مدينة زبيد[٤].

تنافس الإنجليز والفرنسيون والبرتغاليون والهولنديون على مناطق زراعة النيلة في آسيا. فالأوروبيون لم يعرفوا هذه النبتة إلا في أوائل القرن ١٨. وكانت مدينة كلكتا في الهند إحدى بؤر هذا التنافس. وأما بريطانيا إبان استعمارها للهند كان مواطنوها يمتلكون مزارع للنيلة ومصانع لاستخراج الصبغة، وعلى الرغم من الثورة الصناعية فقد كانت تلك المصانع تدار بالأيادي العاملة الهندية (انظر الصورة) [٣]. كان الزي العسكري الأزرق لعدد من جيوش وبحرية بريطانيا وألمانيا وفرنسا وأمريكا كمثال مصبوغًا بالنيلة؛ لأنه يقاوم ظروف البحر وأكثر ثباتًا من باقي الصبغات. وكانت النيلة الإنتاج الأوّل للاقتصاد المصري، وكانت تُصدّر إلى إيطاليا، لكن النيلة المصرية لم تستطع منافسة نيلة أريحا التي كانت أغلى بفضل نقاوتها [١٧]. لعلّ الهند اليوم أوفر حظًا من اليمن وعُمان وفلسطين وسوريا التي توقفت فيها زراعة النيلة. وفي سوريا الكبرى استبدل الناس في ثلاثينيات القرن العشرين مكعبات صبغة النيلة الطبيعية بالصبغة الاصطناعية التي جلبها الإنجليز والفرنسيون[١٧].

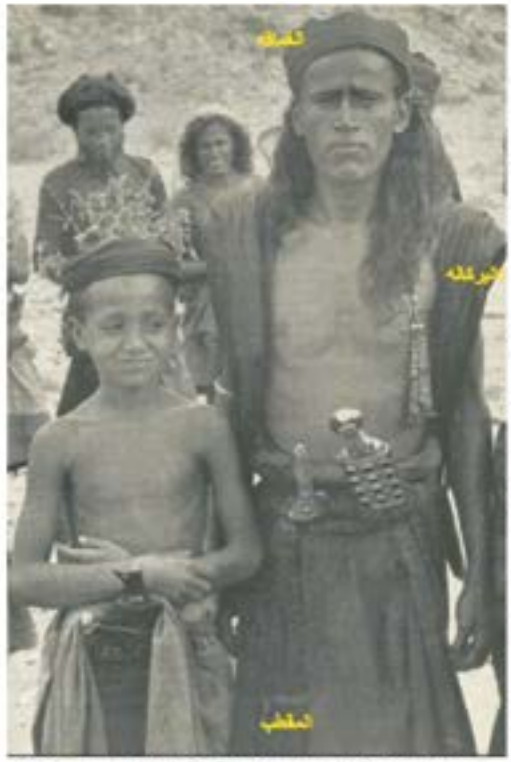

مسميات الكساء النيلي-احد مشايخ قبيلة آل فضل-ابين- ١٩٣٦

كما يعد النيلي لون فلسطين الأول، فكان الناس يطلون جدران بيوتهم بالنيلي مخلوطاً بالكلس ليصير لون الجدران أزرق سماوياً. والسبب هو إبعاد الهوام، أي الحشرات والذباب والبعوض. لكن النيلة لم تتوقف في القسم الجنوبي من سوريا الكبرى[١٧]. كما أن الطوارق (ما بين الجزائر وليبيا ومالي والنيجر) يلفون أنفسهم حتى عيونهم بعباءات مصبوغة بالنيلة، وقد أثبت علمياً أن القماشة المصبوغة بالنيلي تقي من سرطان الجلد، كما أن لدى البدو معتقداً مفاده أنه إذا وضعت قماشة مصبوغة بالنيلي بجانبك في أثناء النوم، ستبعد عنك الأفاعي والعقارب [١٢].

أما المرأة الطارقية (انظر الصورة) فهي (سحر أزرق) وتستخدم (النيلة) في صبغ أصابعها باللون الأزرق؛ حيث تستعملها للزينة من جهة وللحماية من برد الصحراء وشمسها من جهة أخرى. وتتميز ملابسها بألوان يغلب عليها الأزرق ودرجاته، إضافة إلى البني والعنابي[١٦]. وتقول إحدى الأغاني الطارقية المشهورة (امرغد لولة تلسات النيلة)، ومعناها: (مررت على لولة وهي ترتدي النيلة)[١٢]. وكانت نساء البادية تصبغ منسوجاتها وبراقعها بمادة النيلة وهذه المادة توفر الحماية للوجه والجسم من لفحات أشعة الشمس المحرقة، فتصبح النيلة مادة عازلة شأنها شأن (الهرد) الكركم، الذي تتخذه أيضاً النساء كمادة عازلة تحمي أجسامهن [١٨].

لقد كان إتقان عملية الصباغة من أهم مقومات نجاح الحياكة في ذلك الوقت، وقبل أن تظهر فيما بعد خيوط الحرير والقطن والصوف المستوردة.

ومن عيوب مادة النيل أنها ضعيفة في ثباتها (تفسخ - تطلق) في جسم لابس النسيج، وإذا ما بهت لون النسيج تم إعادة صباغته بالنيلة مرة أخرى. وتستعمل مادة النيلة لغايات كثيرة منها مقاومة أشعة الشمس الحارة،

أحد معامل استخراج النيلة باستخدام اليد العاملة- في الهند خلال فترة الاستعمار البريطاني

وحماية الجلد من بعض الإصابات الناتجة عن ذلك. فضلًا عن كون استعمال النيلة والغسيل بعدها يضفي على البشرة طابعًا أنيقًا وجماليًا؛ حيث تساهم في صفاء البشرة، ونعومتها والمحافظة على لونها، فهي بذلك تؤدي الدورين معًا (الجمالي والنفعي) [١٧].

كان الطلب الكثير على الحطم والحوير يأتي من بيحان، فلو دخلتَ سوق بيحان منذ بعير في اليوم لمَا وجد الأخير نصيبًا منها. كما أن جزءًا من تجارة أهل خليفة (في مديرية عتق) كان من الحوير. وكانت بلاد آل سليمان العوالق وخليفة مركزًا مهمًا لزراعة نبات الحوير وتموين مناطق نصاب ومرخة وبيحان به كما أسلفنا. أما في حوالي عام ١٩٤٠م فكان إنتاج منطقة نصاب من النيل لا يكفي صناعة الصباغة المحلية فيها، فيتم استيراده من المناطق المجاورة. ومن بين بلدات المنطقة، كانت صناعة النيل وصباغة الملابس في بيحان الحرفة الرئيسة فيها، ويشتغل فيها المئات. وفي بيحان كانت أصوات طرق القماش النيلي بالمكمدة، تسمع للساكنين في البلدة وتتبع أذان الفجر حتى الغسق. أما منطقة مرخة فقد ذكرت المصادر البريطانية أنه في عام ١٩١٥م كانت المحاصيل الرئيسة فيها هي الحوير والقطن والقمح والدخن. ومن أشهر أنواع الملابس النيلية المطروقة هي المعمولة في نصاب وبيحان، وكانت مشهورة باسم (البيحاني)، ولذلك فإنّ الكساء البيحاني كان يلبس في المناسبات المهمة كنوع من الأبّهة، ويمنح كجوائز لحفظة القرآن من الأطفال والشباب. وكان لها شهرة كبيرة في يافع وعدن كسوق [١].

كما كانت مادة (الحطم)، التي تحسّن من عملية الصباغة كما أسلفنا، تحتل موقعًا مهمًا في اقتصاد المنطقة، ففي الشيخ عثمان (انظر الملاحظة في ذيل المقال) يأتي المشترون للحطم، فيرسلونها من عدن بالقوارب الصغيرة (الزعايم) إلى ميناء رأس بالحاف، فتنقل إلى حوطة الفقيه علي، بقرب عزان، وهي السوق الرئيس الوحيد في ذلك الزمان في تلك الجهة. بوساطة الجمال وكان غالب الجمّالة من آل باقطمي، وآل باديان، وآل باداس. ثم يأتي جمّالة آخرون من خليفة وآل سليمان وغيرهم، فينقلونها للمتاجرين فيها إلى عتق، وبيحان، ونصاب، ومرخة، وخورة، وما فاض عن حاجة تلك المناطق يبقى في عتق [١]. و كانت وحدة الوزن التي يباع بها تسمى (المدلاة) وتساوي ١٤ رطلًا سركاليًا، والرطل هذا يساوي ١٦ أوقية. (أي أن المدلاة تساوي ٦ كجم وزيادة تقريبًا). أما في منطقة الروضة من محافظة شبوة فإن أسرة سالم مسرور كان لها شأن مختلف مع الحوير والنيل. فهذه الأسرة كانت تزرع الحوير في أرضها الخاصة، وتحصده وتستخرج صبغة النيل منه، ثم تصبغ القماش وتبيعه في واديي دوعن وعمد من وادي

حضرموت خلال موسم زيارة المشهد الشهيرة هناك [٦].

في الهند كان الهكتار ينتج ما يتراوح من ٣٨ إلى ٥٠ كجم من صبغة النيل، ويحتاج الهكتار الواحد إلى حوالي ٢٧ كجم من البذور، كما ينتج الهكتار من السماد الأخضر حوالي ١١ طنًا [٨]. وفي مديرية عتق من محافظة شبوة فإن الزير الممتلئ من أوراق نبات الحوير والماء ينتج كيلوجرامًا واحدًا من صبغة النيل [٦].

أمام الشح في إنتاج صبغة النيل الذي لم يواكب طلب السوق عليه، فقد استوردت مادة من الخارج وتكون في براميل وتسمى (الشم) وهي كما يذكر صبغة نيل أجنبية أو أنها نيلة صناعية، وسمّي الكساء المصبوغ بالشم (الجاملي)، لكن الناس لم تكن ترغب فيه بسبب أن تلك الصبغة تحتّ (من الفعل حتّ)، أي تنفصل من القماش [٦].

كان لشجرة الحوير دور فاعل في اقتصاد المنطقة في ذلك الزمان، فكانت مصدرًا لرزق الآلاف، وغذاءً للماشية، واستفاد منها من بذرها ومن حصدها ومن باعها، ومن صنع منها النيل ومن تاجر في بيع الكساء المصبوغ بالنيل المصنوع منها، وكان لمحصول الحوير دور مهم في الحياة الاقتصادية للمنطقة في ذلك الزمان، فمن ثمن الحوير كانت الناس تشتري البن والزنجبيل والسليط والكساء والحب والرصاص وأشياء أخرى، وينتظرون موسم حصاده ليبيعوه ويقضوا ديونهم.

جتك نيله: يعود أصل عبارة (تنيل وجتك نيله) إلى الصبغة الزرقاء التي كان المصري القديم يستخدم لفائفها في إحاطة المومياء بعد التحنيط، والتي ما زالت محتفظة بلونها الأزرق حتى الآن.

وعند تحليلها وجد أن مركب (الأنيلين) هو أساس الصبغة وأساس اللون الأزرق.. أما بالنسبة للمصطلح أو التعبير الشائع (تنيل وجتك نيله) فيقال إنه في العصر الفرعوني بعد تحنيط المتوفى ووضعه في التابوت كانت تجلس بجواره زوجته وتأخذ نبات النيلة وتضعه فوق رأسه، ومن هنا جاء هذا اللفظ ليدل على الكآبة والحزن [١٩].

صبغة النيل في السياسة البريطانية: لأن صباغة الملابس بالنيل كانت أكبر حرفة في بيحان، فإن الخلافات السياسية

نساء طارقيات بالكساء النيلي

التي وقعت في مارس ١٩٤٩م ما بين إمام اليمن من جهة وشريف بيحان وبريطانيا من جهة أخرى أدّت بالإمام لأن يحظر استيراد الأقمشة النيلية من بيحان، والتي كان البيحانيون يستخدمون عوائدها المالية لاستيراد الحبوب من اليمن، فتكدّست الأقمشة وقلّ إيراد خزينة إمارة بيحان، ففكّر مسؤولوها في بدائل أخرى، فيما لو استمر الحظر، ومنها رفع الضريبة على أحمال الجمال من الملح الصخري إلى ثلاثة أضعاف على ما هي عليه (من ثمن إلى ثلاثة أثمان الريال الفرانصة على كل جمل محمّلًا بالملح)، وأيضًا استيعاب الصباغين في الزراعة. وقد خفّف من حدّة الحظر، التهريب المتبادل للحبوب من اليمن والأقمشة النيلية من بيحان.

أما الرحالة (ضابط الاستخبارات البريطانية) ويمان بوري (W. Bury) الذي تربّى صغيرًا في لحج وأتقن اللغة العربية، وتسمّى باسم (عبدالله منصور)، فبقي في الشمس أيامًا عديدة ليكتسب جلده لونًا برونزيًا، ولم يكتف بذلك بل صبغ جسمه بالنيل ولبس الملابس المصبوغة بالنيل [١١]، حتى يتقرّب للعرب لغة ولون جلده وملبسًا. أما الكابتن هملتن فقد وصف لمعان النيل وزيت السمسم من أجساد الرجال بأنه كلمعان المعدن الأزرق، وأما فان در مولن (هولندي) فقد سمّى رجال القبائل بلباسهم النيلي وأجسادهم المتشحة باللون الأزرق بـ(المحاربين الزرق)، وكان البريطانيون يلبسون رؤساء المشيخات و القبائل الذين يزورون الممثل المقيم (والي عدن) ملابس ضافية وملوّنة بدلًا عن ملابسهم النيلية الرثة قبل مقابلتهم له (بعد أن يغتسلوا ويزيلوا صبغة النيل من على أجسادهم)، وذلك في محاولة بريطانيا لإدخال التغيير في حياتهم. ولهذا فإن رؤساء العوالق الذين حضروا هذا المؤتمر وهم السلطان صالح بن عوض بن عبدالله (سلطان نصاب) والشيخان أبوبكر بن فريد ورويس بن محسن بن فريد، عندما حضروا مؤتمر رؤساء المشيخات والسلطنات في لحج في عام ١٩٢٨م لبسوا الكساء الملون، وتركوا الملابس النيلية.. أما السلطان الفضلي في حوالي عام ١٩٤٢م فقد بلغ افتخاره بنفسه، أنّ ركب سيارته الحديثة لأول مرة في بلاده، وهو مكتسٍ بملابس نيلية، في تناقض لافتٍ للنظر ما بين الزي التقليدي والتكنولوجيا الحديثة.

متى بدأت زراعة الحوير والكساء النيلي؟

لم نجد ما يدل على بدء زراعة الحوير ولا متى بدأت الناس في لبس الكساء النيلي في المنطقة، لكن مادة النيل وتسمى (نيلج) أيضًا، كانت إحدى المواد

التي كانت تستورد إلى ميناء عدن في القرن الثاني عشر الميلادي أيام دولة بني زريع [١٣]، وربما إلى موانئ أخرى مجاورة. وقد سألتني والدكتور عبدالعزيز جعفر بن عقيل العالمة الكندية (جوي مكرتسون) المختصة في علم الأجناس (الأنثروبولوجي) متى بدأت زراعة الحوير ولبس الناس للكساء النيلي فلم نحر جوابًا، على الرغم من أنني قد سألت بعض كبار السن، فيبدو أن ذلك كان منذ مئات السنين. كما أن الإمام عمر بن يوسف بن عمر بن رسول لم يذكر هذا النبات في مخطوطته عن المحاصيل الزراعية في دولة بني رسول في الفترة ٦٢٦-٨٥٨ هـ، أي في القرن الرابع عشر [١٢]. لكن ربما أنه قبل هذا التاريخ كانت الناس تستخدم صبغة النيلج المستوردة قبل أن يبدأوا في زراعة الحوير واستخراج صبغة النيل محليًا.

كيمياء صبغة النيل:

المادة الملونة الزرقاء من نبات الحوير، هي مادة كيمائية رباعية بيضاء، تتأكسد وتزرق في الهواء، وتنتج صناعيًا أيضًا من مادة النفتالين. ففي عام ١٨٩٧م تمكن قسم الكيمياء في شركة (بايرن ليفركوزن) من استخراج الصبغة الزرقاء من مركب رخيص وهو (النفتالين)، ويستخرج من قطران الفحم. ودخلت هذه الصبغة في صباغة ألوان سراويل الجينز الأزرق الشهيرة كبديل للنيل الطبيعي.

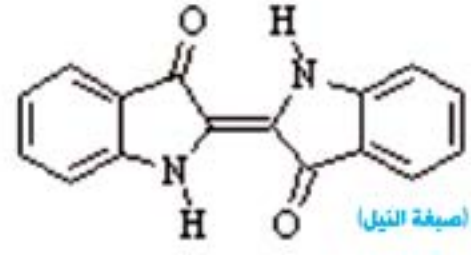

جزئ (صبغة النيل)

الملاحظات:

*- الحطم: الحطم مادة تستخرج من شجر العصل، الذي ينبت في منطقة تقع شرق الشيخ عثمان في عدن من جهة أبين، فتقطع الأشجار ثم يجعلون منها (مواكر) أي أكوام، ثم يحيطونها بأكوام من الرمل ويحرقونها حتى تصير رمادًا ويصبون عليها الماء وتبقى على هذا الحال مدة أسبوعين إلى ثلاثة تقريبًا. والناتج عن هذه العملية مادة صلبة كالحجر الصلب متفاوتة الحجم وهي مادة الحطم.

**- الشب: مادة تستخرج من الشجر، ويتحجّر ويكون لونه أقرب إلى الأسود. (ربما أن الحطم (شبوة) والشب (حضرموت) اسمان للمادة نفسها).

سراويل الجينز مصبوغة بصبغة النيل الاصطناعية

المراجع:

١. الحاج أحمد بن عوض بن ناصر لغجل الخليفي، عتق - شبوة.

٢. عبدالله راشد سالم مسرور نقلًا عن المرحوم أبيه، - الروضة- شبوة.

٣. PAST & PRESENT: INDIGO by Amy Azzarito.

٤. Indigo in the Arab World. by Jenny Balfour-Paul.

٥. Sheba Revealed. by Nigel Groom

٦. Kingdom of Melchior. by R. Hamilton

٧. Aden to Hadhramaut. by D. Van der Meulen.

٨. A Textbook of Agronomy. by B. Chandrasekaran. Annadurai. and Somasundaram. ٢٠١٠.

٩. USDA. NRCS. PLANTS Database. plants.usda.gov. National Plant Data Center. Baton Rouge. LA ٧٠٨٧٤-٤٤٩٠ USA.

١٠. INDIGO PLANTING IN INDIA. by M. N. MacDonald. pdf file.

١١. The Land of Uz. by Bury G. Wyman. ١٩١١.

١٢. ملح الملاحة في معرفة الفلاحة. للإمام عمر بن يوسف بن عمر بن رسول، تحقيق الدكتور عبدالله المجاهد ١٩٨٧م.

١٣. عدن، دراسة في أحوالها السياسية والاقتصادية ١٠٨٣- ١٢٢٩م، أ. د. محمد كريم إبراهيم الشمري، ٢٠٠٤م، (ص٢٦٢).

١٤. أوراق مكلاوية، أ. د. عبدالله سعيد الجعيدي، ٢٠١١م، ص٤٩، وتواصل شخصي مع المؤلف.

١٥. موقع سقيفة الشبامي (عن الشب).

١٦. www.marefa.org/ولاية_تمنراست.

١٧. http://al-akhbar.com/node/١٧٦٩٧

١٨. http://hadhramaut.info/view/٨٣٧١.aspx.

١٩. https://www.facebook.com/Egyptts/photos/a..

٢٠. https://www.facebook.com/touareglibya.

٢١. NATURAL INDIGO-pdf file.

٢٢. Cultivation of Indigo plant. biotechnology of natural dyes and improving the soil's ecology. Tashkent-Urgench. ٢٠٠٩.

٢٣. facweb.cs.depaul.edu/sgrais/indigo.htm- Indigo.

النشاط الترجمي في حضرموت من خلال بعض التجارب

التفاعل مع الآخر، والانفتاح عليه ، والاستفادة مما لديه من معارف واكتشافات هي أهم مقوِّمات النهوض العلمي والثقافي وبناء الحضارات. ولا تفاعل مع الآخر من غير معرفة لغته، وكيفية تصوُّره لنا، وترجمة ما لديه من معارف وعلوم، نُثري بها ثقافتنا وحضارتنا. وتعلُّم اللغات الأجنبية وممارسةُ الترجمة هما وسيلتا هذا الانفتاح على الآخر.

ويُعَدُّ سكانُ حضرموت، المشهورون بحبِّ الترحال والاختلاط بالشعوب الأخرى، من أكثر الناس انفتاحًا على العالم، فمنذ مطلع القرن العشرين بدأ الحضارم يهتمون بدراسة اللغات الأجنبية والترجمة في مهاجرهم ثم في بلادهم. ومنذ عشرينيات القرن الماضي برز عدد من المترجمين الحضارم الذين أسهموا في تسيير أعمال الحكومة، وأعمال التجارة، وكذلك في النشاط الصحفي. وبما أن هذا النشاط الترجمي لم يَحْظَ حتى اليوم بأي اهتمام، رأيت أن أكرِّس له هذه الدراسة المتواضعة، التي بدأتها بلمحة سريعة عن اللغات الأجنبية وتدريسها في حضرموت قبل الاستقلال. وفي الجزء الثاني تناولت بدايات النشاط الترجمي حتى الاستقلال، ثم قدمت تطور الترجمة في حضرموت بعد الاستقلال. وفي الجزء الرابع قدمت بعض الهوامش حول تجربة نجيب سعيد باوزير ، وقارنت بينها وبين طريقتي في الترجمة ، وأُنهيت الدراسة بتقديم موجز لخمسة مترجمين حضارم: محمد بن هاشم، ومحمد عبدالقادر بامحرز، وعبدالله سالم بن مرعي، وسعيد عبدالخير النوبان، وسعيد محمد دحي.

أ.د. مسعود سعيد عمشوش

أولًا: اللغة الإنجليزية في حضرموت قبل الاستقلال:

اختلف واقع اللغات الأجنبية في عدن قبل الاستقلال عن واقعها في المحميات الشرقية، ففي عدن سعتْ بريطانيا إلى جعل اللغة الإنجليزية لغة التعليم والإدارة والتجارة، وأصبحت اللغة العربية لغة ثانية. وقد قامت اللغة الإنجليزية بدور كبير في ازدهار الحياة الثقافية في عدن خلال فترة الاستعمار ، الذي بسبب سياسته التعليمية وتعدُّد الأجناس شجَّع كثيرًا على ممارسة الكتابة باللغة الإنجليزية من قِبَل النُّخبة العربية والنُّخَب من مختلف الجاليات المستقرَّة في عدن، بما فيها الجالية الأوروبية والجالية الهندية. (انظر: دور اللغة الإنجليزية والنشاط الترجمي في الحياة الثقافية في عدن قبل الاستقلال، ومكانة اللغة الإنجليزية في الحياة التعليمية في عدن قبل الاستقلال، في كتابي: الترجمة في عدن).

أما في حضرموت، التي قضى كثير من أهلها بعض سنوات عمرهم في الهند وجاوة وسنغافورة وسواحل إفريقيا، ويرطنون لغات تلك البلدان التي هاجروا إليها، فليس هناك -في العصر الحديث- وجودٌ للغة أخرى في الحياة اليومية غير اللغة العربية. ومع ذلك تذكر الرحالة البريطانية بنت، التي زارت مع زوجها حضرموت عام ١٨٩٣، أن اللغة الهندية كانت منتشرة في المكلا بشكل كبير، وبشكل خاص بين رجال المال والتجارة. أما اللغة الإنجليزية فلم يكن لها وجود قبل بدء التعليم النظامي في المكلا في ثلاثينيات القرن الماضي. وفي عام ١٩٣٥م وصلت الرحالة فريا ستارك المكلا وزارت المدرسة النظامية، وسمعت التلاميذ يتحاورون باللغة الإنجليزية ويردِّدون باللغتين العربية والإنجليزية:"God Save the King". وإثر الزيارة كتبت رسالة إلى أمها (في ٢٠ يناير ١٩٣٥م)، تقول فيها: «فتات عجيب من الحياة الغربية يطفو فوق الشرق: كرة قدم في مربض الجمال، عبارات" form fours، left right"، يردِّدها الجنود النظاميون وهم يلبسون سراويلهم القصيرة". (انظر كتابي: حضرموت في كتابات فريا ستارك).

ويذكر القاصُّ عبدالله سالم باوزير أنه وزملاءه في المدرسة الابتدائية بغيل باوزير في مطلع خمسينيات القرن الماضي كانوا يحرِّرون المجلات الحائطية باللغتين العربية والإنجليزية. وفي المدرسة الوسطى بغيل باوزير أُعطِيَ اهتمامٌ كبير باللغة الإنجليزية.

وبعد أنْ درسَ الأستاذ محمد سالم باشريف - رحمه الله- اللغة الانجليزية على يد مدرِّس من المكلا يُدعَى "بلال كرامة" ثم عبر المراسلة قام بتأسيس

فريا ستارك

أول معهد للغة الإنجليزية في حضرموت عام ١٩٥٠م، وذلك في عهد السلطان صالح بن غالب القعيطي. وفي خمسينيات وستينيات القرن الماضي أصبح الالتحاق بمعهد (أو مدرسة) باشريف لتعليم اللغة الإنجليزية حُلمًا سعى كثير من شباب حضرموت لتحقيقه. فإضافة إلى الأمير غالب القعيطي تتلمذ على يدي محمد سالم باشريف، لدراسة اللغة الإنجليزية، عدد من شباب المكلا الذين تبوؤا مراكز مهمة في حضرموت مثل: خالد باعيسى وعلي الغريب، ود. عمر بن سهيل، ود. خالد باشريف، والمهندس سالم باغويطه، والمهندس محمد عبود بوعسكر، وغيرهم. وكان المعهد قد اعتمد منهج (new method of English) في الدراسة، ويمنح شهادة الدبلوم المتوسط لكل من أكمل الكتب الثلاثة الأولى منه، وشهادة الدبلوم العالي لمن أكمل خمسة كتب منه. وكانت شهادته معتمدة في السعودية ودول الخليج العربية.

وفي الوادي لم يتم الاهتمام باللغة الإنجليزية في المدارس الابتدائية النظامية (حكومية كانت أو أهلية) قبل مطلع الستينيات، أي قبل افتتاح المدرسة الوسطى بسيئون، التي قام بتدريس اللغة الإنجليزية فيها عدد من المدرسين السودانيين وقليلٌ من المحليين من أبرزهم الأستاذ المرحوم عبداللاه بارجاء، الذي كان قد تحصّل على دورة طويلة في بريطانيا لدراسة اللغة الإنجليزية، وقد استمر في تدريسها لشباب سيئون في بيته وفي المدارس.

لكن قبل ذلك، في النصف الثاني من الأربعينات، تطوّع مساعد المستشار البريطاني مستر هونزي لتعليم عدد محدود من الشباب اللغة الإنجليزية بشكل منهجي. ومن بين هؤلاء الشباب حسن عبدالرحمن بن عبيداللاه السقاف، وعلي السقاف، والأستاذ المؤرخ جعفر محمد السقاف الذي لا يزال يحتفظ بعدد من الكراسات التي كان يسجّل فيها دروس اللغة الإنجليزية، والذي استطاع أن يلم بالإنجليزية بشكل مكّنه من التخاطب بها والترجمة منها إلى اللغة العربية.

الأستاذ محمد سالم باشريف
- رحمه الله -
مؤسس أول معهد للغة الإنجليزية
في حضرموت عام ١٩٥٠م

ثانيا : النشاط الترجمي في حضرموت قبل الاستقلال:

يمكننا القول إنّ الحضارم إلى وقت قريب لم يكونوا يشعرون بالحاجة إلى الترجمة داخل موطنهم حضرموت، حيث كان الجميع يتحدّثون العربية. فحتى الأجانب الذين زاروا حضرموت كانوا في الغالب ممن يتقنون اللغة العربية. وكانت حكومة عدن تحرص على عدم تسهيل السفر إلى حضرموت للغربيين الذين يجهلون العربية، أو ترغمهم على اصطحاب مترجم من عدن معهم. وقد ذكرت الرحالة الألمانية (مابيل بنت)، التي زارت هي وزوجها عدن وحضرموت سنة ١٨٩٣م، أنّ السلطات البريطانية في عدن اشترطت عليهما اصطحاب مترجم رسميٍّ تابع لمكتب الإقامة يدعى (صالح حسن) ؛ ليتمكنا من الذهاب إلى وادي حضرموت. (ثيودور ومابيل بنت، جنوبي جزيرة العرب، ترجمة هناء خليفة، إصدار هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، ٢٠١٢م، ص١٠٧).

وقبل ذلك هناك إشارة في كتاب الراهبين اليسوعيين الإسبانيين، الأب مونسرات والأب بانز، اللذَيْن أرغما على أنْ يُصبحا أوّل أوروبيين يقومان باختراق وادي حضرموت من الشرق إلى الغرب، وأن يُشاهدا مُدُنَه وقُراه عام ١٥٨٩م، غيرَ أنهما قد أُسرا في ظفار، وأُرغِما على السَّيْر على الأقدام باتجاه وادي حضرموت، وفي مدينة هينن ظلّا أسيرَيْن أربعة أشهر قبل أن يُرسِلَهُما الحاكمُ إلى صنعاء عَبْرَ مأرب. وذكرا أن الحاكم كانتْ لديه زوجةٌ من أصل تركماني قامتْ بالترجمة بينهم.

وفي النصف الأول من القرن العشرين لا يبدو أن السلاطين القعطة الذين كانوا يُتقنُون العربية والهندية والإنجليزية، كانوا بحاجة إلى مترجمين. وعلى الرغم من ذلك فقد ذكر محمد علي لقمان أنّ والده علي إبراهيم لقمان "كان يعمل مترجمًا مساعدًا في مكتب الإقامة"، وأنه كان يرافق المسؤولين البريطانيين في رحلاتهم إلى حضرموت. (انظر محمد علي لقمان المحامي، رجال وشؤون وذكريات، ص٤٠). كما أن الهنود المستقرّين في المكلا كانوا يمارسون الترجمة التجارية.

وفي نهاية الثلاثينيات من القرن الماضي عمل محمد عبد القادر بامطرف مترجمًا رسميًا لدى المستشارية البريطانية، ثم مع حكومة السلطنة القعيطية بالمكلا. وكان لدى المستشارية البريطانية مترجمون آخرون منهم علي عبدالصادق وعبدالرؤوف بارحيم، اللذان قاما بالترجمة كذلك في المستشارية البريطانية لدى السلطنة الكثيرية. ويذكر محمد سالم باشريف، صاحب معهد باشريف، أنه قد قام بالترجمة لدى الحكومة القعيطية.

وبالنسبة لوادي حضرموت، هناك عدد من الحضارم الذين درسوا اللغة الإنجليزية في المهجر وبشكل خاص في إندونيسيا وكينيا، وعندما عادوا من هناك مارسوا الترجمة؛ منهم محمد بن هاشم وعبدالله سالم بن مرعي، وسالم عبدالله العامري، وفيصل علي بن مرعي الذي قام بمساعدة الأستاذ جعفر محمد السقاف في ترجمة نص محاضرة علمية إلى اللغة الإنجليزية، وقد ألقاها الأستاذ جعفر السقاف بلسانه في إندونيسيا.

ومن الذين أسهموا في الترجمة لدى المستشارية البريطانية في سيئون بعد محمد بن هاشم: مصطفى رفعت، ثم عبدالرؤوف بارحيم وعلي عبدالصادق من المكلا، وبعدهم قام بالترجمة في المستشارية عبدالرحيم محمد السقاف، وعبدالله سالم العامري.

وفي إطار (مشروع البعثات الحضرمي) تولى الترجمة عدد من الإداريين في المشروع، بدءًا من قحطان محمد الشعبي، ثم أنور خالد وسعيد عبدالخير النوبان، وسالم العامري الذي ترجم أيضًا في الورشة الحكومية. أما عبدالله سالم بن مرعي، الذي درس اللغة الإنجليزية في إندونيسيا وعاد إلى سيئون عام ١٩٦٠م، ومنذ ذلك الحين التحق بالعمل مترجمًا في البنك الشرقي، ثم في مكتب الأمم المتحدة، ثم في مشروع ثمود، قبل أن يتفرغ لترجمة الرسائل وتحريرها باللغة الإنجليزية لمعظم الشركات والمؤسسات التجارية في وادي حضرموت.

وتجدر الإشارة إلى أن الترجمة في حضرموت انحصرت قبل الاستقلال بين اللغتين العربية والإنجليزية، وفي الجانب العملي والشفهي بشكل رئيس، باستثناء ما قام به محمد بن هاشم الذي ترجم (صلح إنجرامس) ونشره في صحيفة (الإخاء)، وكذلك بعض المقالات القصيرة التي نشرها في الصحف المصرية.

وحسب علمنا لم يُقدم أيُّ حضرمي على ترجمة كتاب أو دراسة كاملة قبل الاستقلال من أي لغة أجنبية. وهناك ترجمات لكتب تتحدث جزئيًا عن حضرموت قام بها مترجمون غير حضارم، وهي كثيرة الأخطاء لا سيّما فيما يتعلق بأسماء العلم. منها كتاب الطبيبة الألمانية (سنوات في اليمن وحضرموت)، الذي ترجمه اللبناني خيري حمادي عام ١٩٦٢م، وكتاب الرحالة الألماني هانس هيلفريتس (اليمن من الباب الخلفي)، الذي قام بترجمته أيضًا خيري حماد عام ١٩٦١م.

ثالثًا: النشاط الترجمي في حضرموت بعد الاستقلال:

منذ الاستقلال، مارس كثير من الحضارم الذين درسوا اللغات الأجنبية في المهجر أو في أثناء تحضيرهم للدراسات الجامعية في الخارج أو الداخل الترجمة. وفي الغالب مارسوا الترجمة الشفهية أو ترجمة وثائق رسمية أو خاصة غير قابلة للنشر. وقليل منهم بادروا إلى ترجمة بعض الكتب والدراسات والمقالات وقاموا بنشرها.

ومن هؤلاء: سعيد محمد دحي، الذي ترجم كتاب المستشرق روبيرت سارجانت (شعر ونثر من حضرموت)، وسعيدعبد الخير النوبان، الذي ترجم (حول مصادر التاريخ الحضرمي)، الذي يحتوي على خمس دراسات مهمة للباحث المستعرب البريطاني روبيرت سارجانت، وبالاشتراك مع علي محمد باحشوان كتاب (تاريخ العربية السعيدة: اليمن)، الذي ألفه في منتصف القرن التاسع عشر الضابط البريطاني بلايفير F.L.Playfair.، وكتاب (حضرموت ١٩٣٤-١٩٣٥م)، وهو تقرير حول الحالة في حضرموت سياسيًا واجتماعيًا واقتصاديًا، أعدّه المستشار البريطاني ويليام هارولد إنجرامس للإدارة البريطانية تمهيدًا لفرض معاهدتي الاستشارة البريطانية على السلطنتين القعيطية والكثيرية في نهاية الثلاثينيات من القرن العشرين.

وترجم نجيب سعيد باوزير كتاب (اليمن .. أئمتها وحكامها وثوراتها) لهارولد انجرامز، و(أيامي في جنوب الجزيرة العربية) لدورين انجرامس، و(وجوه من بلاد العرب) لفان در ميولن. وترجم د. عبدالعزيز جعفر بن عقيل من اللغة الروسية كتاب سرجيس فرانتوزوف (تاريخ حضرموت الاجتماعي والسياسي قبيل الإسلام وبعده: العصور الوسيطة المبكرة)، وكتاب (العمارة الطينية الحضرمية التقليدية).

وترجم د.عبدالله الكاف كتاب (الشتات الحضرمي).

وقام د. عادل سالم باحميد، وهو متخصص في الترجمة، بنقل بعض قصائد المحضار إلى اللغة الإنجليزية، وهو الحضرمي الوحيد الذي مارس الترجمة الأدبية الكتابية من اللغة العربية باتجاه لغة أجنبية. وضمّن د. أبوبكر محسن الحامد رسالته للدكتوراه ترجمة لنماذج من قصائد صالح بن علي الحامد.

ومنذ منتصف تسعينيات القرن الماضي قمت بترجمة فصول كثيرة عن حضرموت من كتب فرنسية وإنجليزية، وضمّنتها كتبي: (حضرموت في كتابات فريا ستارك)، و(الحضارم في الأرخبيل الهندي)، و(المستكشف هاري سانت جون فليبي ورحلته إلى حضرموت)، و(صورة اليمن في كتابات الرحالة الغربيين).

ومنذ الاستقلال ارتفع عدد الكتب الأجنبية التي تتناول حضرموت، ونُقلت إلى العربية من قبل مترجمين غير حضارم؛ منها كتابا فان در ميولن (حضرموت إزاحة النقاب عن بعض غموضها) و(رحلة إلى جنوب الجزيرة العربية)، اللذان قام بترجمتهما المرحوم د. محمد سعيد القدال، و(كفاح أبناء العرب ضد الاستعمار الهولندي)، الذي ترجمه د. زكي صالح باسليمان، وكتاب (عادات وتقاليد حضرموت الغربية) الذي ترجمة د. علي الخلاقي. وقبل سنتين نُشرت في أبوظبي ترجمة لكتاب فريا ستارك (البوابات الجنوبية للجزيرة العربية)، قامت بها اللبنانية وفاء الذهبي. ويستعدّ طالب الماجستير موسى بن حريز لتقديم دراسة عنها ومقارنتها بالترجمة التي قمت بها لبعض فصول الكتاب قبل عشرين سنة وضمّنتُها كتابي (حضرموت في كتابات فريا ستارك).

رابعا: هوامش حول بعض التجارب الحضرمية في الترجمة:

١- نجيب سعيد باوزير وتجربته في الترجمة

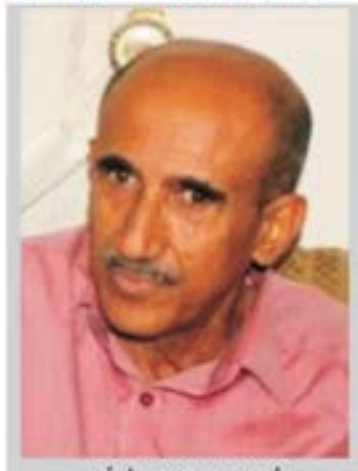

نجيب سعيد باوزير

في مدينة غيل باوزير التي أسّستْ فيها أول مدرسة وسطى في حضرموت وُلدَ نجيب سعيد باوزير عام ١٩٥٢م، وفيها نشأ وتلقّى دراسته الأولية. وبعدَ أنْ أنهى تعليمَه المتوسّطَ انتقل إلى مدينة المكلا لتلقّي التعليم الثانوي، ثم سافر إلى العراق للدراسة في كلية الهندسة بجامعة البصرة، التي تخرّج فيها عام ١٩٧٧م بدرجة البكالوريوس في مجال الهندسة المدنية.

وعلى الرغم من أن نجيب سعيد باوزير قد تخصص في الهندسة فهو مسكون باللغة والأدب، وله إسهامات مختلفة في النشاط الأدبي الثقافي في حضرموت، وذلك من خلال الكتابة في مجال المقالة الأدبية والشعر، وقد كتب أولى قصائده في فترة دراسته المتوسطة بالغيل، ونشر ديوانه الشعري الأول عام ١٩٨٣م في عدن بعنوان (حلم الشاعر).

ومثل كثير من خريجي مدارس غيل باوزير استطاع نجيب أن يصبح ضليعًا باللغة الإنجليزية، وأعجب بالأدب الإنجليزي، وله محاولات في ترجمة بعض القصائد من الإنجليزية إلى العربية. ومنذ مطلع هذا القرن شرع في ترجمة بعض الكتب المرتبطة باليمن وحضرموت بشكل خاص. ففي عام ٢٠٠٧م ترجم كتاب (اليمن .. أنمتها وحكامها وثوراتها) للمستشار البريطاني هارولد إنجرامز. ثم قام بترجمة كتاب زوجته دورين إنجرمز (أيامي في الجزيرة العربية- حضرموت وجنوب الجزيرة ١٩٣٤-١٩٤٤م)، وقبل نحو عام نشر له (مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر) ترجمة كتاب فان در ميولن (وجوه في بلاد العرب).

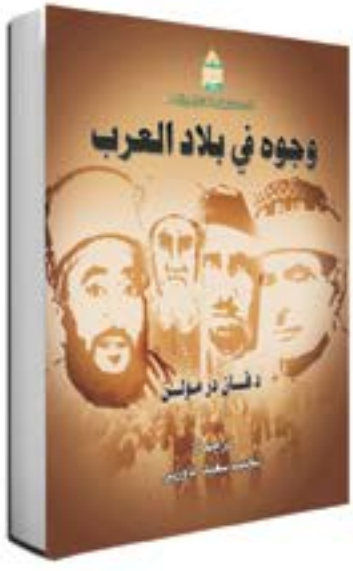

في ندوة سابقة حول الترجمة في حضرموت نظمها [مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر] في المكلا استعرض نجيب باوزير جوانب من تجربته الشخصية في الترجمة عن اللغة الإنجليزية إلى العربية، وتحدّث عن [آلية ضمان دقة الترجمة]، وذكر بعض العوامل التي يجب توافرها لدى المترجم الجيد، مثل: عشق اللغة والثقافة، وسعة الاطلاع، ووجود مكتبة عامرة بالكتب الثقافية واللغوية، لا سيّما المعاجم والموسوعات العلمية، بالإضافة إلى الذوق اللغوي الرفيع والأمانة في الترجمة.

ونؤكد أن ترجمات نجيب باوزير، الذي يمتلك خلفية ثقافية واسعة وعلى دراية تامة ببيئته الحضرمية، تمكّن من تجنّب الأخطاء التي وقع فيها المترجمون غير الحضارم، لا سيّما فيما يتعلق بأسماء الأعلام والأسماء المرتبطة بالبيئة الحضرمية التي تكثر في الترجمات التي قام بها عرب غير حضارم. فوفاء الذهبي التي قامت بترجمة [البوابات الجنوبية للجزيرة العربية] ترجمت مثلًا المنصب بـ[المنساب]، ومقابل اسم سيئون وضع خيري حمادي (صهيون) في ترجمته لـ[سنوات في اليمن وحضرموت]. وتجدُر الإشارة إلى أن الدكتور السوداني محمد سعيد القدّال قد استعان بعدد من المراجعين الحضارم لمراجعة ترجمته لكتابي فان در ميولن [حضرموت إزاحة النقاب عن بعض غموضها]، و[رحلة في جنوب الجزيرة العربية].

وفي الحقيقة، مقارنةً بترجمة كتاب [أيامي في الجزيرة العربية] تغيب في ترجمة [وجوه في بلاد العرب] التراكيب اللغوية التي تذكرنا باللغة الإنجليزية، والتي تبرز كذلك في ترجمته لكتاب [اليمن .. أنمتها وحكامها وثوراتها]. ويمكننا القول إن نجيب باوزير استطاع في ترجمته الأخيرة أن يرتقي بأسلوبه في الترجمة، ويكسبها السلاسة، التي تغيب في ترجماته السابقة وفي كتب كثير من المترجمين الحضارم والعرب بشكل عام. وقد تحدث نجيب باوزير في المقدّمة، التي وضعها لترجمته الأخيرة لكتاب فان در ميولن [وجوه في بلاد العرب]، وعن طريقته في ترجمة هذا الكتاب قائلًا: «حاولت أن أكون تلقائيًا وبسيطًا في الأسلوب، وهي الطريقة التي أتقنها المؤلف نفسه، وأعجبتني منه، وقد أظهرته أديبًا قادرًا على الصياغة السهلة الممتنعة باللغة الإنجليزية».

ومقارنة بما قام به كل من د. سعيد عبدالخير النوبان ومحمد سعيد القدال في ترجماتهما التي تحتوي على مقدمات تتضمن تقديمًا تفصيليًا لمحتوى النصوص المترجمة وكثيرًا من الهوامش والتعليقات- وهو ما يجعل منها [ترجمات علمية مهمشة]-، يرفض نجيب سعيد باوزير إضافة أي تعليقات أو هوامش في ترجماته، وقد سوّغ لذلك في مقدمته لترجمته كتاب [وجوه في بلاد العرب] قائلًا: «هذه المرة، ولأن الفصول يغلب عليها الطابع القصصي الذي يُفضّل معه الاسترسال في القراءة، تجنّبتُ أن أثقل الترجمة بالهوامش والتعليقات، إلا في حالات نادرة؛ إذا وجدت أنه لا بدّ منها، ويستطيع القارئ المهتم أن يبحث بنفسه حول أية إشارة تاريخية أو أدبية أو غير ذلك، تحتاج إلى البحث والتقصّي دون أن يقوم المترجم بدور المتعالم والموجه للقارئ في هذا الصدد. كما يستطيع القارئ أيضًا أن يتفهّم أن المترجم ما هو إلا ناقل لكلام المؤلف، وعليه أن يكون أمينًا في النقل مهما بدت بعض العبارات صادمة على نحو ما لمشاعر القارئ المسلم. وحتى العبارات العربية التي أوردها المؤلف بالحروف العربية الإنجليزية لم أشر إليها في الهامش». ص ١٤.

٢- تجربتي في الترجمة

بالنسبة لي، أودُّ أنْ أؤكدَ أنّ تخصّصي العامّ هو: آداب حديثة، والتخصص الدقيق: عربي فرنسي لاتيني. وفي الدراسات العليا تخصصت في الأدب العام والمقارن: عربي/ فرنسي. ومن أهم ميادين الأدب المقارن التي اخترت التركيز عليها: الترجمة وصورة الشعوب والبلدان في كتابات الآخر، ثم الدراسات الثقافية. وأقوم بتدريس جميع تلك الميادين في إطار الدراسات العليا في قسم اللغة العربية في كلية الآداب قسم اللغة الفرنسية جامعة عدن، وفي مركز عبد فاضل فارع للدراسات الإنجليزية والترجمة جامعة عدن.

ومنذ عام ١٩٨١م مارستُ الترجمة الشفهيّة كثيرًا مع عدد من المسؤولين والأساتذة والباحثين الفرنسيين في حضرموت وعدن وأبين ولحج. وبعيدًا عن الدخول في التفاصيل يمكنني أن أؤكد هنا أنّ الترجمة الشفهية الفورية أصعَبُ بكثير من الترجمة التحريرية، التي سأتحدثُ الآن عن تجربتي فيها بشيء من التفصيل.

ومنذ عام ١٩٨٠م قُمْتُ بترجمات تحريرية كثيرة ومتنوعة من اللغتين الفرنسية والإنجليزية. وفي البداية ترجمْتُ بعض القصص القصيرة وعددًا من الدراسات والأبحاث. لكن منذ تسعينيات القرن الماضي، بحكم تخصصي في الأدب العام والمقارن، وبتأثير إدوارد سعيد مؤلف كتاب (الاستشراق) والنقد الثقافي ودراسات ما بعد الاستعمار، ركزْتُ على ترجمة عددٍ من النصوص، التي تناولتْ حضرموت والجزيرة العربية بشكل عام في إطار مجال دراسة صورة الشعوب والبلدان في كتابات الآخر.

لهذا فهدفي من الترجمة ليس نقل النصوص الإنجليزية والفرنسية إلى اللغة العربية فقط، بل تحليل تلك النصوص ودراستها لإبراز الصورة التي رسمها الأخر لنا ولبلادنا، والتمييز فيها بين ما هو واقعي وما هو خيالي سرابي، لا سيّما أن جميع الغربيين يدّعُونَ - في الغالب - الدقّةَ العلمية والموضوعية عند كتابتهم عنّا. وأسعى كذلك إلى تبيان الدّوْر الذي قامت به الأحكام المسبقة ومرتكزات الخطاب الأيديولوجي الاستعماري في رسم ملامح تلك الصورة. وكلُّ ذلك تأثُّرًا بإدوارد سعيد ومنطلقات النقد الثقافي. وأحاول كذلك تحليل الأبعاد الجمالية والرومانسية للنصوص التي أدرسها. هذا ما قمت به مثلًا عند قراءتي لنصوص الرحّالة والأدباء الفرنسيين حول عدن. فهؤلاء الكتّاب، وبينهم شعراء وروائيّون وعلماء اجتماع وتُجّار، يسعون جميعُهم إلى إضفاء أبعادٍ جمالية وغرائبية على نصوصهم، وذلك بهدف ضمان تلقّيها من قبَل القارئ الغربي.

وهذا عكس ترجماتي للنصوص الأدبية فقد حرصْتُ دائمًا على أن أرفق بترجماتي الطويلة حول حضرموت واليمن والجزيرة العربية بشكل عام دراسات نقدية حول الطريقة، التي استخدمها الغربيون لتقديم صورة بلادنا في كتاباتهم، ولهذا تمزج جميع كتبي بين الترجمة والتحليل والدراسة، وذلك من أول كتابي الأول (عدن في كتابات الرحالة الفرنسيين)، مرورًا بـ(حضرموت في كتابات فريا ستارك)، و(الحضارم في الأرخبيل الهندي)، ثم (صورة اليمن في كتابات الغربيين)، و(المستكشف عبد الله فيلبي ورحلته إلى حضرموت)، ثم (جدة وعدن ومسقط في كتاب دي غوبينو ثلاث سنوات في آسيا).

وفي الغالب تتساوى في معظم كتبي المساحة المخصصة للترجمات مع المساحة المخصصة للدراسة. وقد ساعدني هذا الأسلوب على ممارسة نوع من الانتقائية داخل الكتب التي أترْجمُ منها. فكثير من تلك الكتب لا تتناول حضرموت أو الجزيرة العربية إلّا في جزء محدّد منها، وهو ما أقوم بالتركيز على ترجمته ودراسته. وهذا هو حال معظم كتب "فريا ستارك" الكثيرة حول الشرق الوسط، وكذلك كتب "عبد الله فلبي". ومن كتاب "أرثر دي غوبينو" (ثلاث سنوات في آسيا) لم أضمّنْ في كتابي الأخير (جدة وعدن ومسقط في كتاب دي غوبينو ثلاث سنوات في آسيا) إلا ترجمة ما له علاقة بالجزيرة العربية، وأكثر من نصف الكتاب يتناول رحلة المؤلف إلى إيران وآسيا الصغرى.

ومن ناحية أخرى أرى أنه لن يكون

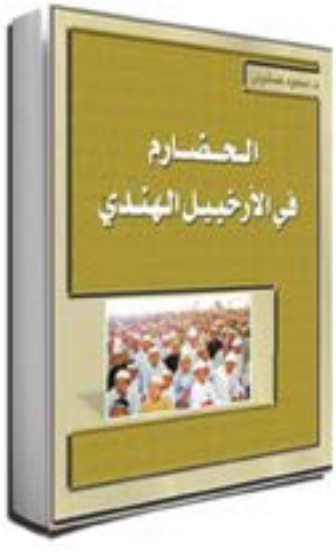

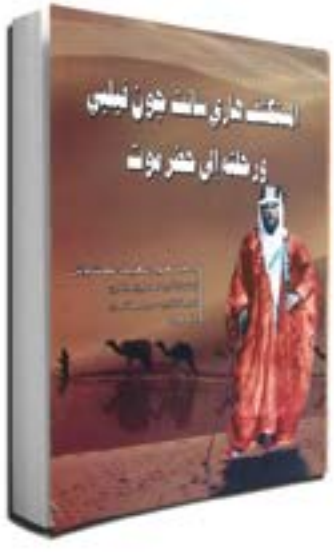

ممكنًا ترجمة كتاب "آرثر دي غوبينو" إلى العربية من غير تقديم دراسة مفصلة عن الآراء والمنطلقات العنصرية لمؤلّفه، الذي يقال إنّ أفكاره قد هيأتْ لظهور هتلر والنازية. وإذا كان نجيب سعيد باوزير قد استطاع أن يترجم كتاب "دورين انجرامز" من غير هوامش وتعليقات، أرى أنه لن يستطيع ترجمة ما كتبته عن بعض نساء بعض الفئات في حضرموت في كتاب ذكرياتها، التي قامت بدراسته الباحثة اللبنانية "حميدة نعنع" من غير تدخُّل. ولا أعتقد أنه من غير الممكن قبول ترجمة ما كتبه هانس هيلفريتس عن الصيغر الحضارم أكلة لحوم البشر من غير القيام ببعض الملاحظات. وكذلك الحال بالنسبة لما كتبه حول تقديم الأربطة في تريم امرأة لكل واحد من طلبتها.

وفي هذه المرحلة أرى أنه من الصعوبة بمكان ترجمة جميع الكتب، التي تحتوي على جزء بسيط منها عن حضرموت، وسيكون من الأنسب ممارسة الانتقاء الذي يمارسه العمانيُّون، والاكتفاء مؤقّتًا بترجمة ما يتعلق بحضرموت في كتب بعض الرحالة.

وإذا كان نجيب سعيد باوزير قد اضطر للحصول على ترخيص لترجمة كتاب (وجوه من بلاد العرب)، الذي لا يحتوي إلا على فصل واحد من عشرة فصول عن حضرموت، أؤكّد أنّ الأسلوب الانتقائي، الذي اتّبعْتُهُ في الترجمة، قد ساعدني على تجنُّب البحث عن إذْن رسميٍّ من المؤلف الذي أترجم له.

خامسًا: خمسة مترجمون حضارم:

١- محمد بن هاشم بن طاهر مترجمًا:

ولد محمد بن هاشم بن طاهر العلوي عام ١٨٨٣م بقرية مسيلة آل شيخ، التي تبعد حوالي ستة أميال جنوب مدينة تريم. وفي المسيلة وتريم وسيئون تعلّم على أيدي أشهر علماء عصره، مثل عبد الله عمر الشاطري، وحسن علوي بن شهاب، ومحمد عثمان بن يحيى. وبسبب ميوله النهضوية اختار الشابُّ ابن هاشم مغادرة حضرموت في مطلع عام ١٩٠٧م إلى جاوا (إندونيسيا)، التي كانت محطة لهجرة كثير من الحضارم. وفيها ولبضعة شهور فقط رضي محمد أن يجرّب العمل بالتجارة، لكنه سرعان ما تركها والتحق بمهنة التدريس، وشرع في تثقيف نفسه وثابر على قراءة كل ما تقع بين يديه من

محمد بن هاشم بن طاهر

كتب ومجلات. وتعلم اللغة الملاوية واللغة الإنجليزية. كما لم تمنعه مهامه التعليمية والتربوية من الشروع في تحرير المقالات الصحفية، التي تتناول مختلف الموضوعات. وقد ظهرت مقالاته أولًا في مجلة (المنار) المصرية، ثم في صحيفة (الإصلاح) التي أسسها المرحوم كرامة سعيد بلدرم في سنغافورة سنة ١٩٠٨م. وفي سنة ١٩١٤م أصدر في مدينة بتافيا (جاكرتا) جريدته الخاصة: (البشير) باللغتين العربية والملاوية، وكذلك مجلة (مرآة الإسلام) بالملاوية. ثم أصبح رئيسًا لتحرير جريدة (الإقبال) في سورابايا سنة ١٩١٦م لصاحبها المرحوم محمد سالم بارجاء. وفي سنة ١٩٢٤م تولّى رئاسة تحرير صحيفة (حضرموت)، التي أسسها عيدروس المشهور بمدينة سورابايا. وفي عام ١٩٢٦م عاد بن هاشم إلى تريم ليشارك في النهضة التعليمية في حضرموت.

ومن مظاهر انفتاح محمد بن هاشم على الآخر وتقبُّله له مسارعته في استقبال جميع الوفود الأجنبية التي قدمت إلى تريم خلال وجوده فيها. وقد أشاد معظم الرحالة الغربيين الذين زاروا وادي حضرموت خلال الثلاثينيات من القرن الماضي بشخصية العالم الأستاذ محمد بن هاشم وذكائه في كثير من كتاباتهم. كما استفاد المستشار البريطاني هارولد إنجرامس كثيرًا من محمد بن هاشم، الذي -بفضل إتقانه للغة الإنجليزية- قام بترجمة للمحاضرة الطويلة التي ألقاها إنجرامس عن (الأمان في حضرموت) باللغة الإنجليزية أمام أعضاء الجمعية الجغرافية الآسيوية الملكية بلندن في ٣٠ يوليو من سنة ١٩٣٨م. وقد تمّ نشر تلك الترجمة في أربعة من أعداد مجلة (الإخاء) التريمية: في العددين (السادس) و(السابع): أغسطس وسبتمبر ١٩٣٩م، والعدد (الثامن) مارس ١٩٤٠م، والعدد (الثاني عشر) يوليو ١٩٤٠م. وقد ضمّنَ محمد أبوبكر باذيب كتابه (من مقالات الأستاذ محمد بن هاشم العلوي، دار الفتح للدراسات والنشر، عمّان، الأردن ٢٠٠٥م) تلك الترجمة. وبشكل عام تبدو لنا ترجمة ابن هاشم لمحاضرة إنجرامس جيدة، لكنها لا تتميّز بالجزالة، التي نجدها في الكتب والمقالات العربية، التي ألّفها الأديب محمد بن هاشم. وكمثال على أسلوبه

في تلك الترجمة نقرأ منها ما يأتي: «ظهر لنا في [المكلا] أنه من المتعذّر أنْ نستطيع إنجاز أعمال كثيرة نافعة في جوٍّ كهذا، وكان نصيبُنا حسنًا؛ إذ أتيح لنا السفر إلى الداخلية عن طريق الشحر، والشحر بنوع ما أحسن من المكلا. ولكن بها كما في أختها: فقد لقينا بها أصدقاء قدماء يخافون أن يأتوا إلينا، وكلٌ يجبُنُ عن الكلام إلّا في الظروف السرّيّة. وأخيرًا توجّهنا على سيارة إلى المعْدي، حيثُ قد عملتْ لنا الترتيبات اللازمة من قبيلة بحسني، على أن يصحبونا طول بلادهم إلى النقطة التي تصل إليها السيارات القادمة من حضرموت».

ويبدو لنا أن ابن هاشم لم يُوفّقْ كثيرًا في استخدامه لكلمة (المحافظين) في سياق تقديم إنجرامس لشخصية أبي بكر الكاف، حينما كتب: «السيد أبوبكر بن شيخ الكاف رَجُلٌ مُتَديِّنٌ تديُّنًا صحيحًا، مقرونًا بفهم واسع، ويخالطه شيء يسمى تعصُّبًا دينيًا، وتديُّنُه الشخصيُّ جديرٌ بأن يَغبطَهُ عليهِ كلُّ أحد؛ لأنه لم يكُ من المحافظين على الأشكال والرسومات، ولكنّه لم يزلْ مدقّقًا في المحافظة على الصلوات المكتوبة، والصيام المفروض؛ لأن ذلك أصبح كالفطري له».

كما تحتوي مجلة (الإخاء) مقالة حول (قمة ايفرست)، تُقدّمُ على أنّها تعريبٌ قام بها عن الإنجليزية، لكنْ من اللافتِ أنّه لا يتردّد في تضمين النص (المعرب) مقارناتٍ بين المسافات في الهند والمسافات بين مدينة تريم وقرية (مسيلة آل شيخ). ومن المعلوم أن روبيرت سرجنت قد خصّ المؤرخ العالم محمد بن هاشم بتقديم مميّز في كتابه (حول مصادر التاريخ الحضرمي).

وتوفي محمد بن هاشم عام ١٩٦٠م.

٢- محمد عبد القادر بامطرف مترجمًا:

ولد محمد عبدالقادر بامطرف في الشحر يوم الجمعة ٢٥ يونيو ١٩١٥م. وفيها تلقّى دراسته الأوليّة في مدرسة (مكارم الأخلاق) الابتدائية بين عامَيْ ١٩٢١م و١٩٢٤م. ثم انتقل إلى عدن ليكمل فيها دراسته الثانوية عام ١٩٢٤م. وفي نهاية عام ١٩٣٤م بُعِثَ إلى لندن وتحصّل فيها على شهادة الدراسة التجارية من غرفة التجارة عام ١٩٣٥م. كما تلقّى دورة في الاختزال والطباعة السريعة والترجمة في جامعة كامبردج.

محمد عبدالقادر بامطرف

وفي عام ١٩٣٧م التحق بالعمل في شركة التاجر الفرنسي "أنتونين بس" بالحديدة مترجمًا ومحرّرًا للرسائل التجارية. وبين عامَيْ ١٩٣٧م و١٩٣٨م عَمِلَ مترجمًا مع سيف الإسلام الحسين في أثناء زيارته إلى بريطانيا.

وبعد أن وقّعتْ بريطانيا اتفاقية الاستشارة مع السلطنة القعيطية عام ١٩٣٧م، اختارته للعمل مترجمًا في المستشارية، التي ظلّ يعمل بها حتى عام ١٩٤٩م. وفي عام ١٩٥٠م انتقل عمله إلى الحكومة القعيطية واستمر موظفًا فيها حتى عام ١٩٦٣م.

وللمؤرخ الأديب محمد عبدالقادر بامطرف عددٌ من الدراسات والكتب الأدبية والتاريخية المهمة. وله كذلك إسهامات في الصحافة الحضرمية والعدنية. كما شارك في كثير من الندوات. وفي نهاية السبعينيات قام بمراجعة وتدقيق الترجمة التي قام بها الأستاذ سعيد دحي لكتاب المستشرق البريطاني سارجنت: (نثر وشعر من حضرموت). وتوفي في يوليو ١٩٨٨م.

٣- عبدالله سالم بن مرعي مترجمًا:

في يناير من عام ١٩٤٢م، ولد عبدالله بن سالم بن مرعي في إندونيسيا، التي هاجر إليها والده مثل كثير من الحضارم، ومثل رائد الصحافة الحضرمية، المترجم محمد بن هاشم، تعلّم اللغة الإنجليزية قبل أن يأتي إلى سيئون ويستقرّ فيها عام ١٩٦٠م. ومنذ ذلك الحين التحق بالعمل مترجمًا في (البنك الشرقي)، ثم في مكتب الأمم المتحدة، ثم في مشروع ثمود، قبل أن يتفرّغ للترجمة وتحرير الرسائل باللغة الإنجليزية لمعظم الشركات والمؤسسات التجارية في وادي حضرموت. وما يزال حتى اليوم يقدّمُ خدماته في مجال الترجمة للبعض منها. ويؤكّد أنه منذ استقراره في سيئون، حرص على الاشتراك في عدد من الصحف والمجلات البريطانية والأمريكية للارتقاء بمستواه في اللغة الإنجليزية، وبشكل خاص التجارية.

٤- سعيد عبدالخير النوبان مترجمًا:

لن يختلف اثنان في أنّ الأستاذ الدكتور سعيد عبدالخير النوبان كان - رحمه الله - أحد أبرز الشخصيات التربوية والأكاديمية والعلمية في اليمن. فهو من خلال عمله في مختلف المستويات التعليمية والقيادية في وزارة التربية والتعليم، أسهم في وضع اللبنات الأولى في الصرح التربوي في المحافظات الجنوبية من اليمن. ومن المعلوم أنه في أثناء تولّيه أعلى منصب قيادي في تلك الوزارة قد رفض

الانصياع لكثير من المزايدات والهتافات والإجراءات الحزبية والسياسية، التي اتَّخذتْ بعدَ تنحيه من الوزارة وأثَّرتْ سلباً في مستوى التعليم الأساسي والثانوي ومُخرَجاته لسنوات عدة.

وبعد انتقاله إلى إطار التعليم الأكاديمي شهدتْ جامعة عدن خلال سنوات رئاسته لها تطوُّراً كبيراً في مختلف المستويات الإدارية والعلمية والبحثية؛ فهو قد أسهم في وضع جزءٍ كبير من الهياكل الإدارية للجامعة ولوائحها ونظمها الأكاديمية، التي ساعدتْها على اكتساب شهرة طيبة على المستويين العربي والعالمي منذ مطلع الثمانينيات. وحتى يوم وفاته، ظلَّ -بالإضافة إلى عمله مستشاراً لمجلس جامعة عدن- يواصل عطاءَه باقتدار في إطار قسمه العلمي: قسم التربية وعلم النفس في كلية التربية عدن؛ حيث بذل جهوداً كبيرة من أجل إيجاد قاعدة سليمة لدراسات الدكتوراه، التي بدأت في هذا القسم منذ بضع سنوات.

وبالإضافة إلى إسهاماته تلك، دأب الأستاذ د. سعيد عبدالخير النوبان على كتابة الأبحاث العلمية لا سيَّما في مجالَيْ التربية والتعليم العالي. كما أسهم في تأليف كتابَيْ (التربية والمجتمع) و(تطور التعليم العالي في اليمن).

وبدأ سعيد عبدالخير النوبان العمل في مجال الترجمة منذ خمسينيات القرن الماضي حينما عمل في ضمن طاقم إدارة مشروع البعثات الحضرمية برفقة قحطان محمد الشعبي وأنور خالد. ثم قام الأستاذ سعيد النوبان بنقل عدد من النصوص التربوية والتاريخية المرتبطة ببلادنا من اللغة الإنجليزية إلى اللغة العربية. فهو قد قام في الثمانينيات من القرن الماضي، بالاشتراك مع أحمد زين العيدروس ومسعود عمشوش، برفد المكتبة اليمنية والعربية بكتاب تاريخيٍّ مرجعيٍّ في غاية الأهمية؛ إذْ إنَّه يتضمَّن أوَّلَ ترجمةٍ عربيَّةٍ لمجموعة من (الوثائق والمعاهدات البريطانية-اليمنية، دار الهمداني للطباعة والنشر، عدن ١٩٨٤م).

وفي مطلع الثمانينيات صدرت الطبعة الأولى من كتاب (حول مصادر التاريخ الحضرمي)، الذي يحتوي على

سعيد عبد الخير النوبان

ترجمة قام بها د. سعيد النوبان لخمس دراسات مهمة للباحث المستعرب البريطاني "روبيرت سارجانت". في مقدمة هذا الكتاب، الذي يشكِّل أوَّلَ إصدار عن جامعة عدن، يتناول النوبان أهمية الترجمة والدور الذي ينبغي على الجامعة أن تضطلع به للنهوض بها والإشراف عليها وتوجيهها؛ فهو يكتب في مقدمته: "إنَّ الاهتمام بمسألة الترجمة العلمية ينطلق من اقتناع الجامعة بأنها الصرح الأكاديمي، الذي يفترض أن يخطط لمجموعة الدراسات، التي ترى ضرورة ترجمتها.. ولعل في التاريخ العربي الإسلامي خير ما نستدل به على أهمية الترجمة في التقدم العلمي. ففي العصر العباسي اهتمَّت الخلافة بالترجمة من تراث الأمم، التي سبقتهم في فنون احتاجوا إليها في زمانهم". وفي تلك المقدِّمة يؤكد النوبان أيضًا على ضرورة اطلاع الباحث العربي اليوم على الكم الكبير من الدراسات والنصوص المختلفة التي كتبها الأجانب عن بلادنا وعلى إسهامه في «نقل بعضه إلى طلاب العلم والمعرفة أو تعريفهم به في أقلِّ تقدير».

ومن خلال قراءتنا للنصوص التي يحتويها كتاب (حول مصادر التاريخ الحضرمي) نتبيَّن أنَّ عدداً كبيراً من المخطوطات التي يقدمها الدكتور R. B. Serjeant، بشكل علمي في الدراستين الأولى والثانية من الكتاب (مادة تاريخية عن جنوب الجزيرة العربية)، تؤرِّخ لليمن لفترة طويلة، وتقنعنا بضرورة قيامنا بالبحث الجادِّ عن تلك المخطوطات اليمنية، الموزَّعة في عدد كبير من المكتبات العالمية، أو التي لا تزال "ضائعة" داخل اليمن.

وفي عام ١٩٩٩م أصدرتْ دار جامعة عدن للطباعة والنشر ترجمة قام بها أ. د. سعيد النوبان بالاشتراك مع علي محمد باحشوان لكتاب (تاريخ العربية السعيدة "اليمن")، الذي ألَّفه في منتصف القرن التاسع عشر الضابط البريطاني بلايفير F.L.Playfair.

ويرى المترجمان أن أهمية هذا الكتاب تنبع ليس فقط من المادة التاريخية، التي يتضمّنها، لكنْ أيضًا من طريقة تقديمه لتلك المادة، «فمعالجة الكاتب في بعض فصول الكتاب هي معالجة خبير بصير عليم بما يدور في الخفاء كهدف استراتيجي للسياسة البريطانية في المنطقة. فهو يحدّد أبعاد تلك السياسة ومراميها، وما يجب أن تتمّ من تدابير تَضْمَنُ السيطرة البريطانية وإقصاء أية قوة خارجية، أخرى تحاول تثبيت أقدامها في المنطقة».

وبما أنّ د. سعيد النوبان، أستاذ التربية المقارنة في جامعة عدن، قد ظل يسعى إلى الاطلاع على التجارب التربوية المتنوعة في البلدان المتطورة وفي بلدان العالم الثالث، التي تعيش ظروفًا شبيهة بظروفنا فقد قام سنة ٢٠٠١م بنشر ترجمة (المدرسة: إدارةً وتنظيمًا). وهذا الكتاب الذي ألّفتْهُ باللغة الإنجليزية الأستاذتان "ر. ن. سافيا" و "ب. د. شايدا"، يُعَدُّ من أهم المراجع في مادة الإدارة التربوية في كثير من الجامعات في العالم، وكذلك في كلية التربية جامعة عدن. وفي السنة نفسها أصدرتْ دار جامعة عدن للطباعة والنشر كتاب (حضرموت ١٩٣٤-١٩٣٥م). وهو ترجمة قام بها الأستاذ النوبان لـ (تقرير حول الحالة في حضرموت سياسيًا واجتماعيًا واقتصاديًا)، الذي أعده المستشار البريطاني "ويليام هارولد إنجرامس" للإدارة البريطانية تمهيدًا لفرض معاهدتي الاستشارة البريطانية على السلطنتين القعيطية والكثيرية في نهاية الثلاثينيات من القرن العشرين.

وبالإضافة إلى تلك الكتب قام الأستاذ سعيد النوبان بترجمة عددٍ من الدراسات الأخرى ونشر بعضها في (مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية)، التي ظل يرأس تحريرها حتى مطلع وفاته عام ٢٠٠٦م.

٥- سعيد محمد دحي مترجمًا:

ولد سعيد محمد دحي عام ١٩٤٨م بمدينة المكلا، ونشأ تحت رعاية جدّه الشيخ المقدّم عبد الله سعيد دحي. وفي عام ١٩٥٦م التحق بالمدرسة الابتدائية بالمكلا، وفي عام ١٩٦٤م كان دحي في ضمن أفضل خمسة طلاب أوفدتْهم إدارة المعارف

سعيد محمد دحي

القعيطية للدراسة الثانوية في السودان. وهناك كان سعيد من الطلّاب المتميّزين والمتفوّقين في اللغتين العربية والإنجليزية. واستفاد من إقامته في السودان لتوسيع معارفه وثقافته العامة.

كما شارك بفعالية في كافة النشاطات الطلابية؛ بوصفه أحدَ القيادات الطلابية لرابطة الطلبة الحضارم الدارسين بالسودان آنذاك.

عاد سعيد دحي إلى المكلا بعد إكمال دراسته الثانوية في السودان عام ١٩٦٨م، فعمل مدرّسًا في إعدادية البنين بالمكلا، وكان في الوقت ذاته يُعِدُّ برامجَ أدبيّةً متميّزةً للإذاعة المحليّة بالمكلا. وفي عام ١٩٧٠م سافر إلى عدن؛ ليكون في ضمن أوّل دفعةٍ من الطلبة الحضارم، الذين التحقوا بقسم اللغة الإنجليزية في كلية التربية عدن، التي افتُتِحَتْ ذلك العام، وقد تحصل على شهادة البكالوريوس في اللغة الإنجليزية وآدابها في عام ١٩٧٤م.

وبعدَ تخرُّجه مباشرةً عمل سعيد دحي في قسم الترجمة بمركز البحوث التربوية بعدن، ثمّ عُيِّنَ معيدًا بجامعة عدن وتولّى تدريس اللغة الإنجليزية في كلية التربية في عدن والمكلا. وفي الفترة من ١٩٧٤م حتى ١٩٧٩م مارس سعيد دحي الكتابة في مجال الأدب والشعر والترجمة. كما عمل محرّرًا في مجلة (التربية الجديدة) التي كان المركز يصدرها.

وخلال تلك الفترة كرّس سعيد دحي جزءًا من وقته لترجمة كتاب Prose & Poetry from Hadramaut (شعر ونثر من حضرموت) للمستشرق البريطاني روبرت سارجنت. وقد قام فرع المركز اليمني للأبحاث الثقافية بالمكلا بطباعة كتاب نثر شعر من حضرموت عام ١٩٨٠م بالاستنسل. وطبع الكتاب في بيروت قبل خمس سنوات.

وفي عام ١٩٧٩م سافر سعيد دحي إلى دولة الإمارات العربية المتحدة، وعمل هناك مترجمًا ومحرّرًا في صحيفة (الاتحاد الإماراتية)، ثم سكرتيرًا لمجلة (الدفاع الخليجي) حتى وفاته وكان، يتردّد على المكلا بين حين وآخر، وانتقل سعيد دحي إلى رحمة ربه في الثالث من ديسمبر ٢٠٠٠م إثر نوبة قلبية حادة في مقرّ إقامته في أبو ظبي بدولة الإمارات العربية المتحدة.

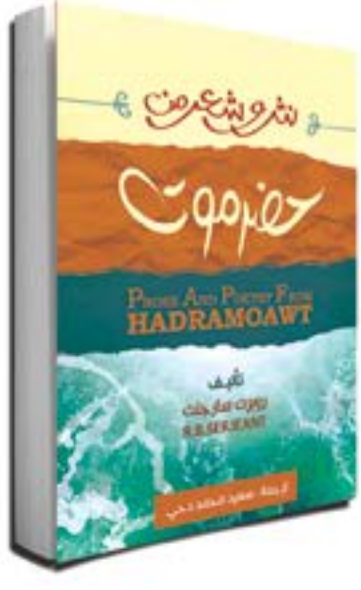

53
العدد (7)
يناير
مارس
2018م

(٣ - ٤)

ملاحظات على :

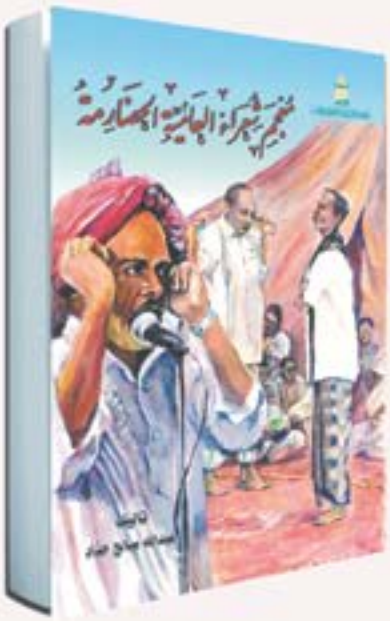

مُعجم شُعراء العامية الحضارمة

تأليف: عبدالله صالح حداد

القسم الثالث: الملاحظات الشعرية

المقدمة:

تمثل الملاحظات الشعرية العصب الأساسي للمعجم، فالمادة الأولى للمعجم هي الشعر، والشعر يتأثر كثيرًا بأي تغيير في العبارة، سواءً بالزيادة أم بالنقص أم بالتقديم والتأخير، وربّما يتحوّل بيت شعري بشيء من هذا التغيير تحولًا يسلبه جماليته بل يكسبه ثقلًا، ويخرجه من دائرة الشعر، ويدخله في دائرة الكلام الممل.

وقد جنى كثير ممّن تصدّوا لجمع الأشعار الشعبية، أو الكتابة عنها، جناية كبيرة، وكنت أتمنّى لأخي عبدالله أن ينزّه معجمه من الوقوع في ما يعيب الشعر، سواءً أكان خللًا وزنيًا أم خللًا في القافية، أم اختيارات لا تسري فيها روح الشعر الدفاقة.

قسمت الملاحظات الشعرية على أقسام ثلاثة: منها ما يختص بالأوزان وخللها، ومنها ما يختص بالقافية، ومنها ما يتصل بنوعية الشعر وقيمته الدلالية.

أ.د. عبدالعزيز سعيد الصيغ

أولًا: الأوزان:

الأوزان هي موسيقى الشعر، يذهب رونق الشعر بذهابها، وأكثر ما يشكو الشعر من فقدان هذه الموسيقى، وكثير من الشعر يرويه الناس فتجده باردًا لا إمتاع فيه ولا نغم بسبب تغيير في بنية البيت بإبدال كلمة، أو تقديم كلمة أو تأخيرها، أو حذف كلمة أو غيرها، وقد فصلت التغييرات بحسب الأسباب التي وجدتها على النحو الآتي:

الخلل بسبب الحذف:

يحدث الخلل بسبب الحذف، سواء أحذف حرف، أم كلمة أم أكثر من كلمة، فمن حذف الحرف ما جاء في بيت الشاعر عبدالرحمن باهرمز، وهو من المربوع:

رحمة الله على من مات في حصن سمعون
رحمة واسعة والعفو مرجو ومسهون

والحذف هنا دقيق جدًا، والخلل دقيق لا يتبينه إلا من تمرس في معرفة أوزان الشعر، وموضع الخلل هنا في الشطر الثاني في كلمة (رحمة) التي صحتها (رحمته) وبها يكون الوزن مستقيمًا، فهذه الهاء الضمير أدى حذفها إلى اختلال الوزن.

ومن حذف الحرف قول الشاعر سعيد بخضر من بحر (البسيط) من بحور الفصحى:

نا داخل الباب ما نا برع المردم
قائم على الشغل ملقي زام يتبع زام
با سباع ما هو كذا بالكذب عا يزعم
القاصرة ما بغينا بها نلتام [١٢٠]

والشطر الثاني من البيت الثاني موضع الخلل، في عبارة (بغينا) التي صحتها (بغيناها)، وقد حذف حرفان هما الهاء والألف (ها)، والبيت بعد التصحيح:

القاصرة ما بغيناها بها نلتام.

ومن حذف الحرف أيضًا ما جاء في شعر الشاعر أبي سالم من بحر (المخموس):

قال بو سالم صبوحي خمستعشر قوصرة
والضحى سبعة عقود
با لقي له دهن صح مول المعصرة
يا سخيفين العقول [١٢١]

والخلل في الشطر الأول من البيت الثاني وتمامه على النحو الآتي:

يا لقي له دهن لا قد صبح مول المعصرة

يا سخيفين العقول

والحذف (لا قد) أو ما هو في زنته، وقد أكملت النقص بهاتين الأداتين لأنهما تسدان الوزن والمعنى، ويمكن أن يكون البيت جاء بغير هذا، وإنما أردت أن أوضح المحذوف.

وهناك خلل آخر في قافية البيت الأول حيث انتهى البيت الأول بالدال في حين انتهى البيت الثاني باللام، والأغلب أن الكلمة في نهاية البيت الأول هي (عجول) وليست (عقود) وبذلك يستقيم المعنى والقافية.

ومن حذف الحرف إلى حذف الأداة كما حدث في البيت الذي حذف منه أداة الاستثناء (إلا) الزائدة في المعنى للشاعر أحمد باسويد وهو من بحر (البسيط) في الفصحى:

يا محسن القرش حين القبض في يدي

وان قده في البيت شوفه كما القارة (١٢٢)

والشطر الثاني ناقص وهو في حالة تمامه هكذا:

وان قده في البيت شوفه إلا كما القارة.

ومن حذف الحرف ما حدث في الشطر الآتي من بحر (المثمون):

ونعم سيتون فيها الأنس حازت كل فن (١٢٣)

وتصحيح الشطر هكذا:

ونعمها سيتون فيها الأنس حازت كل فن.

وواضح أن الذي حذف هو (الهاء والألف)، ومثله الحذف في قول الشاعر سالم رزق الله:

لا لا تهملونه وابحثوا عن سبب معقول (١٢٤)

الذي حذف منه المقطع الصوتي (له) والشطر هكذا:

لا لا تهملونه وابحثوا له عن سبب معقول.

ومن ذلك أيضًا قول الشاعر محفوظ العطيشي من (مجزوء بحر المسدوس)(١٢٥):

سعيد حود لا تغرك الدنيا

عمالك يا نجيبك في خلا خالي (١٢٦)

وبعد اليوم عادك يا تدور لي

ونا قايض وطالب عا تقول الباب

والخلل في الشطر الأول من البيت الأول، وينبغي أن يكون هكذا:

سعيد احود لا لا تغرك الدنيا

بتكرار الحرف (لا)، وشيء آخر هو زيادة همزة قبل الاسم حمود حيث غيابها يؤدي إلى انكسار الوزن.

ومنه قول الشاعر سعيد زحفان من بحر (البسيط) في الفصحى:

بقدر الله ما شي حال يا نجرب

ولعاد شي نوم نخزل اخيك عالديلاب (١٢٧)

والحذف في كلمة (بقدرة) التي سقطت منها التاء المربوطة.

مؤلف الكتاب عبدالله صالح حمّاد

ومن حذف الحرف أيضًا ما حدث في البيت الشهير للشاعر علي بن حسن العطاس من بحر المربوع:

بن حسن قال من بايشترح يشترح

والنار ما تحرق الا حيث تنطرح (١٢٨)

ولا يستقيم الوزن إلا بعودة المحذوف (ما) بعد (حيث).

ومن حذف الحرف ما جاء في شعر الشاعر محمد عبد الخالق بن طاهر من بحر (مجزوء المثمون) (١٢٩) الذي يقول فيه:

قلدت باب الشعر ما لي فيه يد

ما مدها عاللحمة المغفونة

تلحق خلافي لي ينوشون العدد

والقلت لي فيه الخمج يردونه

قال انتا ملقيك يا صاحب سند

لا طقت تطلق رجل المرصونة (١٣٠)

حيث حذفت (الكاف) من كلمة (رجلك).

ومن حذف الحرف أيضًا ما جاء في شعر الشاعر ناصر سالم بن حيمد الذي يقول من بحر المربوع:

ما تحي طامة سوداء من البحر الاطم

يا تصبحك يا حصن القبيلة مهدم (١٣١)

فقد ذهب حرف من كلمة (الالطم) وهو (اللام) مما أوجد خللاً وزنيًا واضحًا.

ومن حذف الكلمة ما ورد في بيتي الشاعر عمر باعطوة من بحر (الهزج الفصيح التام):

أبو ناصر يقول العز مرفوع

ومن رام العلا ينفق ضماره

ويصبر عالظما والجوع

ليدا يعتلي رأس المنارة (١٣٢)

فقد حذف كلمة (الحر) من الشطر الأول للبيت الثاني، وقد أورد بامطرف البيتين في ميزانه (١٣٣).

وأخيرًا من الخلل الوزني الناتج عن الحذف في شعر الشاعر عبود الفتنيني من بحر (مجزوء المثمون) في البيت الآتي الذي حذفت منه كلمة ربما تكون (جم):

من صلح التربة ومن فيها عفر

واليوم قدها زاهية بالسبول (١٣٤)

والبيت في وضعه الصحيح يكون الشطر الثاني هكذا:

واليوم قدها زاهية جم بالسبول.

الخلل بسبب الزيادة:

الزيادة كالحذف تخل بوزن البيت، وقد تعددت الزيادات التي أدت إلى اختلالات في الأوزان، منها ما يكون بزيادة حرف أو كلمة أو أكثر من كلمة، فمن زيادة الحرف البيت الآتي للشاعر سعيد بالحاف من (مجزوء بحر المثمون):

ما قد قط شدوا للرحيل أصلا

ولو سلوني ما سلوت عنهم (١٣٥)

والزيادة هنا حرف التحقيق (قد)، ولو حذف لصح البيت هكذا:

ما قط شدوا للرحيل أصلا

ولو سلوني ما سلوت عنهم

وفي الشطر الأول ملاحظة فالمعنى يقتضي أن تكون الكلمة (رحلا) بدلا من

(وصلا) وربما كان الشطر: أما قط شدوا للمسير رحلا).

ومنها البيت الشهير لسالم سعيد بامحيسون الشاعر المعروف، حين ردّ على الشاعر سعيد هادي الشنظوري ويردّده الكثيرون بزيادة، ولا يتنبهون لهذه الزيادة، ولتتضح الصورة نذكر بيت سعيد هادي الذي وجهه لبامحيسون، وهو من (السريع)(١٣٦) من بحور الفصحى:

سعفت يا سالم وبا لقيك صيم

جيت العرب عا قطع فافه

فرد عليه بامحيسون بالبيت الذي ذكر في معجم حداد:

غشيم يا ود هادي واصرك الا غشيم

هذا حق والأ سياقة(١٣٧)

وكلمة (غشيم) الأولى زائدة والشطر الصحيح هكذا:

يا ود هادي واصرك إلا غشيم.

ومن الزيادة ما حدث في شعر الشاعر أبو علي بانافع الذي وجهه إلى السلطان عوض بن عمر القعيطي من (مشطور بحر المثمون):

بدلت أنس الشحر وفرحها إلى مأتم حدادي

ما تستحي عادك تخرج شخص في الساحة ينادي

ويقول تاحكم الدولة على الرعوي يجادي(١٣٨)

حيث جاء البيت الثالث بزيادة (تاء مربوطة) فتحولت الكلمة وهي (الدول) من الجمع إلى الإفراد.

ومن الخلل المتولد من الزيادة ما حدث في شعر الشاعر صالح عبدالرحمن المفلحي من بحر (مجزوء البسيط):

رسول بلغ خلاني السلام

لمن لم عهد في حفظ الولاء

إذا تذكرتهم عل مني المنام

وحرم النوم طرفي ما غفا(١٣٩)

وقد زيدت في الشطر الأول من البيت الثاني كلمة (مني).

ومن الزيادة أيضًا ما جاء في شعر الشاعر عبد بن محمد العامري الذي جاء على بحر البسيط:

لا فلح قال شاعر في عطاء الشور

لي قال له بع قنابيك وصلح بيوله

بغضوه الطرب بعض العرب لي يشهدون الزور

قالوا له يصلح سم وهو يطرح كالنجو في التوابر(١٤٠)

والشعر فيه زيادة في الشطر الأول من البيت الثاني وهي كلمة (الطرب) التي إذا حذفت استقام البيت، وفيه حذف في الشطر الأول من البيت الأول وهو (ما) قبل الفعل (فلح) ولو أعيدت الكلمة لاستقام وزن الشطر.

الخلل بسبب إبدال كلمة:

وقد يكون الخلل الوزني بسبب إبدال كلمة مكان كلمة كما حدث في أبيات متعددة، منها البيت الذي نسب إلى الشاعر عبدالله البسري من بحر (المخموس) الذي يقول فيه:

رب عوضنا بعائض هت لنا واحد بديله

الذي يعرف شروط الحكوم هي والقوانين(١٤١)

وقد تغيرت كلمة (المحكمة) وهي الكلمة المناسبة معنى ووزنا إلى كلمة (الحكوم).

والبيت الذي نسب إلى الشاعر عبدالله أحمد مخرج أبو ريس وهو من مجزوء المخموس الذي يقول فيه:

عادنا من نار حمر با شرب

لا عبارة عالجواي والعتوم(١٤٢)

وقد تغيّرت كلمة (حمراء) إلى كلمة (حمر).

ومن ذلك أيضًا تغيير كلمة (غائر) إلى كلمة (غار) في بيت الشاعر عبدالله ناصر بن هرهرة، من بحر (مجزوء المخموس)، وأيضًا كلمة (أمواجه) التي تغيرت إلى (موجه) مما أخل بوزنه والبيت هو الآتي:

قال ابن ناصر بأبياتي بديت

من بحر غار لموجه دواه(١٤٣)

ومن ذلك أيضًا ما جاء من تغيير في بيت الشاعر حسين أحمد الحامد من بحر (المثمون):

لو فتشوا قلبي لما حصلوا غير المحن

من طولة الغربة وشوقي للأحبة والوطن(١٤٤)

والذي حدث فيه حذف وإخلال، فقد حذف حرف الجر والضمير (به) وكذلك حذفت جملة (وجدوا) وحل محلهما جملة (حصلوا) فجاء البيت على النحو السالف:

والبيت قبل التغيير والحذف، وفي حالته الوزنية السليمة:

لو فتشوا قلبي لما وجدوا به غير المحن

من طولة الغربة وشوقي للأحبة والوطن

ومن ذلك ما جاء في أحد الأشطار للشاعر سعد بن سعيد الظفاري وهي من بحر (البسيط) في الفصحى:

وسريت بالليل لو عندي خبر ما سريت

ووصلت الى المكلا بعت لي واشتريت(١٤٥)

والشطر بعد التصحيح:

ووصلت لما المكلا بعت لي واشتريت

الخلل بسبب تغيير التركيب:

وقد يكون التغيير بما هو أكثر من إبدال كلمة، وربما كان مما يصعب تصحيحه، كالبيت الآتي للشاعر حسن بن عبدالله الكاف من بحر المستطيل وهو من البحور المهملة في دائرة الخليل التي سماها (المختلف)(٤٦):

ودمعي فوق الوجن والخد قد صب

ورامي قبل لا أبلغ العشرين شيب(١٤٧)

فالشطر الأول وزنه مختل ويمكن تصور البيت موزونًا على النحو الآتي:

ودمعي كالمطر في الوجن والخد قد صب.

ومن الخلل التركيبي ما ورد في البيت الثاني من البيتين التاليين للشاعر سالم ناصر بن حيمد:

خرج وارحل لي هو عزم يا بكابر

وشمس الجزيرة شارقة عاريومها

وقد شفت لي هو سار في خن زاهر

وجملة سفن واسعفهم بيومها(١٤٨)

والبيتان على وزن بحر (الطويل) في الفصحى، والشطر الثاني من البيت الثاني بانن الاختلال، وبحر (الطويل) تمثل له الأستاذ بامطرف بالبيت الآتي:

يحصن الخطم قد حط مزن السحاب

وعدت على وادي حويرة سمومها(١٤٩)

ويستقيم الشطر المذكور بشيء من التعديل والإضافة على النحو الآتي:

وقد شفت لي هو سار في خن زاهر

وجملة سفائن سعفهم هي ويومها

ومن التغيير التركيبي المحدث للخلل الوزني ما جاء في بيت الشاعر عبدالرحمن بن عبيدالله السقاف من بحر (مجزوء المثمون):

الكذب عادتكم وأما شركم

كله يوقع فوق كيران الضعاف (١٥٠)

والشطر الثاني هو موضع الخلل، فهو مختل بسبب تغيير، وتصحيحه على النحو الآتي:

الكذب عادتكم وأما شركم

كله يقع من فوق كيران الضعاف

وظاهرة التغير في تركيب الجمل في البيت الشعري تكثر كثرة لافتة في الأبيات التي تأتي على الأوزان الطويلة (الأحد عشري) و(الاثني عشري)، لكون أوزانها صعبة الضبط، ولأن الجمل فيها كثيرة بسبب طول البيت الشعري، ولا تتبين إلا لمن له أساس في معرفة الأوزان.

ومن ذلك ما جاء في بيت الشاعر عبدالله بن سالم الغدة، إذ يقول:

رعى الله زمن كانت العربان تأخذ وتعطي عاصدالية

ما تجد في الوجه والسارحة تقصير والكلمة فاميزان

حسبت التجارة من لقى هندول ولقى عليه (١٥١)

لق لك معمل وطالع ونازل في القرضة مثل بن كرمان

وبالنظرة المجردة العابرة نتبيّن أن الشطر الأول من البيت الثاني قد ذهب منه عدة كلمات جعلت النقص واضحًا فيه.

ومثل ذلك الأبيات التي أوردها للشاعر عوض السبتي، ومنها هذان البيتان:

يا اعطيك خطي يا المعنى لقه عالراس فوق الدريرة

بلغه عا راس ضاحي حيث مرعى النوب (١٥٢)

جليل العجر عديت ستين في شوعته حاوي عزيرة

ما يشرب إلا من قلوت السيال الصافية في تروي الشعوب

وبالنظر المجرد يتبين النقص في الشطر الثاني من البيت الأول.

ومن تغيير تركيب البيت والتصرف في الجمل، ما جاء في شعر الأستاذ محمد بامطرف على بحر (البسيط) الفصيح في المثال الذي استشهد به وهو:

إذا تحقق كلامك وانقضى لي شان

يا اعمل وليمة فرح للشيب والشبان

على سهالات عا صافي عسل جردان

ويا يقع أنس عباسي على الآلات

ودعوة للجميع وسبيل يا عطشان (١٥٣)

والشطر الأخير اختل وزنه بسبب التغيير الذي حدث له، ويستقيم حين يصير له شيء من التغيير، على النحو الآتي:

(دعوة غذاء عامة وسبيل يا عطشان)،

ولا أظن أن الأستاذ لم ينتبه للخلل، والأغلب أنه جاء ممّن روى الأشطار.

وقد يتجاوز التغيير في تركيب البيت حدود الحذف والزيادة إلى تداخل الشطرين في كتابة البيت، كما حدث في شعر الشاعر علوي طاهر الحداد من بحر البسيط:

والشوع بين العرب يا صاح

تقارب الشوف في حاليها والنار (١٥٤)

غابت نجوم الهدا غارب قفا غارب

عسى خلوفه تقع بعد الذي قد سار

واليوم ما حد مبديه غير بو طالب

في الأرض قصوى من أهل العقل والأفكار

والأبيات كما هو واضح مقيدة بحرف الباء في الشطر الأول من كل بيت وحرف الراء في الشطر الثاني، والنظرة العابرة تبيّن الخطأ في البيت الأول: حيث جاء شطره الأول منتهيًا بحرف الحاء، كما أن الكلام في الشطر ناقص يوضح أن فيه حذفًا، وبعد تأمل يتضح أن الكلمة الأولى في الشطر الثاني هي نهاية للشطر الأول، وبتعديل قليل يمكن الوصول إلى حقيقة البيت قبل هذا التداخل، ويمكن أن يصح على النحو الآتي وربما كانت صورته الصحيحة كما قالها الشاعر:

والشوع بين العرب يا صاحبي تقارب

تقارب الشوف في حاليها والنار

ومما لا يتبين تصحيح الخلل فيه بسهولة ما حدث من تغيير في أحد بيتي الشاعر علي باقروان من بحر المخموس (١٥٥):

يا إله العرش يا اللي حكمتك في الناس حكمة

رب جلت قدرتك يا خالق الناس والأكوان (١٥٦)

والأجل مكتوب عندك أنت مستطلع بعلمه

ما لنا شي علم ودراية بذي في الغيب ما بان

والخلل في الشطر الثاني من البيت الأول، وواضح أن تدخّلا حدث من الراوية الذي نسي بناء البيت فتصوره على النحو السابق، أو من النقلة الذين غيروا فيه دون دراية، ولو أن الراوية له دراية بالأوزان لتصرف بما لا يخدش الوزن، ويمكن تصحيح الشطر على النحو الآتي: رب جلت قدرتك يا خالقي والأنس والجان.

الهوامش:

١٢٠) المعجم، ص١٢١.

١٢١) المعجم، ص٢٤.

١٢٢) المعجم، ص٢٩.

١٢٣) المعجم، ص٦٣.

١٢٤) المعجم، ص٩٠.

١٢٥) بحر المسدوس: تفعيلاته تقابل تفعيلات بحر الهزج في دائرته (مفاعيلن مفاعيلن مفاعيلن)، ويأتي في الاستعمال على تفعيلتين.

١٢٦) المعجم، ص١٠٩.

١٢٧) المعجم، ص١١٠.

١٢٨) المعجم، ص٢٢٣.

١٢٩) وبحر المثمون يقابل بحر الرجز بزيادة تفعيلة، حيث الرجز ثلاث تفعيلات (مستفعلن مستفعلن مستفعلن) والمثمون أربع تفعيلات.

١٣٠) المعجم، ص٢١٢.

١٣١) المعجم، ص٢٢٧.

١٣٢) المعجم، ص٢٥٥.

١٣٣) ينظر: الميزان، ص٨٦.

١٣٤) المعجم، ص٢٠٥.

١٣٥) المعجم، ص١٢٣.

١٣٦) والسريع من بحور الفصحى وتفعيلاته (مستفعلن مستفعلن فاعلن).

١٣٧) المعجم، ص٨٦.

١٣٨) المعجم، ص٢٦.

١٣٩) المعجم، ص١٤٩.

١٤٠) المعجم، ص١٩٩.

١٤١) المعجم، ص١٧٢.

١٤٢) المعجم، ص١٧٣.

١٤٣) المعجم، ص١٩٩.

١٤٤) المعجم، ص٦٣.

١٤٥) المعجم، ص١٠٣.

١٤٦) ينظر: كتاب (العروض التعليمي)، الدكتور عبدالعزيز نبوي والدكتور سالم عباس خدادة، مكتبة المنار الإسلامية ط٣، الكويت، ٢٠٠٠م، ص٢٦٦.

١٤٧) المعجم، ص٥٩.

١٤٨) المعجم، ص٩٩.

١٤٩) التراث وصناعة الشعر، ص٢٤.

١٥٠) المعجم، ص١٥٩.

١٥١) المعجم، ص١٩٦.

١٥٢) المعجم، ص٢٦٦.

١٥٣) المعجم، ص٣١٣.

١٥٤) المعجم، ص٢١٨.

١٥٥) ينظر: التراث وصناعة الشعر، ص٢١.

١٥٦) المعجم، ص٢٢٥.

57
العدد (7)
يناير
مارس
2018م

لهجة حضرموت

(الحلقة الأولى)

إلى جانب اللغة العربية الفصحى كلغة وطنية لكل العرب في مختلف أقطارهم يتحدث الناس في مختلف مناطق العالم العربي بلهجاتهم العربية الخاصة، سواء منها تلك اللهجات المتبقية في بعض المناطق العربية من اللغات العربية القديمة كـ(الآرامية) في بعض مناطق سوريا، أو المهرية والشحرية (الجبالية) والسقطرية في محافظة ظفار العُمانية وفي المهرة وسقطرى، أو تلك اللهجات الأخرى التي مزج فيها الناس بشكل تلقائي بين اللغة العربية الفصحى الحديثة ولغات عربية قديمة (سامية) كاللغة الحضرمية، ولذلك فإن تلك اللهجات تعد لهجات أصيلة لارتباطها بالمكان والإنسان العربي وموروثه الاجتماعي والثقافي المحلي وبالموروث العربي العام.

محمد عوض محروس

ولهجة حضرموت هي إذن تلك اللهجة التي تكونت من لغة حضرموت القديمة واللغة العربية الفصحى، وهي جزء من هوية متحدثيها؛ لأنها اللغة التي يتحدث بها الناس فيما بينهم يوميًا، وهي لغة تراثهم وإبداعاتهم من شعر وغناء وأمثال وحكم وأقوال، وهي لغة المصطلحات الخاصة بأصحاب المهن المختلفة، أي أنها الحامل الرئيس للمشهد الاجتماعي والثقافي القديم والحاضر لديهم، وهي من اللغة العربية كفرع من الأصل، والخاص من العام، أي أنها نتاج مشترك للغة الفصحى ولغة حضرموت القديمة، إحدى اللغات التي سادت كتابة ونطقًا عند عرب الجنوب في العصور القديمة، وتلك اللغات هي: اللغة الحضرمية، واللغة القتبانية، واللغة المعينية، واللغة السبئية[1]، وهي من ضمن لغات العرب ولهجاتهم القديمة التي تكونت منها اللغة العربية الفصحى ونزل بها القرآن الكريم[2]. لذلك فإن لهجة حضرموت هي جزءٌ من كل، وارتباطها بالفصحى يعني ارتباط الخاص بالعام، وهي وسيلتهم اليومية -أي الحضارم- في التخاطب والتفاهم والإبداع، وهي جزء من هويتهم، وبارتباط لهجتهم المحلية باللغة العربية الفصحى، لغة القرآن الكريم، وبمعتقدهم الديني الإسلام فهي تعد جزءًا من هويتهم العربية الإسلامية.

إن اللهجة بوصفها وسيلة للحديث والتخاطب والإبداع، وظاهرة اجتماعية ثقافية ليست عرضة للزوال، فعلى الرغم من توسع امتداد اللغة الفصحى وانتشارها في كل أنحاء حضرموت ابتداءً من القرن الرابع الميلادي، وكثرة وتنوع المؤسسات التعليمية التي تدرسها كلغة رسمية وحيدة منذ ذلك التاريخ وحتى اليوم، ومن حيث توسع انتشارها عبر المؤسسات الرسمية المختلفة، أو عبر وسائل الإعلام التي تعمل بشكل مزدوج بين الفصحى والعامية، إلا أنها أي الفصحى تظل محصورة في قطاع التعليم وفي مجال الإعلام والثقافة والعمل الرسمي، ذلك لأن اللهجة المحلية تُغذى يوميًا وساعة بساعة ولحظة بلحظة من الأسرة، والمجتمع المحلي، ومن محيط العمل، ومن الشارع، ومن مختلف النشاطات الاجتماعية والثقافية المحلية، التي تغذي اللهجة المحلية وتحافظ على حضورها أكثر مما تفعله المؤسسات الرسمية مع الفصحى.

وألفاظ اللهجة المحلية في غالبها هي ألفاظ عربية جنوبية وعربية فصحى، وهذا لا يعني أن ألفاظًا أجنبية لم تتسرب إليها، وفيها -أي اللهجة المحلية- اختلاف في نطق كثير من ألفاظها عن نطقها في الفصحى، ولكن هذا الاختلاف في إطار اللغة نفسها، وليس في أصل الألفاظ

العربية، ويتضح ذلك الاختلاف في كيفية نطق تلك الألفاظ، وفي نحوها وفي صرفها وفي جمعها، واللهجة كما يقول د. عبدالله صالح بابعير: «هي اتجاه منحرف داخل اللغة، وليست مُنْبَتَّةً عنها، واللهجات العامية الحديثة فروع للفصحى في أصلها، فهذه اللهجات (في الكثير منها ألفاظ تعود في تاريخها إلى الجاهلية، ولكنها تختلف عن الفصحى في أنها خرجت عن القياس الذي وضعه النُحَاة»(٣).

والمواطن البسيط لا يلتزم في حديثه بقواعد اللغة من نحو وصرف كما وضعه علماء اللغة العربية الأوائل، ربما لأن في لهجته عناصر أقدم مما وضع هؤلاء الروّاد من قواعد، ولأنهم لم يتعرفوا على لهجته عندما وضعوا قواعدهم تلك، وهم لم يأتوا إلى حضرموت لأنهم لم يعدوا لهجة أهلها عربية أصيلة، ولأن المواطن العادي في هذه البلاد لم يطلع على قواعد اللغة التي أعدها أولئك الروّاد إلا في مقاعد الدراسة، وهو في الغالب سرعان ما ينساها بمجرد تخرجه من المدرسة أو الجامعة بسبب تغلب اللهجة العامية السائدة على ألسن الناس على اللغة الفصحى.

إن توسع تعليم اللغة الفصحى بقواعدها لا يتطلب القضاء على اللهجة المحلية، وهو لن يؤدي إلى طمسها أو نزعها من ألسن الناس ومن موروثهم ومن ذاكرتهم؛ لأن اللهجة المحلية تعبر عن وحدة متأصلة في كلام الناس، وفي تعاملهم فيما بينهم بسلاسة ودون أي تكلف في بنيتها وإطارها الجغرافي المحدود، كما تحافظ اللهجة المحلية على موروث الناس الاجتماعي والثقافي وتقوي روابطهم بذلك الموروث، وتشدهم إلى مواقع طفولتهم، ومراتع شبابهم، ومثاوي أجدادهم، وماضي أهلهم، وتواصل الحياة على أرضهم. وإذا كان هناك من تطور في توسع تعليم الفصحى فإن ذلك يعني مزيداً من الارتباط باللغة الأم، وهو ما سوف يعمل على المدى البعيد على تقارب اللهجة المحلية مع اللغة الفصحى، وذلك لن يعمل على زوال اللهجة المحلية، ولكن على تجذرها وتحسن استعمالها من قبل أغلب الناطقين بها.

إن لهجتنا المحلية في حضرموت ليست وسيلتنا نحن جيل اليوم في الحديث والتخاطب، ولكنها كانت وسيلة كل أسلافنا من أبناء هذه الأرض في التخاطب والحديث والإبداع، احتوت على كل تراثهم الاجتماعي والثقافي من عادات وتقاليد وشعر وغناء وحكم وأقوال وأمثال وحكايات، ولذلك فإن لهجتنا العامية كانت وما زالت من أهم مظاهر حياتنا وحياة أسلافنا الذين عاشوا على هذه الأرض، وهي تعبر عن هويتنا كحضارم وعرب ومسلمين، والحفاظ عليها يعني الوفاء لماضي أهلها، وإصرارًا على وجودنا وتمسكنا بهويتنا وحق أبنائنا وأحفادنا في العيش على أرض الأجداد.

إن العلاقة بين الفصحى والعامية هي كما يقول د. عبدالله صالح بابعير إن «اللهجة العامية مستوى من الأداء اللغوي، مرتبط بأصوله التراثية الفصيحة، فهي فروع من العربية الفصحى، والعلاقة بينهما هي العلاقة بين الخاص والعام»(٤)، وعليه فإنه لا خوف من العامية على الفصحى، ولا من الفصحى على العامية؛ لأن الخاص ينطلق من العام وهو جزء منه، والعام هو أصل الخاص وهو أساس لكل ما يختص به، ولأن كلًا منهما يأخذ موقعه ومكانه الطبيعي في حياة الناس اليومية ونشاطهم المهني والاجتماعي وفي حياتهم العامة، ففي مقاعد الدراسة في المدارس والمعاهد والجامعات، وفي النشاطات والمخاطبات الرسمية، وفي أجهزة الإعلام المختلفة تكون الأولوية للفصحى، بينما تحتل العامية موقعها الطبيعي في محيط الأسرة والمجتمع، وفي مواقع العمل الشعبية، وفي تجمعات الناس في الأسواق، وفي النشاطات والمناسبات الاجتماعية ذات الطابع المحلي.

إن دراسة اللهجة المحلية في حضرموت يعني دراسة علاقتها بالأصل الجنوبي العربي الذي جاءت منه، وهو لغة حضرموت القديمة، واللهجات القديمة التي سادت وما زالت قيد الاستعمال إلى اليوم في مواقعها القديمة، وأصبحت تشكل اليوم لغات قائمة بذاتها، وهي اللغات المهرية، والسقطرية، والشحرية التي يطلق عليها الناطقون بها اليوم في سلطنة عمان (الجبالية)، وتعني أيضًا دراسة مواقع التقائها مع الفصحى وانحرافها عنها، وقد يؤدي ذلك إلى البحث في شئون أخرى تتعلق بالثقافة المحلية والموروث الشفهي، وقد أكد د. عبدالله صالح بابعير على أهمية «الدعوة إلى الاهتمام بدراسة اللهجات المحلية الحديثة، بوصف هذه اللهجات نشاطًا اجتماعيًا وثقافيًا للناطقين بهذه اللهجات من جهة، ولما تفيده هذه الدراسة في تبيان ملامح الاتفاق والافتراق عن أصولها الفصيحة وملامح التأثير والتأثر من جهة أخرى»(٥).

وعليه فإن البحث في اللهجة المحلية في حضرموت يستهدف تبيان علاقتها بالفصحى وبأصولها العربية الجنوبية القديمة، وتبيان نسبة دلالة بعض الألفاظ القرآنية إلى هذه اللهجة، ومدى تجذر اللهجة المحلية في إبداعات الناس وموروثهم المحلي من شعر وأمثال وأقوال وحكم بوصفها جزءًا من الموروث العربي العام، وبحث المشترك والمختلف في لهجة الناس في وادي حضرموت عن لهجة أهل الساحل، ولهجتي أهل المشقاص والمعراب، ومدى ارتباط اللهجة بموضوع الهوية، ومدى التأثير المتبادل للشتات الحضرمي في لغات البلدان التي استقر بها المهاجرون الحضارم، وفي لهجة حضرموت نفسها.

لهجة حضرموت واللغة العربية الفصحى.. كجزء من كل:

يعد توزع السكان في المساحات الواسعة، وتنوع البيئة، وبعد المسافات بين المناطق الآهلة بالسكان، وصعوبة التواصل بين الناس في الماضي، بالإضافة إلى تعلق الناس بموروثهم الاجتماعي والثقافي الخاص بهم من

ضمن الأسباب التي ساعدت على تكون اللهجات في اللغة الواحدة، وعلى بقائها، واللهجة هي أسلوب أو طريقة التعبير بنطق معين للغة الأم من قبل جماعة من الناس تعيش في منطقة وبيئة جغرافية محددة.

ولهجة حضرموت عربية الأصل؛ لأن كثيرًا من ألفاظها وتعابيرها عربية جنوبية تعود للغة الحضرمية القديمة، إحدى اللغات العربية الجنوبية التي سادت كتابة ونطقًا في جنوب الجزيرة العربية، وهي إحدى اللغات العربية القديمة التي أطلق عليها علماء اللغات النمساويون في العام ١٧٨١م تجاوزًا (اللغات السامية)[٦]، وتكمن خصوصيتها في أصالتها وعلاقتها بكل من اللغة الحضرمية القديمة واللغة العربية الفصحى، وعليه فإن لهجة حضرموت مزيج من نسيج لغوي تتضح خصوصيته من خلال معرفة مفرداته وتعابيره، ودلالات تلك المفردات والتعابير وما يقابلها من معان في الفصحى، حيث يقول الأديب والمؤرخ محمد عبدالقادر بامطرف: «يُخطئ من يظن أن الكلمات الفصحى ما هي إلا الكلمات القاموسية، إن معاجم اللغة بما فيها (الأمهات) لم تستوعب كافة مفردات اللهجات العربية، كما إن بعض الأميين وأنصاف الأميين يأتون في أشعارهم الحميني بكلمات قاموسية دون أن يعلموا أن هناك معاجم تضم في ثناياها تلك الكلمات، ولكي ندلل على كلامنا هذا سوف نأخذ ثلاثة مقاطع من شعر حميني قاله الشاعر عوض عبدالله السبتي (يُقال أيضًا سبيتي)، المتوفى سنة ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٣م من أهالي مدينة الديس الشرقية في محافظة حضرموت. وهو شخص من العوام عاش طيلة حياته على برزخ التوسط بين الحضر والبادية. قال رحمه الله:

نا شقيق الليل تشهد لي الزواهر
غيب الزاهرة
والقمر والفجر يشهد لي نسيمه
والبيح والصبح لابان

* * *

الهوى يا بو علي له أخذ خاطر
والعصي صابرة
بالوتاء ذي يكسر اعظوم الصميمة
وإن صرفته للقسي لان

* * *

لا يهمه هم من به صوب غائر
حجته ظاهرة
كل من به ضيم يشكي لي بضيمه
نا معي للعشق ديوان

* * *

ويتابع بامطرف قائلًا: «فعلى كل من يرغب من الشعراء المعاميد، وخاصة من أبناء محافظة حضرموت أن يرجع إلى (يتيمة الدهر) للثعالبي وإلى (تاج العروس) للزبيدي ليرى إلى أي مدى استطاع الشاعر السبتي أن يرتب درجات ظلمة الليل بدءًا من الغروب إلى تألق النجوم إلى ظهور نجمة آخر الليل، ثم البيح (بكسر الباء وفتح الياء)، الذي هو مطلع الفجر، ثم الفجر ونسيمه. وقد استعمل الشاعر السبتي استعمالًا لغويًا صحيحًا جملة (أخذ خاطر) وقصد بها المعالجة النفسانية، ففي جمله وتراكيبه يطمئن السبتي، في حصافة طبيب القلوب الواثق من نفسه، المصابين بلواعج العشق والغرام والهيام بأن طريقته ولكل شيخ طريقة استعمال (الوتاء) أي المداراة الحكيمة للتغلب على الحالات المستعصية في دنيا صرعى الغواني والجمال، ثم لهؤلاء المصابين إن كان قد تركت طعنات العيون النُجل فيهم بقية أن يبحثوا عن كلمتي (العصي والقسي) وهما على وزن واحد في صحاح الجوهري و(لسان العرب) لابن منظور، علهم يعثرون على معناهما، وكان السبتي قد استعارهما للصد والهجران، ولن أكون حانثًا إذا أقسمت أن الشاعر السبتي لم يسمع في حياته بواحد من معاجم اللغة ولا من كتب الأدب العربي، ولكنه كان بفعل السليقة والنفس الذكية المتفتحة على معاني الحياة مزودًا بثروة من لهجتنا العربية الدارجة»[٧].

وفي تقديمه لديوان الشاعر الشعبي العشقاصي الشيخ كرامة بن عمرو بن حمادة[٨] كتب الدكتور سعيد سالم الجريري يقول: «بن حمادة[٩] شاعر طالع من أعماق هذه الأرض، معجونًا بلغتها، ومعجمها، وتراثها، وفلكلورها، وتنساب على لسانه معان وصور لصيقة بالمكان الذي يتشكل على صورة (بن حمادة)، أو (بن حمادة) يتشكل على صورته، لا فرق، في حالة من التماهي الوجودي والجمالي، ويتجلى ذلك كله في أنماط التعبير وأشكاله الإيقاعية التي يجيد (بن حمادة) اللعب على أوتارها، إذ يستل من الكلام كلامًا خاصًا به، دالًا عليه من دون غيره كأنه البصمة.. معظم أشعار (بن حمادة) ولا سيما الكرام البدوي، لكن لغته عربية جنوبية جذورًا واشتقاقات ودلالات، وتمثيلها في أشعاره صورة من صور الهوية المتناسلة عبر العصور، عصية على أدوات المحو والطمس، ولأن الشواهد تجلُ عن الحصر فلنكتف بمثال: إذ يقول (بن حمادة) في إحدى قصائد الكرام:

كهيب يالظلمة كهيب

ولقد تبدو لفظة (كهَيب) -بفتح الهاء- غريبة غير متداولة في المعجم اليومي، لكن لسان العرب يضعها في سياقها العربي الفصيح دلالة على أن عرب حضرموت، ولا سيما بدوهم، أقحاح في لغتهم، وإن اتسمت بسمات صوتية وصرفية تغاير متداول اللغة الرسمية صوتًا وصرفًا. جاء في (لسان العرب) لابن منظور: «الكُهبة: غُبرة مشربة سوادًا في ألوان الإبل، زاد الأزهري: خاصة بعير أكهب: بيّن الكهب، وناقة كهباء. الجوهري: الكهبة لون مثل القهبة، قال أبو عمرو: الكهبة لون ليس بخالص الحُمرة، وهو في الحُمرة خاصة. وقال يعقوب: الكهبة لون إلى الغبرة ما هو، فلم يخص شيئًا دون شيء. قال الأزهري: لم أسمع الكهبة في ألوان الإبل لغير الليث، قال: ولعله يستعمل في ألوان الثياب. الأزهري: قال ابن الأعرابي: وقيل الكهب لون الجاموس، والكهبة الدهمة، والفعل في كل ذلك كهب وكهب كهبًا وكهبة، فهو أكهب. وقد قيل: كاهب، وروي بيت ذي الرُمّة:

جنوح على باق سحيق كأنه
إهاب ابن آوى كاهبُ اللون أطحلُهْ

وتكشف قراءة (كهيب) ابن حمادة في سياق قصيدته تلك، عن دلالات وشيجة بالمعنى الفصيح لدى عرب الجزيرة»[١٠].

وعن اللغة المستخدمة في قصائد الكرّام عند ابن حمادة يقول الأستاذ أحمد عمر مسجدي: «لو عرجنا متصفحين ديوان الشيخ الشاعر ابن حمادة تستنطقنا من أول وهلة هذه القصائد الغنية باللغة الفصحى التي تخالها لتداولها وكأنها لهجة بدوية مشقاصية دارجة يصعب على ابن المدينة معرفة كنهها، وهي غنية أيضًا بلهجة أهل المشقاص التي تختلف نوعًا ما عن لهجة أهل المعراب... ونبدأ أول ما نبدأ بعناوين القصائد الكرّامية التي وردت في ديوان ابن حمادة:

١- يا الراد ولّاف.
٢- الفي عالصيق ماد.
٣- الفي ع يهبط محتم.
٤- حظين يا الرده حظين.
٥- كهيب يا الظلة كهيب.
٦- الفي عالدان أو الفيه ضووا دنان».

ويقول الأستاذ مسجدي: «لست خبيرًا باللهجة المشقاصية، ولكن بمجرد قراءتنا السطحية لهذه الألفاظ يلوح في الأفق تشابهها اللفظي والشكلي وواحدية مضمونها المعنوي، فالراد والردة والفي والفية والظلة كلها تلتقي تحت معنى واحد هو احتضان الظل بعضه بعضًا، كما إن تقارب الحروف في ولّاف والفي له دلالته المشقاصية التقليدية، أو التقابل الموسيقي والتوافق الجرسي والتكرار في حضين وكهيب له ميزة دلالية توقع في الأسماع وتسترعي الانتباه... وكل قصيدة من قصائد الكرّام تُعد لوحة فنية رسمها الشاعر بدقة وإتقان يجسد فيها عمق التجربة وصدق العاطفة وجزالة اللفظ وتأصله وتدفق الحركة بين الأمكنة.. نأخذ أولى قصائد الكرّام في ديوان ابن حمادة وأقلها أبياتًا كنموذج لنا... ونركز على لغتها المستخدمة.. والقصيدة كالتالي:

يا الراد ولّاف
والفي ع يعملوا ترادين ورداف
وخروا للأودي طرشين وخفاف
جزعوا ع شعاب وتقاديم وحقاف
ولا شي رجع لاف
خروا ع سنتهم ما راحوا خلاف
ونا عيني عليهم شوف كما من شاف
أما الشمس تغصب غشت من ع حقاف
ونظري رجع كاف
وتواوني هموم أما الحال ينلاف
وتلاهيم ع قلبي عملوا فيه خاف
والكبد فيها خذاف
بقيت كما المرهوب والرأس عند سياف
صابي كما الساف
والناس من فكر فيني كل حد له مشاف
وذاك ما دروا بي قالوا ذي شاف
ونا بعد جاويد بقيت ع الحياة قاف
وحملوني حمول ثُقل فيه وكلاف
ثُقل ع قلبي أما دمّي نزاف
والثقل لا حمل وحط فوق الكتاف
ولا عدالة ثقيلة بتقعن خفاف».

ويتابع الأستاذ مسجدي بقوله: «بعض المفردات المستخدمة في القصيدة التي نخالها بأنها عامية ولكنها في الأصل فصحى، ومن هذه المفردات (خروا) وهي من المستخدمات الكثيرة ليس في المشقاص فحسب، وإنما في بادية المعراب أيضًا، وتأتي (خر) على عدة معان في الصوت أيضًا، فقد جاءت في القرآن الكريم ﴿فلما خر تبينت الجن..﴾ بمعنى وقع وبمعنى مات، وكذلك لها معان في الصوت كقولهم: خر الماء إذا جرى، وخر عند النوم، ولكن ابن حمادة استخدمها بمعنى (سقط) فيقال: خر البناء إذا انهد وسقط، وقوله: (خروا للأودي طرشين وخفاف) بمعنى سقط الظل في الوادي بسرعة وخفة. أما لفظ (لاف) في قوله: (ولا شي رجع لاف) أي لم يعد بقبضته، ولفظ (غشت) هي الأخرى بمعنى أظلمت، ولفظة (خذاف) التي أتى بها مع الكبد في قوله: (والكبد فيها خذاف) بمعنى الكبد متقطعة، ولها معنى آخر أي جعل الحصاة بين سبابتيه ورمى بها، وفي قوله: (صابي كما الساف) فالصابي بمعنى أمال رأسه وخفضه إلى الأرض، وصابي الشيء أماله، وصابي السكين قلبها، وصابي السيف وضعه في غمده مقلوبًا، وصابي الكلام لم يجره على وجهه الصحيح. أما لفظة (الساف) فتعني الداء يهلك الإبل، ولفظة (قاف) تعني تتبع الأثر، كما جاء في معاجم اللغة (تاج العروس) و(لسان العرب) و(مختار الصحاح)»[١١].

لقد تحدث الأستاذ مسجدي عن لغة الشعر عند ابن حمادة وعلاقتها بالفصحى الدارجة عند أهل المشقاص كما يقول، وقد أحسن صنعًا وأصاب عندما ربط مفردات قصائد الشاعر الشيخ ابن حمادة بالعربية الفصحى، ولكنه تجاهل معاني ودلالات تلك المفردات في لهجة حضرموت، وكانت الفائدة والوضوح سيكون أفضل لو قارن معاني تلك المفردات ودلالاتها في الفصحى وفي لهجة حضرموت معًا، فلفظة (خر) التي فسرها بمعنى سقط بناء على ما ورد في معاجم اللغة والقرآن الكريم لها عدة معان في لهجتنا المحلية بالإضافة إلى معانيها في الفصحى، فالأصل: خر، يخر، خرة، وخر فلان إلى مكان ما تعني أنه اندفع سريعًا أو ذهب وعاد مسرعًا، والخرة هي الذهاب والعودة السريعة، والخرة عند معالمة وعمال البناء هي الأخشاب التي تُثبت في جدار المبنى من الخارج أو تتدلى من أعلى المبنى ليعمل البناؤون من عليها على ترميم المبنى من الخارج، وخر الماء من السقف تعني أن الماء اخترق سقف المبنى لينزل إلى داخله، وعندما يأتي أحدهم بحديث غير لائق عند أبناء القبائل البدوية في المشقاص مباشرة ينطق أحدهم بلفظة (خر) مع شيء من الصرامة في تقاطيع الوجه وحركة اليدين، و(خر) هنا هي لفظ زجر ونهي عن تكرار ما يعيب من الحديث، وهي هنا في قول بن حمادة:

وخروا للأودي طرشين وخفاف

فيه تشبيه للفيا أي الظلال بالطرشين جمع طَرش، والطراشة هي رشاقة وحيوية الشباب، وقوله هذا يعني أن الفيا

اندفعت بسرعة وخفة ولم تسقط، وتفسير لفظة (غشت) بمعنى أظلمت قد يكون في غير موقعه؛ لأن الشمس ليست مصدرًا للظلام، ولكنها وفقًا لقول ابن حمادة (غشت من ع حقاف) يعني أنها تغطت أي غابت أو غربت من فوق كوم رملي، كما إن لفظة (صابي) ليست كما ورد في معاجم اللغة بمعنى (أمال رأسه وخفضه إلى الأرض) كما ذكر الأستاذ مسجدي، ولكن الصابي في لهجة حضرموت من صبا، يُصبي، صابي، مصباي، ولفظة (صبا) هنا تعني أنه سرح بخياله مهمومًا بأمر ما، وعندما يقال: فلان فيه صبية تعني أنه يعاني من الشرود من كثرة ما يحمل من هموم، والصابي هو الشخص المهموم السارح والشارد بأفكاره بعيدًا عن الناس، وكذلك هو المصباي الذي لا يُعتمد عليه بسبب حالة الصبية التي يعاني منها، وصابي يمكن أن تكون من صبُى يُصبَي تصبِّية، وهي هنا صفة لحالة الصياد الذي ينتظر وصول الأسماك إلى وسائل اصطياده وهو في حالة سكون عائمًا دون حراك فوق مياه البحر. أما لفظة (قاف) التي فسرها الأستاذ مسجدي (بأنها تعني تتبع الأثر) أي من القيافة، فهو في تفسيره هذا قد أخرجها من سياقها الشعري في قصيدة ابن حمادة، واستغنى عن معاجم اللغة، وهو لو فتح واحدًا منها لوجد أن معنى هذه اللفظة ليس كما ذكر، لأن لفظة (قاف) من قف، وقف الثوب يبس بعد غسله، وقف الشعر تعني أنه قام من شدة الفزع، وقفت الأرض يبس زرعها، وهي في قول ابن حمادة لا تختلف عن ذلك لأن (القاف) في لهجة حضرموت هو ما يبس وخرج عن أصله، كلحاء الشجر اليابس الذي يبرز خارجًا عن ساق الشجرة، وتلك هي لفظة (قاف) في القاموس الحضرمي بنطقها المشقاصي بإمالة الألف نحو الياء.

ومن خصوصيات اللهجة الحضرمية التي أعطت لشعر ابن حمادة نكهته الحضرمية المشقاصية دخول حرف العين متقدمًا الفعل أو الاسم، فحرف العين عندما يتقدم الفعل المضارع فإنه يفيد باستمرار الفعل كقول ابن حمادة: (والفي ع يعملوا ترادين ورداف) أي استمرار توارد وترادف الظل، وهذه من خصوصيات لهجة أهل المشقاص، أما إذا تقدم حرف العين الاسم فهو اختصار للفظة (على) وهو من لهجة حضرموت عامة كقول ابن حمادة:

جزعوا ع شعاب
خروا ع سنتهم
غشت من ع حقاف
وتلاهيم ع قلبي

أما في قول ابن حمادة:

وتلاهيم ع قلبي عملوا فيه خاف

فالتلاهيم من الإلهام، وهو إيقاع شيء في القلب يطمئن له الصدر، يخص الله به أصفياءه، وهو ما يُلقى في القلب من معان وأفكار كما جاء في (المعجم الوسيط)[١١]، والتلاهيم هنا هي استعادة وتذكر شريط الأحداث التي حصلت له، ولفظة (خاف) في لهجة حضرموت تعني: ربما أو يمكن، وهي لفظة تعني التأويل.

مما تقدم يتضح أن اللهجة العامية المتداولة اليوم في حضرموت هي لهجة عربية الأصل في ألفاظها، قديمة في تكوينها، وهي من الفصحى كجزء من كل، ولأن جذورها تمتد عميقًا في تربة البلاد العربية الجنوبية، فهي تستمد قدمها من قدم حضرموت لغة وأرضًا وإنسانًا.

المراجع:

١- بابعير: عبدالله صالح (د)، انحراف اللهجات العامية الحديثة عن العربية الفصحى مظاهر من لهجة مدينة المكلا، دار حضرموت للدراسات والنشر، مؤسسة العون للتنمية، ٢٠١٢م.

٢- بامطرف: محمد عبد القادر، التراث وصناعة الشعر، مؤسسة ١٤ أكتوبر- بدون تاريخ.

٣- بيستون: الفريد (أستاذ)، لغات النقوش اليمنية نحوها وتصريفها مختارات من النقوش اليمنية القديمة، محمد عبدالقادر بامطرف وآخرون، المنظمة العربية للثقافة والعلوم، تونس، ١٩٨٥م.

٤- علي: جواد (د)، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج١، دار العلم للملايين بيروت - مكتبة النهضة، بغداد، ١٩٧٦م.

٥- مسجدي: أحمد عمر، الكرام المشقاصي في ديوان صاحب الريادة ابن حمادة، مجلة (حضرموت الثقافية) العدد (الثالث)، رجب ١٤٣٨هـ/ مارس ٢٠١٧م.

٦- مصطفى إبراهيم وآخرون، المعجم الوسيط ١- ٢، دار الدعوة استانبول - تركيا، ١٩٨٩م.

٧- المطري: بورح سبيتي بن دري، ديوان صاحب الريادة في الشعر الشعبي الشيخ كرامة بن عمرو بن حمادة، مطابع حضرموت الحديثة، الشحر، ٢٠١٤م.

٨- الهلالي: هادي عطية مطر (د)، دلالة الألفاظ اليمانية في بعض المعجمات العربية، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، ١٩٨٨م.

الهوامش:

١. ينظر: الأستاذ الفريد بيستون، لغات النقوش اليمنية القديمة نحوها وتصريفها مختارات من النقوش اليمنية القديمة، ص٦٨.

٢. د. هادي عطية مطر الهلالي، دلالة الألفاظ اليمانية في بعض المعجمات العربية، ص١٤-١٨.

٣. انحراف اللهجات العامية الحديثة عن العربية الفصحى، ص١٢.

٤. المصدر السابق، ص١٤٩.

٥. المصدر السابق، ص١٤٩.

٦. د. جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج١، ص٢٢٢.

٧. التراث وصناعة الشعر، ص١٣.

٨. جمع وإعداد بورح سبيتي بن دري المطري، ديوان صاحب الريادة في الشعر الشعبي الشيخ كرامة بن عمرو بن حمادة.

٩. كرامة بن عمرو بن حمد بن مبرور بن مطر الثعيني، من مواليد ١٣٥٤هـ بريدة عبدالودود (البريدة الشرقية حاليًا) تلقى تعليمه على يدي إمام (مسجد ضيق هزاول) بعسد الجبل الشيخ سعيد بن عبدالرحمن باحميد، قضى معظم أيام صباه وشبابه بأرض البادية، سافر إلى الكويت عام ١٩٦٥م، وعمل في دكان، ١٠. ديوان صاحب الريادة في الشعر الشعبي الشيخ كرامة بن عمرو بن حمادة، ص٨- ١٠.

١١. مجلة (حضرموت الثقافية)، العدد (الثالث)، رجب ١٤٣٨هـ/ مارس ٢٠١٧م، ص٧٥- ٧٦.

١٢. ينظر: المعجم الوسيط، مادة (لهم).

62
العدد (7)
يناير
مارس
2018م

المدن والأماكن الحضرمية في نقشي IR 31/32

(أواخر القرن الثالث – مطلع القرن الرابع الميلادي)

(٢ - ٢)

أحمد صالح الرباكي*

ثانيا: النقش إرياني ٣٢ جام ٦٥٧

نص النقش بالمسند:

سعد تألب / يتلف / بن / جدنم/
كبر/أعرب/ ملك/ سبأ/ وكدت/
ومذحجم/ وحرمم/ وبهلم/ وزدال/
وكل/ أعرب/ سبأ/ وحميرم/
وحضرموت/ ويمنت/
هقنى/ مرأهمو/ المقه/ بعل/ أوم/
صلمم/ نذهبم/ حمدم/ بذت/ كأسى/
عبدهو/ سعد تألب/ نجدنم/ وتمهريتو/
عبرن/ قرنم/ بنشقم/ بن/ حضرموت/
ومظات/ عبرهو/ عظتم/ وطيبتم/
عظن/ مرأهو/ ذمر علي/ يهبر/ ملك/
سبأ/ وذريدن/ وحضرموت/ ويمنت/
كليسبأتن/ ويظبأ/ سعد تألب/ نجدنم/
وليقتدمن/ شعبن/ سبأ/ أبعل/ مرب/
وأعرب/ ملك/ سبأ/ وكدت/ ونجرن/
وسفلن/
ونفصو/ عدى/ محرمن/ ذيفرو/ وقيوو/
كل/ أجيشهمو/ سبعت/ يمتم/وأل/
نقصو/ غير/ كبن/ سبأ/ ثلث/ مأتم/
أسدم/ وبن/ أعربن/ ثلث/ مأتم/
أسدم/ وعشرى/ أسدم/ أتلوت/ ركبت/
أفرسم/ ذأسيو/ سنهمو/ قرنم/
بهجرن/ نشقم/
وتجعر/ بعهمو/ خمسي/ أفرسم/
ويسبأو/ وستغرن/ هجرن/ صوأرن/
ويتقدمو/ بعهمو/ أبعل/ صوأرن/
بخلف/ هجرن/ صوأر/ ويسبطو/
نجدنم/ وجيشهو/ بنهمو/ مهرجتم/
وأخيذتم/ وسبيم/ وغنهم/ ذعسم/
وبعدنهو / فسبعو/ لهمو/ ومطو/
عمهمو/ أسد/ صوارن/ بعلى/ أبعل/
بعلى/ شبم/ وصدفن/ وتقدمو/
وهترجن/ بغم/ صدفن/ وأبعل/ شبم/

بخلف/ شبم/ ويهرجو/ بنهمو/ سبعى/ أسدم/ وعدوو/ بسحتم/ هجرهمو/ وصنعهو/ وتنحبو/ عمهو/ ثلثت/ عشر/ يمتم/ عدى/ سبعو/

وبعدنهو/ فستغرو/ وظورن/ رطغتم/ وسيؤن/ ومريمتم/ وحدب/ وهسبعهو/ وهغرو/ عدى/ عرأهلن/ وترم/ وتقدمو/ بعم/ أبعل/ ترم/ وملأ/ هرجو/ بن / أبعل/ ترم/ وعدوو/ هجرهمو/ سحتم/ وحويهمو/ وظورن/ثنى/ عشر/ يمتم/ وجبذو/ ألفن/ أعمدم/ وجبأو/ وصريهو/ وتعرين/ وسبع/ لهمو/

وبنهو/ فهغرو/ عدى/ دمن/ ومشطت/ وعركليبم/ وسبع/ لهمو/ ونجشو/ كل/ هجر/ حضرموت/ وسررن/ وبنهو/ فيأيتو/ وقفلوا/ بأحللم/ وأخيذتم/ وسبيم/ وغنمم/ ذعسم/ وهرجو/ ثلث/ مأتم/ وألف/ بضعم/ وسبع/ مأتم/ زخيتم/ وثلثت/ ألفم/ سبيم/

وأتوو/ وقفلو/ عدى/ هجرن/ ظفر/ عبر/ مرأهمو/ ملكن/ وأولو/ عمهمو/ أنمرم/ ذهملكو/ حضرموت/ وربعت/ بن/ وألم/ وأفصى/ بن /جمن/ وجشم/ بن/ شرال / وبهثم/ بن/ زكيم/ وثوبن/ بن/ جذمت/ أصدفن/

ويطع ..... سيبنين وقضعم سيبنين وأربع .. أت ... فتر .. لاتى بعممهمو بن

محتوى النقش:

القائد (سعد تألب يتلف الجدني) كبير أعراب ملك سبأ وكبير (كندة) و(مذحج) و(حرام) و (باهل) و (زيدايل) وكل أعراب سبأ وحمير وحضرموت ويمنت، تقرب إلى سيّده (المقه بعل أوام) بصنم من البرونز الذهبي حمداً له لأنّه أوصل عبده (سعد تألب ذي جدن) ومن معه إلى عبران ليرابطوا بمدينة (نشق) عائدين من حضرموت ـ بعد غزوة سابقة لها ولقد وصلته ـ وهو مرابط ـ الأوامر من سيده الملك (ذمار علي يهبر ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنت ويمنت بأن يتولى (سعد تألب ذو جدن) قيادة قبيلة (سبأ أهل مأرب) وأعراب ملك سبأ و(كندة) و(نجران) و(سفلان) فانطلقوا ـ هو ومن معه ـ إلى منطقة (المحرم)، وجمعوا جيشهم في سبعة أيام فكان من (سبأ) ثلاثمائة محارب ومن الأعراب ثلاثمائة راكب رجالًا وفرسانًا. وهم الذين كانوا مرابطين معه في مدينة (نشق)، وانضمّ إليهم خمسون فارسًا، فانطلق بهذه القوة فهاجم أوّل ما هاجم مدينة (صواران)، وقد نازل أهل (صواران) في ضواحيها فألحق (ذو جدن) وجيشه بهم مقتلة، وأحرزوا فيئًا وسَبْيًا وغنمًا مُرْضيًا، فخضعوا له وساروا معه لمهاجمة أسياد (شبام)، فقتلوا منهم سبعين محاربًا، واكتسحوهم إلى المدينة فتحصّنوا فيها، وقاتلهم ثلاثة عشر يومًا حتى استسلموا وخضعوا له، وبعد ذلك أغاروا وحاصروا كلًا من (رطغة) و (سيئون) و(مريمة) و (حدب) فاستسلموا وخضعوا له، فأغار على (عر أهلان- حصن الأهل) و(تريم) فاكتسحوا مدينتهم بعد حصار دام اثني عشر يومًا ، واستولوا على ألف عريشة من عرائش العنب، وبعد أن خضع لهم كل هولاء أغاروا على (دمون) و(مشطة) و(عركليب ـ حصن كليب) فاستسلموا لهم، وهكذا هاجموا جميع مدن حضرموت ووديانها، وبعد ذلك عادوا قافلين بالمغانم من الأنعام والأموال وبالأسرى الكثيرين، ولقد قتلوا ألفًا وثلاثمائة تقطيعًا بحدّ السيوف، وجرحوا سبعمائة مقاتل، وأسروا ثلاثة آلاف أسير، وآبوا عائدين إلى مدينة (ظفار) نحو سيدهم الملك، وأحضروا معهم المدعُوّ (انمار)، الذي نصبه أهل حضرموت ملكًا، كما أحضروا كلًا من (ربيعة بن وائل) و (افصى بن جمان) و(أجشم بن مالك) و(ثوبان بن جذيمة الصدفي) و(يدع ... سيبنين) و(قضاع سيين) و(أربعات ... لاتى .... بعمهوبن ....

النقش IR٣٢ يتحدّث هذا النقش الذي نشره أيضًا مطهر الإرياني عن الحملة التي قام بها سعد تألب يتلف الجدني كبير أعراب ملك سبأ وكبير كندة ومذحج وحرام وباهل وزيد ايل وكل أعراب سبأ وحمير وحضرموت ويمنت لغزو حضرموت بأمر من ملكه ذمار علي يهبر ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنت (بداية القرن الرابع الميلادي).

وقد كانت القوة المقاتلة التي تحت إمرته مكوّنة من ثلاثمائة محارب من سبأ، وثلاثمائة وعشرين محاربًا من الأعراب راكبي الرحال والفرسان. وانضمّ إليهم خمسون فارسًا، وقد هاجم بهم مدينة صوران، وأخضعها وسار معه مقاتلوها لمهاجمة شبام والصدف.

وقاتل المدافعين عن مدينة شبام في ضواحيها فقتل منهم سبعين محاربًا، وتحصّن الباقون بها، فأخذ في مناوشتهم لمدة ثلاثة عشر يومًا، حتى استسلموا له وخضعوا.

وبعد ذلك أغار على مدن: رطغة وسيئون ومريمة وحدب وحاصرها فاستسلمت له هذه المدن وخضعت. وأغار على حصن أهلان وعلى تريم، واكتسح مدينة تريم بعد حصار دام اثني عشر يومًا، قام محاربوه أثناءه بقطع ألفي عريشة من عرائش العنب.

وبعد ذلك أغار على دمون (الواقعة بالقرب من تريم) ومشطة (الواقعة إلى الشرق من تريم) وحصن كليب فاستسلمت له هذه المدن.

وهكذا هاجم جميع مدن حضرموت ووديانها وعاد محمّلًا بالمغانم من الأنعام والأموال والأسرى. ولقد كانت

حصيلة هذه المعارك قتل ألف وثلاثمائة محارب حضرمي وجرح سبعمائة وأسر ثلاثة آلاف.

وعند عودته إلى مدينة ظفار نحو سيده الملك أحضر معه المدعو (أنمار)، الذي نصبه أهل حضرموت ملكًا، كما أحضر معه كل من (ربيعة بن وائل) و(أفصي بن جمان) و(جشم بن مالك) و(عدي بن نمر) و(قيس بن بشر آل) و(بهثم بن سكي) و(أثوبان بن جذيمة الصدفي) والصدف قبيلة حضرمية ورد ذكرها في نقوش سبئية وحميرية من القرن الثاني قبل الميلاد والقرنين الثالث والرابع الميلادي[٤٨]، وكذلك (يدع إل - أو يدع اب - ... السيباني) و(قضاع السيباني)، وسيبان أيضًا قبيلة حضرمية ورد ذكرها في نقش كرب إيل وتر (نقش النصر) وكانت حينها تقطن مدن أتّخ وميفع ورثّخم وتقع أراضيها حاليًا على بعد ٨٠ كم شمال ميفع في المرتفعات الواقعة بين المكلا وسوعن[٤٩].

ومن المؤكّد أنّ الحميريين قد احتلوا مرّتين على الأقل كلًا من عقران وشبام وصوران ومريمة وتريم[٥٠].

المدن والأماكن:

صواران (صوارن): سبق ذكرها في النقش السابق.

شبام (شبم): سبق ذكرها في النقش السابق وجاء لفظها هنا بلفظ شبام مما يؤكد خطأ كتابة لفظ شبوة محلها في النقش السابق.

رطفة (رطفتم): سبق ذكرها في النقش السابق.

سينون (سيؤن): مدينة مشهورة تتوسط وادي حضرموت، وهي عاصمته السياسية حاليًا، وما زالت تحمل ذات الاسم الذي ذكر في النقش.

مريمة (مريمتم): سبق ذكرها في النقش السابق.

حدب (حدب): حاول كل من فون

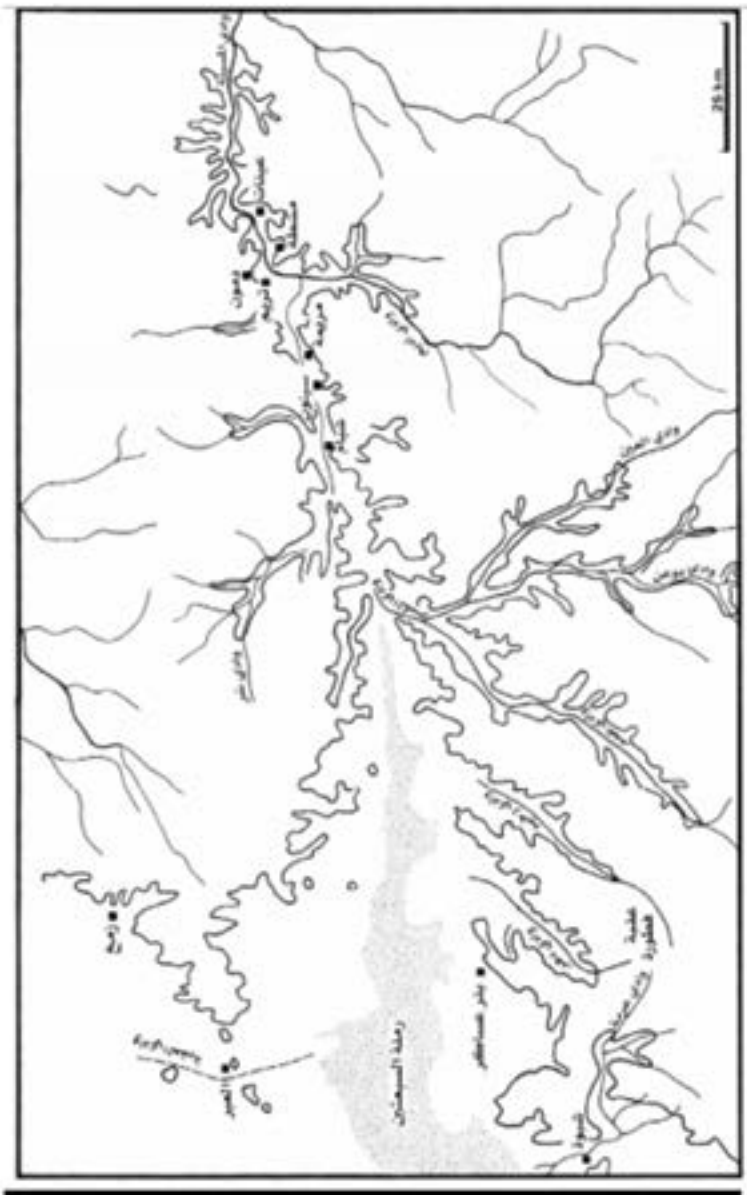

خارطة وادي حضرموت
عن بافقيه: توحيد...، مرجع سابق، ص ١٦٣

فيسمان وف. ميللر مطابقة مستوطنة (حدب) بالخرائب الواقعة بالقرب من قرية سونة في وادي عدم، والتي تحمل اسم (حدبة الغصن)، واقترح محمد عبدالقادر بافقيه البحث عن خرائب (عر اهلن) و(عر كليبم) في التلال المعزولة الواقعة إلى الشرق من مدينة تريم[٥١].

وبقي تحديد مكان هذه المدينة مجهولًا حتى سنوات خلتْ وتحديدًا في عام ٢٠١٠م؛ حيثُ تمّ عمل حفريات في موقع عادية الغرف جنوب مدينة تريم، وهو الموسم الخامس للعمل بهذا الموقع منذ بدء العمل في ١٩٨١م، فتم خلال الموسم المشار التعمّق في دراسة الاسم التاريخي لموقع عادية الغرف؛ حيث تمّ العثور على نقش في بقايا مباني في جنوب غرب الموقع بـ ٣٥٠م، وهو عبارة عن نقش نذري على كسرة من لوحة برونزية، مكوّن من أربعة أسطر وجزء من سطر، يعلوها شكل رأس أسد، ويذكر النص أنّ شخصًا وابنًا له قدّما تقدمة لربّ السماء سين ذي كهرخن بحدب نذرا....[٥٢] وموقع حدب بالفعل مثلما جاءت في النقش هذا بعد مريمة وقبل تريم.

عر أهلان (عر اهلن): قال ناشر النقش معلّقًا: يوجد في حضرموت أكثر من مكان اسمه العر ولكن أهلان لم أعرف عنه شيئًا، وكذلك عر كليب - الآتي ذكره - ولكن الهمداني ذكر آل كليب في نسب حضرموت[٥٣].

إذا أعدنا النظر إلى النقش فسنجد لفظ عر أهلان أي (حصن أهلان)، وهذا الموقع لا يعرف مكانه حتى الآن، وبإلقاء نظرة على أسماء المدن المذكورة في النقش فسنجدها مرتبة جغرافيًا من الغرب إلى الشرق، فبعد سينون تأتي مريمة، وهي معروفة، ثمّ تأتي حدب وهي معروفة مؤخرًا، ثم يأتي عر أهلان وهو لا يعرف موضعه، ثم تأتي مدينة تريم وهي أشهر من نار على علم، وعلى هذا فموضع حدب وعر أهلان بين مدينتي سينون وتريم، ويمكننا أن نحدّد موضع عر أهلان، فإلى الجنوب من مدينة تريم تقع منطقة باجلحبان، وهي واقعة تحت سفح جبل يسمى (جبل كحلان)، والواقع به حصن مطهر، حيث تلتقي عنده مياه واديي عدم وسر، والذي يرى الباحث أن الاسم حُرّف وصُحّف من أهلان إلى كحلان وبهذا يمكن أن يكون في هذا الجبل موضع عر أهلان. بينما يرى الدكتور بافقيه بأن عر أهلان ربما هو حصن الرناد بتريم، ولكنه لم يدلّل على هذا[٥٤]. ويرى الباحث بأنّ حصن أهلان يقع في المنطقة المذكورة وحيث أنه (عر) أي حصن أو قلعة في جبل وليس مدينة أو قرية كالمدن التي ذكرت في النقش.

تريم (ترم): سبق ذكرها في النقش السابق.

دمون (دمن): ذهب ناشر النقش إلى أنها دمون الهجرين؛ حيث أورد ذكرها في شعر امرئ القيس، وأنها من مدن الصدف[٥٥]، والصحيح أنّ دمّون المذكورة هي دمون تريم وهي تقع إلى الشمال الشرقي من مدينة تريم، وكانت ضاحية لها والآن بتواصل العمران أصبحت واحدة.

مشطة (مشعت): آخر المدن التي ذكرها النقش، وقد ذكرها الهمداني فقال: «ثم مشطة قرية مقتصدة»[٥٦]، وهي ما زالت تحمل هذا الاسم تقع إلى الشرق من مدينة تريم تبعد عنها حوالي ٨ كلم وقد عثر في أثناء عملية بناء أساسات منارة مسجد القرية الجديدة على أجزاء من نقوش إلى جانب آثار لقنوات ري ممّا يرجّح أنّ المسجد القديم قد بني فوق أنقاض معبد[٥٧].

عر كليب (حصن كليب): أما عر كليب فهو يأتي في ترتيب المناطق في النقش بعد مشطة، الواقعة إلى الشرق من تريم، وموضعه غير معروف، ويرى الدكتور محمد عبدالقادر بافقيه أن موقعه في التلال الواقعة إلى الشرق من تريم[٥٨].

ويذكر الهمداني في الأنساب في الإكليل أنه: «أولد ذو جدن : بني عوف وبني حقيق، وبني ربيعة وبني شخيم، والأذمور وآل عمرو، وهم بالمسفلة من حضرموت، وهم بنو كليب»[٥٩]، فأولئك هم بنو كليب أصحاب (عر كليب)، وكان عرهم بسفليّ حضرموت، ومنهم المرأة التي تُدعَى تهناة بن كليب، من قرية تنعة (إلى الشرق من منطقة الحصن وهي قرية ما زالت قائمة إلى اليوم)، التي قد خاطت للرسول صلى الله عليه وسلم كسوة، بعثتْ بها مع ابنها كليب بن أسد بن كليب، والذي وفد على الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وقال فيه شعرًا منه:

أنت النبي الذي كنا نخبره
وبشرتنا بك التوراة والرسل

والذي يشير إلى أنّ مؤلّفه كان يهوديًا، والأرجح أنه ينتمي إلى الحضارمة الأصلاء[٦٠].

ويقول الدكتور محمد عبدالقادر بافقيه عن عر كليب في آخر دراساته، بعد أن حدّده سابقًا بأنه في التلال الواقعة إلى الشرق من تريم بأن (عر كليب هو حصن العر اليوم وفيه بقايا حصن قديم)[٦١].

ثم جاءت جملة (ونجثو كل / هجر/حضرموت/وسررن) وشرحها هو (واستولوا على كل مدن حضرموت والسرير)، والسرير هو أحد أقسام وادي حضرموت المهمّة كما سبق ذكره، وجاء ذكره في نقوش أخرى منها (جام ٦٥٦- ٦٦٨)، وذكره الهمداني في (الإكليل) فقط وغاب عن (الصفة)[٦٢].

جدول مقارنة بين المدن والمناطق المذكورة في النقشين:

م	R31	IR32
١	صوأران	صوأران
٢	عقران	----
٣	شبام (وذكرت خطأ بشبوة)	شبام
٤	رطغة	رطغة
٥	----	سيؤن
٦	مريمة	مريمة
٧	----	حدب
٨	----	عر أهلان
٩	تريم	تريم
١٠	----	دمون
١١	----	مشطة
١٢	----	عركليب

المراجع :

١- الإرياني: مطهر علي، نقوش مسندية وتعليقات، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، ط٢، ١٩٩٠م.

٢- الإرياني: مطهر علي، المعجم اليمني في اللغة والتراث، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٩٩٦م.

٣- الأغبري: فهمي علي، التحصينات الدفاعية في اليمن القديم، رسالة ماجستير، ١٩٩٤م.

٤- الحاج: محمد علي، مدينة شكع وأرض يهمطل في ضوء نقش قتباني جديد مؤرخ بعهد الملك شهر يجل يهرجب، ضمن كتاب المملكة العربية السعودية عبر العصور، جامعة الملك سعود، الرياض، ٢٠١٣م.

٥- الحسني: جمال محمد، الإله سين في ديانة حضرموت القديمة، دار جامعة عدن للطباعة والنشر، ط١، ٢٠١٤م.

٦- الحموي: ياقوت بن عبد الله، معجم البلدان، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٧م، مج١.

٧- الحميري: نشوان بن سعيد، منتخبات في أخبار اليمن، دار الفكر، دمشق، ط٢، ١٩٨١م.

٨- الرياكي: أحمد صالح، الجديد في تاريخ تريم القديم، ضمن أبحاث تريم عاصمة الثقافة الإسلامية، ثلوثية بامحسون، دارحضرموت للنشر، المكلا، ٢٠١٠م.

٩- الرياكي: حصن العر في النقوش والمدونات التاريخية، مركز النور للأبحاث، تريم، ط١، ٢٠١٠م.

١٠- السقاف: عبدالرحمن بن عبيدالله، إدام القوت بذكر بلدان حضرموت، تحقيق: إبراهيم المقحفي، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ط١، ٢٠٠٢م.

١١- السقاف: وآخرون، التنقيبات الأثرية لموقع عادية الغرف وادي حضرموت ٢٠١٠م، تقرير غير منشور، الهيئة العامة للآثار والمتاحف، فرع وادي حضرموت والصحراء.

١٢- الهمداني: الحسن بن أحمد الإكليل، تحقيق محمد علي الأكوع، القاهرة، ١٩٦٧م، جـ٢.

١٣- الهمداني: الحسن بن أحمد، صفة جزيرة العرب، تحقيق محمد علي الأكوع، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ط١، ١٩٩٠م.

١٤- المشهور: علي بن عبدالرحمن، شرح الصدور بذكر بعض أحوال وسير وإجازات عبدالرحمن بن محمد المشهور، مخطوط بمكتبة خرد.

١٥- أبو الغيث: عبدالله، العلاقات السياسية بين جنوب الجزيرة العربية وشمالها ـ ق٣-٦م- وزارة الثقافة والسياحة، صنعاء، ط١، ٢٠٠٤م.

١٦- بارباع: مرعي مبارك، منطقة الكسر في وادي حضرموت، دار جامعة عدن للطباعة والنشر، ط١، ٢٠١٤م.

١٧- بافقيه: محمد عبدالقادر، حضرموت القبيلة والوادي في النقوش وعند الإخباريين، مجلة (المنتدى)، العدد (٨)، دبي، مايو ١٩٩٠م.

١٨- بافقيه: محمدعبد القادر، عودة إلى نقش عبدان الكبير(٢)، حولية (ريدان)، المركز الفرنسي للآثار والعلوم الاجتماعية، العدد (٧).

١٩- بافقيه: محمد عبدالقادر، توحيد اليمن القديم، ترجمة علي محمد زيد، المعهد الفرنسي للآثار والعلوم الاجتماعية، صنعاء، ط١، ٢٠٠٧م.

٢٠- بلفقيه: عبدالله بن حسن، صفحات مجهولة من تاريخ حضرموت، تحقيق مصطفى العطاس، تريم للدراسات والنشر، تريم، ط١، ٢٠٠٥م.

٢١- بلفقيه :حداد أبوبكر ، تريم اسم في ذاكرة الزمن، مجلة (الفيصل)، دارالفيصل الثقافية، الرياض، العدد (٣٠٠)، أغسطس – سبتمبر ٢٠٠١م.

٢٢- بيستون وآخرون: المعجم السبئي، منشورات جامعة صنعاء؛ دار نشر بيترز لوفان الجديدة، مكتبة لبنان ، بيروت، ط١، ١٩٨٢م.

٢٣- حبتور : ناصر صالح ؛ وحسين: أسوان محمد، عامل نشوء المراكز والمدن في اليمن القديم، مجلة (سبأ)، جامعة عدن، عدن، العدد (١٨ - ٢٠) أبريل ٢٠١٣م.

٢٤- حبتور : ناصر صالح، أسماء الأماكن في نقش عبدان الكبير، مجلة (سبأ)، جامعة عدن، العدد (١٨- ٢٠) أبريل ٢٠١٣م، عربش: منير؛ والسقاف: عبدالرحمن، نقش جديد من عهد يدع أب ذبيان يهنعم ملك قتبان ويدع أب غيلان ملك حضرموت، حولية (ريدان)، العدد (٧) عام ٢٠٠١م.

٢٥- عبدالله: يوسف محمد، أوراق في تاريخ اليمن وآثاره، دار الفكر، دمشق – بيروت ، ط٢، ١٩٩٠م.

٢٦- غاجدا: ايفونا، جنوب الجزيرة العربية موحداً تحت راية حمير، ضمن كتاب (اليمن في بلاد ملكة سبأ)، ترجمة بدر الدين عردوكي، باريس – دمشق، ١٩٩٩م.

٢٧- فرانتسوزوف: سرجيس، تاريخ حضرموت الاجتماعي والسياسي قبيل الإسلام وبعده، ترجمة: عبدالعزيز بن عقيل، المعهد الفرنسي للآثار والعلوم الاجتماعية، صنعاء، ط١، ٢٠٠٤م.

---

* مركز الرناد للتراث والآثار والعمارة - تريم.

الهوامش :

٤٨. عربش: نقش... مرجع سابق، ص١١٣.

٤٩. نفسه، ص ١١٣.

٥٠. سرجيس: تاريخ... مرجع سابق، ص١٢٢.

٥١. سرجيس: تاريخ... مرجع سابق، ص١٢١.

٥٢. السقاف : وآخرون، التنقيبات الأثرية لموقع عادية الغرف وادي حضرموت ٢٠١٠م، تقرير غير منشور، الهيئة العامة للآثار والمتاحف، فرع وادي حضرموت والصحراء، ص ١- ٤.

٥٣. الإرياني: نقوش... مرجع سابق، ص٢٠٤.

٥٤. بافقيه: محمد عبدالقادر، عودة إلى نقش عبدان الكبير (٢)، حولية (ريدان)، المركز الفرنسي للآثار والعلوم الاجتماعية، العدد (٧)، ٢٠٠١م، ص٣٢.

٥٥. الإرياني: نقوش... مرجع سابق، ص٢٠٤ - ٢٠٥.

٥٦. الصفة، ص ٨٧.

٥٧. الرياكي: الجديد... مرجع سابق، ص٢١٥.

٥٨. سرجيس: تاريخ... مرجع سابق، ص٢٤٥.

٥٩. الهمداني: الحسن بن أحمد، الإكليل، تحقيق محمد علي الأكوع، القاهرة، ١٩٦٧م، جـ٢، ص٣٧٧.

٦٠. سرجيس: تاريخ... مرجع سابق، ص٩٠.

٦١. بافقيه :عودة إلى ... مرجع سابق ص٣٢. والرياكي: أحمد صالح. حصن العر في النقوش والمدونات التاريخية.

٦٢. الإرياني: نقوش... مرجع سابق، ص١٩٥.

67
العدد (7)
يناير
مارس
2018م

في رحاب مخطوطات الأحقاف (١ - ٢)

١٩٨٣ - ٢٠٠٣م

لعل من أبرز الأهداف والوسائل التي كان يهدف مركز الأبحاث الثقافية في عدن إلى تحقيقها، البحث عن المخطوطات القيّمة وجمعها وتحقيقها ونشرها كما جاء في المادة (٥) من الباب الثالث من قانون المركز[١]، ونحت المادة (١٤) من الباب السادس أن له في سبيل تحقيق هذه الأغراض، حيازة كل أثر ثقافي يمني بما في ذلك المخطوطات والمؤلفات ذات القيمة العلمية عن تاريخ اليمن وحضارته[٢].

وعلى ضوء هذا القانون، سعت إدارة المركز منذ تأسيسها إلى إعداد اللجان العلمية الهادفة إلى رصد أماكن ومواضع المخطوطات في المحافظات ومنها شبوة ويافع وحضرموت وسواها، ثم تركزت جهودها على حضرموت؛ حيث البيوتات العلمية التي تحتفظ بالتراث الخطي، وتشكلت وفقًا لذلك (مكتبة الأحقاف) بدعم من هذه البيوتات العلمية، وبجهود كل من الأساتذة عبدالله أحمد محيرز، وعلي عقيل بن يحيى، وعبدالله عبدالكريم الملاحي، وعبدالقادر محمد الصبان، وعلي سالم بكير، وسواهم من ملاك المخطوطات وأرباب البيوتات العلمية في حضرموت، الذين بذلوا قصارى جهودهم في جمع المخطوطات اليمنية في حضرموت، وحملت كل مكتبة خطية اسم مؤسسها، وعدد مقتنياتها، وفهرست على ضوء ذلك، فهناك مكتبة بن سميط، وآل الحداد، وآل باسهل، وآل بن يحيى، وآل الكاف وسواهم.

د. أحمد صالح رابضة*

ولم تهيئ الظروف السياسية والثقافية لإدارة المركز فرصة سانحة للدفع بالكفاءات الراغبة في التأهيل في هذا المجال، وعلى الأخص في علم المخطوطات، وطرائق التحقيق والتوثيق، ويحسن بنا أن نعرف أن أحد العاملين في هذا الحقل قد شارك في دورة طويلة المدى في علم المخطوطات والتوثيق، وعند عودته لم يحظَ بالعناية والمساهمة في مجال تخصصه، فانكفأ ثم تحول إلى عمل إداري آخر ... وقد ألمحنا فيما تقدم أن ضعف الرؤية السياسية وقتئذ أو انعدامها قد أسهم في ضعف هذا المجال، ومجالات ثقافية عدة.

وقد حرص الأستاذ عبدالله أحمد محيرز مدير عام المركز، بعد أن أوصدت الأبواب أمامه بشأن المخطوطات وتحقيق التراث على العناية بالآثار والتنقيب عنها في مناطق أثرية عدة في جنوب اليمن في شبوة وأبين وحضرموت، وقامت البعثات الأوروبية والفرنسية بالتنقيب في هذه المواقع، يرافقها عدد من الآثاريين ممّن أكملوا دراساتهم في الآثار.

لجنة نشر المخطوطات:

وفي أحد اجتماعات مجلس الأبحاث، الذي انعقد في المركز في مطلع سنة ١٩٨٣م، عرض مدير عام المركز الأستاذ عبدالله محيرز خطة المركز، التي تضمّنتْ تأسيس وتشكيل لجنة نشر المخطوطات، وهي أول لجنة تُعْنَى بنشر المخطوطات في جنوب اليمن، وبعد نقاش مستفيض أقر الحاضرون انعقاد أوّل اجتماعاتها في سيئون وتريم.

وتشكلت اللجنة من التالية أسماؤهم:

أ. عبدالله أحمد محيرز
أ. علي عقيل بن يحيى
أ. حسن سالم باصديق
أ. عبدالله عبدالكريم الملاحي
أ. حسن صالح شهاب
أ. عبدالله محمد باوزير
أ. عبدالقادر محمد الصبان
أ. جعفر محمد السقاف
أ. علي سالم بكير
أ. أحمد صالح رابضة

وعقدت اللجنة أول اجتماعاتها في ٢٧-٢٩ أكتوبر من سنة ١٩٨٣م في فندق السلام، ومكتبة الأحقاف للمخطوطات بتريم، وتركزت المناقشة حول ثلاثة محاور:

١- مشروع التحقيق.
٢- نوع التحقيق المتفق عليه.
٣- الأمور المالية.

وخلصت الاجتماعات إلى اختيار ثلاث مخطوطات كمرحلة أولى:

١- تاريخ حوادث السنين ... المعروف بتاريخ بافقيه الشحري.
٢- العدة المفيدة لابن حميد.
٣- ديوان عبدالله باكثير.

واستعرض الأستاذ عبدالله محيرز مشروعه ومنهجه في العمل، واتفق الحاضرون أن تنشر هذه المخطوطات في حالها الأصلية، وتوضع لها المقدمات، والتعريفات، وتراجم المؤلفين، وفهارس المدن والقرى والقبائل اليمنية، وتفسير

الألفاظ العامية والأقوال والمأثورات، ومعالجة التصحيفات والتحريفات بالرجوع إلى مخطوطات ومصادر أخرى.

وتم توزيع العمل على النحو الآتي:

١- يقوم أعضاء اللجنة في سيئون بدراسة وتحقيق ديوان عبدالله باكثير.

٢- ويُدفع بالجزء الأول من (تاريخ بافقيه الشحري) للأستاذ أحمد عوض باوزير.

٣- يقوم أعضاء اللجنة بعدن بدراسة وتحقيق (العدة المفيدة) وتقسم المخطوطة أربعة أقسام.. على أن يفرغ الجميع من مهامهم خلال ثلاثة أشهر نوفمبر – ديسمبر – يناير من سنة ١٩٨٣م.

وأقر المجتمعون ميزانية مقترحة خاصة، واتفقوا أن تدفع اللجنة للمحقق ديناراً واحداً على كل صفحة من المخطوط.

وكانت قد تشكلت سكرتارية للجنة، مكونة من الأستاذين: جعفر محمد السقاف، وكاتب هذه السطور، وحرر المحضر يوم السبت ٢٩/١٠/١٩٨٣م[٣].

وأيًا كان الأمر، فقد تنبهت بعد حين، وبعد إلمامي بفن وعلم تحقيق النصوص، إلى أنّ الأستاذ عبدالله أحمد محيرز مدير عام المركز ورئيس جلسات اجتماعات اللجنة كان محقًا حينما أطلق على اللجنة لجنة نشر المخطوطات، ولهذا أشارت بعض توصياتها بنشر المخطوطة في حالتها الأصلية، وتضاف إليها التعريفات والتعليقات وسواها.

كان الأستاذ محيرز يعلم علم اليقين أن الكفاءات العاملة في اللجنة، لها اهتمامات مختلفة، ففيها الفقيه، والشاعر، والأديب، والقاصّ، والباحث، والسياسي، وجلّهم لم يدرس علم تحقيق النصوص دراسة منهجيّة أكاديمية، ولعلّهم بَعْدُ لم يحققوا نصوصًا خطية في الثمانينيات من القرن الفائت. لكن ما ينبغي توكيده أنّ هذه اللجنة هي أول لجنة لتحقيق ونشر المخطوطات في جنوب اليمن، وهي خطوة تُحسَبُ لقيادة المركز ممثلة بالأستاذين عبدالله أحمد محيرز، وعلي عقيل بن يحيى، ومن الحق التنويه أنه كان بالإمكان وقتئذٍ أن تكون هذه اللجنة الانطلاقة الأولى نحو تحقيق التراث الخطي، الذي اكتظّتْ به المكتبات الخطية، والبيوتات العلمية المختلفة، والذي تسرّب بعضه إلى خارج الوطن، وبعضه الآخر بيع بأبخس الأثمان، وتعرّضتْ أعدادٌ أخرى منه للعبث والقوارض، بحكم ضعف الرؤية والعناية على حدٍّ سواء، فبعض السياسيين الجهلاء كان يرى أنه تراث ماضوي، لا يتوافق مع التوجه العام للدولة وقتئذاك.

ومما يؤسف له أنّه لم تثمر جهود اللجنة، وظلّت المخطوطات في الأرفف، ولم تر النور في غالب الظن. أكاد أستثني مخطوطة تاريخ حوادث السنين المسمّاة خطأً (تاريخ بافقيه الشحري)، التي قمت بدراستها وتحقيقها ثم تقدمت بها إلى كلية الآداب، جامعة عدن لنيل درجة الماجستير... واطلع الأستاذ الدكتور جعفر الظفاري رئيس مركز الدراسات والبحوث جامعة عدن على مسوّداتها وأصولها الأولى، وأشاد بالجهود المبذولة فيها، والتقط بعض الهنات التي قمت بتصويبها بعد ذلك[٤]، وكان قد قرأ العمل من الدفة إلى الدفة، ولم يضنّ بوقته الثمين في مراجعتها، كما نصحني وقتئذاك أن أعرضها على جامعة كامبردج في بريطانيا لنيل درجة الدكتوراه، لكن الظروف لم تكن مواتية وقتئذٍ فلم أجبه إلى ملتمسه، أما التحقيقات الأخرى فلم أقف على واحدة منها، ولم يدعْ مدير المركز بعد ذلك إلى عقد جلسة جديدة لمناقشة نتائج أعمال اللجنة، وانشغل القوم بمهام أخرى.

وأيًا كانت الحال فقد تواصلت مساعي الأستاذ عبدالله محيرز رحمة الله عليه في جمع المخطوطات والوثائق بشتى الوسائل المتاحة، وهيأ الفرصة للمنظمات والمعاهد العلمية، وفق الخطة العامة لتصوير المخطوطات، كما استقدم عدداً كبيراً من الشرائط المقننة للمخطوطات اليمنية في حضرموت وسواها، واعتنى بقسم الميكروفيلم والميكروفيش، التي أفاد منها الباحثون والاختصاصيون أيّما إفادة، وقدم للمكتبة الوطنية عدداً من هذه الأجهزة والشرائط المقننة التي أفاد منها الباحثون بيد أنها تعرضت بعد ذلك للاندثار بفعل الإهمال والحروب التي شهدتها مدينة عدن، كما نقل وزير الثقافة وقتذاك مكتبة المركز الغنيّة بالكنوز العلمية في التاريخ والآثار إلى المكتبة الوطنية بعدن.

كان محيرز قد عقد العزم على تأسيس قاعدة بحثية تعد متميزة في تلك المرحلة، فوفر الكتب والمخطوطات والوثائق والأجهزة المختلفة، لكنه أخفق في اختيار الكفاءات البحثية من ذوي المهارات بسبب ضعف الرؤية العلمية عند أصحاب القرار في الحكومة وقتئذٍ التي لم تهيئ له فرصة اختيار الكفاءات المتخصصة في مجالات البحث العلمي، بل أخذت هذه الجهات في تعيين أفراد لا صلة لهم البتة بالبحث العلمي، فكانوا عبئًا ثقيلًا على المركز، وظل هذا التوجه المقيت قائمًا حتى يوم الناس هذا. فالمراكز البحثية في بلادنا لم تتمكن من استقطاب الكفاءات العلمية المتخصصة ولا العلماء والمفكرين والباحثين الذين لم يجلسوا على مقاعد الدرس الأكاديمي.

دراسة وتحقيق مخطوطة (تاريخ حوادث السنين):

هذه واحدة من المخطوطات المهمة التي تناولت أخبار القرن العاشر الهجري وعلى الأخص موضوعين مهمين:

أحدهما: يتعلق بجوانب من تاريخ الدولتين الكثيرية والطاهرية.

وثانيهما: أحداث وأخبار الغزو البرتغالي لبعض المدن الساحلية مثل: عدن والشحر وضواحيها[٥]. وقد اقتنى العلامة سارجنت أصولها سنة ١٩٤٧م، وكانت له صولات وجولات في ربوع حضرموت باحثًا مستقصيًا ومتنقلًا من منطقة إلى أخرى، ومن مكتبة خطية إلى أخرى، وأبتاع - على غالب الظن - عددًا من المخطوطات اليمنية في حضرموت، بعضها محفوظ اليوم في المتحف البريطاني أو في سواه من المكتبات الخطية العالمية. وقد اطلعتُ على نسخة باعطب منها في مكتبة الأحقاف في أثناء اجتماعات لجنة نشر المخطوطات سنة ١٩٨٣م، وعقدت العزم على دراستها وتحقيقها، وكان الأستاذ عبدالله عبدالكريم الملاحي وقتئذ هو القائم

بأعمال مدير عام مركز الأبحاث الثقافية، ولم أكن قد تعرفت على الأستاذ عبدالله محيرز، الذي كان كما بدا لي خارج الوطن، ورفعت رسالة إلى الأستاذ عبدالله الملاحي لتهيئة الفرصة لتحقيق مخطوطة (تاريخ حوادث السنين)، ومراجعة وتصوير نسخها المختلفة في تريم وسيئون، وبادر الأستاذ عبدالله الملاحي ووجه إدارة المركز باتخاذ الإجراءات اللازمة بصدد سفري إلى سيئون وتريم لتصوير المخطوطة، وشرعت في الرحلة التي بدأت من يوم الثلاثاء ١٩٨٥/١/٢٩م وحتى الخميس ٧/٢/١٩٨٥م لمدة شهر واحد، وأقمت في فندق السلام بسيئون.

كان مدير فرع مركز الأبحاث الثقافية في سيئون وقتئذ الأستاذ عبدالقادر محمد الصبان رحمة الله عليه، وكان المركز يتخذ له حيزًا في قصر السلطان[٦]، وكانت موازنة المركز ضعيفة لا تفي بالأغراض المتوخاة منها، ولما أوفدني المركز الرئيس بعدن إلى سيئون ظن الأستاذ الصبان أنني سأشكل عبئًا عليهم، ولهذا لم يرحب بي للوهلة الأولى، وقد أنبأته أنني قدمت لمراجعة وتصوير مخطوطة (تاريخ حوادث السنيين) للمؤرخ محمد عمر بافقيه المتوفى بعد سنة ١٠٠١هـ، فأجاب أن ليس لديه أوراق نسخ، وبعد أن اختليت به أنبأني أن المركز بعدن يبعث بالموفدين إلى سيئون من غير إشعار مسبق، كما فعل مع البعثة الروسية ومرافقيها اليمنيين، وأن موازنة الفرع لا تفي بالمهام الملقاة على عاتقه.

وكنت قد حملت معي حزمة من الأوراق لتصوير ما يمكن تصويره من المخطوطات، وكان الأستاذ الشيخ علي سالم بكير يعمل مراقبًا لمكتبة الأحقاف حينئذ، وكان ثمة غرفة في المركز تحتوي على أجهزة وآلات نسخ الرسائل الإدارية والمخطوطات والوثائق، فشرعت على الفور بالبدء في نسخ المخطوطة بنفسي، والذي استغرق أياما.

من أبرز موظفي المركز ممن التقيت بهم لأول مرة محمد الحبشي، وعلوي المشهور، والتقيت بالصدفة الأستاذ عبدالعزيز بن عقيل، الذي قدم إلى المركز لغرض ما، وهو اليوم من الاختصاصيين في علم الآثار في حضرموت.

كانت العهدة المالية التي في حوزتي لن تفي بمصاريف الرحلة العلمية، ولهذا شرعت في تقنين صرفياتي، وبت أتناول عشاء مكونًا من قطعتين من البسكويت وكوب من اللبن، وتباع هذه الوجبة الخفيفة بأربعة شلنات في مدينة سيئون، ويباع فنجان الشاي بشلنين ونصف، إن لم تخني الذاكرة.

في مكتبة الأحقاف للمخطوطات بتريم[٧] عثرت على ثلاث نسخ مماثلة من المخطوطة، نسخة باعطب، ونسخة بافقيه، ونسخة بصفر، وأوراق من نسخة أخرى ناقصة الأول والآخر، واستعرت نسخة تاريخ الشحر لباحسن جمل الليل الجزء الأول.

لقد بذل الشيخ علي بكير جلُ عنايته في أثناء إقامتي في تريم، وكان يتسمُ بسمات الطيبين، من دماثة خلق وروح عالية، وكنت أمتطي دراجته، التي تقلني إلى قصر القبة[٨]، والدراجات في تريم وسيئون مطايا العصر، ووسائل النقل النظيفة التي لا تلوث البيئة، ومعظم أهل المدينة يستخدمونها حتى النساء المخفرات يركبن خلف أزواجهن على الطريقة الأوربية، فإذا كان التريمي فيما مضى من الأزمان يمتطي الجمال والنوق، فإن أحفاده اليوم استعاضوا عنها بالدراجات النارية، ودراجة الأستاذ بكير أفادتني كثيرًا في تنقلاتي من قصر القبة إلى مكتبة الأحقاف؛ إذ كانت العهدة المالية التي في حوزتي لا تفي بالغرض المتوخى منها، وكان بكير هو قائد الدراجة الأمين، يتنقل بها من بيته إلى مقر عمله في مكتبة الأحقاف، وينقل عليها أغراضه اليومية من السوق.

وأنت تتجول في تريم وقتذاك، ترى الجمال والأبقار والمواشي والفلاحات، وهن يرتدين قبعات الخوص الواقية من أشعة الشمس الحارقة، تراهن في الصحارى والفيافي الخضراء التي تحيط بها أشجار النخيل إحاطة السوار بالمعصم، ولا شك أن هذه المواضع اليوم وبعد مضي خمسة وثلاثين عامًا قد استحالت إلى مبان طينية وعمارات خراسانية، فقد تطورت تريم وسيئون خلال الأربعة العقود الماضية.

كانت الإقامة اليومية في استراحة قصر القبة بأربعة وأربعين شلنًا، وأما الوجبات فدرجات ثلاث: الدرجة الأولى ٥,٥٠٠ دينار، والدرجة الثانية ٣,٣٠٠ دينار، والدرجة الثالثة ١,٦٥٠ دينار.

وقد قضيت في القصر أيامًا محدودة لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة أو تزيد قليلًا، والاستراحة، عبارة عن قصر بديع شيّده أحد أثرياء تريم، ووضع تصميمه المعلم المشهور عمر يعمر باحريش، وتعرض لجملة من الترميمات، كان آخرها على أرجح الروايات سنة ١٩٧٥م، وأعيد ترميمه وطلاؤه وفق مواصفاته القديمة، وأصبح استراحة يؤمّها الزوار والسياح، ثم فندقًا بديعًا[٩].

ثم عُدتُ أدراجي إلى سيئون حيث أتممت تصوير المخطوطات، وعلى الرغم من شحة إمكانات الفرع، فقد بذل العاملون في المركز قصارى جهدهم من أمثال محمد الحبشي، وعلوي المشهور، وربطتني أصرة صداقة مع الأستاذ عبد القادر الصبان، وإن لم يرحبْ بي في بادئ الأمر لضيق ذات اليد، وشحة إمكانات المركز، وشكواه من إدارة المركز الرئيس بعدن، التي قننت موازنة الفرع، وكانت تبعث البعثات الأثرية والوفود الزائرة من غير سابق إشعار، وأنبأني أنه يحرص على قراءة مقالاتي المنشورة في الصحافة المحلية في الثمانينيات وأوائل التسعينيات، وأنه كان يخالني شيخًا كبيرًا، وكنت أقول له رحمة الله عليه، إن هذه المقالات قد يخطئها التوفيق وقتذاك وتعوزها الدقة، ويؤخذ عليها عدم الإحاطة بالموضوع المطروق فيقول: لقد بذلت فيها وسع طاقتك على كل حال من الأحوال.

لقد أوتي الأستاذ الصبان، رحمة الله عليه، حظًا وافرًا من العلم بشؤون حضرموت، وتاريخها، وعاداتها، وتقاليدها، وأدبها وشعرها، ولم يغادر شاردة ولا واردة عن حضرموت حسب علمي، إلا

تناولها بالدرس والكتابة قدر عزمه، بل كتب كثيرًا عن اليمن كله، وخلف تراثًا كبيرًا ما زال بعضه قيد دفاتره، وبعضه طبع بالتصوير الفوتوغرافي على آلة النسخ (ستنسل).

وكان الأستاذ الصبان ممن عرفتهم متنوعًا طارحًا التكلف، ويتسم بالهدوء المشوب بالحدة، ويميل إلى الصمت والعمل الدؤوب، وإذا ولجت مكتبه وجدته يطبع بعض نتاجاته على الآلة الطابعه هو ونجله الذي لا يحضرني اسمه الساعة، وفي خاتمة عمره، وكسائر زملائه الذين سبقوه، خرج بخفي حنين، راتب تقاعدي ضئيل مثل راتب المؤرخ البحري حسن صالح شهاب، لا يتجاوز التسعة آلاف ريال، لذلك لم أجد مندوحة من القول إن نتاجات ومصنفات هذا العلم لم يطبع جلها، على غالب الظن، داعيًا جهات الاختصاص في حضرموت إيلاء العناية الكافية بتراث هذا الرجل، وهو تراث الأمة، أما ما أصاب القوم من علل وأدواء بسبب جهودهم العلمية وعبء الحياة وعدم العناية بهم، وماتوا عليها، فلنلتمس الأجر لهم من رب الأرباب.

وفي هذه الرحلة، التقيت بالأستاذ الوثائقي الباحث جعفر محمد السقاف، وزرت مركزه الوثائقي، الذي يضم أرشيفًا وثائقيًا في منزله، كما زرت حديقة سينون الواقعة في قلب السوق، ولفت انتباهي تلك الأسراب من الطيور الجميلة ذات الألوان الخضراء والصفراء، وذات الرأس الأسود المائل إلى الاغبرار، إنها كما تبدو لي من الطيور الصغيرة النادرة في بلادنا، وهي شديدة الشبه بالببغاوات الصغيرة، إن لم تكن هي.

إنّ هذه الحديقة الغناء بطيورها الصداحة المغردة في أمس الحاجة إلى العناية لا سيما وإن المدينة تخلو من الغربان أو تكاد، التي تعكر صفو حياتها.

والحقيقة أن الحضارمة أكثر اليمنيين رعاية وعناية وحفاظًا بالمظاهر الطبيعية الخلابة متى تهيأت الأسباب.

تجدر الملاحظة، أن لا أثر للغربان في سينون وتريم ونواحيهما، مما أثرى بيئة العصافير الجميلة، وهيأ لها سبل النسل والحياة الهادئة، وتنتشر أعشاشها المحكمة البناء والمتخذة شكلًا كرويًا في جوانب الحديقة، وهي مدلاة على الأغصان كأنها ثمار، وترى فتحة العش واضحة في أسفله، ولعل هذا الصنيع نوع من التمويه للأعداء.

والتقيت مصادفة في هذه الرحلة بالشاعر أحمد عبدالقادر باكثير وتجاذبت أطراف الحديث معه، وتركته يحدثني عن شتى المسائل المتعلقة بثقافة الأديب الكبير علي أحمد باكثير، فتحدث وأسهب، وتطرق إلى الأندية القديمة والصحف والحياة الاجتماعية والصراعات التي نشأت بين الطبقات المختلفة وقتذاك، ثم أتحفني بنماذج من شعره الرصين، الذي نظمه في القاهرة حيث كان هناك في زيارة لعمه الأديب علي باكثير، لقد أطال الحديث، وكان حديثًا ذا شجون عن الصراعات القديمة، التي تنشب بين العلويين والمشايخ والطبقات المختلفة الأخرى، وما يعقبه من صراعات عايشها وعاصرها، وألمح إلى المدارس ودور العلم والأندية، وأسهب في ذكر دور مدرسة النهضة في إثراء الأدب والفكر في حضرموت، وكان وقتذاك قد تجاوز العقد الخامس أو دلف إلى السادس.

ثم عُدتُ مُجَدَّدًا إلى المركز، وأخذت في نسخ بقية المخطوطات التي بين يدي، كما لو كنت واحدًا من العاملين في المركز، وفرغت من نسخة بافقيه، وأخذت في نسخ مخطوطة آل الحداد فنسختها وأتممتها، ثم دعاني علوي المشهور لزيارة المتحف، الذي يتّخذُ له حيزًا في القصر[١٠]، ويحتوي على عدد من النماذج الحضارية الأثارية الرائعة، جميعها تعبّر عن البيئة الحضرمية كل التعبير من ملبوسات الزواج والأسلحة العتيقة والأدوية الشعبية التي كان يتداوى بها الناس.

ويعد المشهور ملاحظ المتحف، أحد مؤسسي المتاحف في حضرموت، وكان يولي المتحف ومحتوياته عناية خاصة، ويكاد يحفظ المحتويات عن ظهر قلب، وأطلعني على جناح المسكوكات التي جمعها بنفسه، واحتفظ بها في منزله، ثم أودعها المتحف.

لقد أوشكت العهدة المالية على النفاد، وبقي لي منها خمسة عشر دينارًا أكثرها سينفق في استراحة تريم، ذلك لأنني سأدفع أجرة الغرفة وقدرها ٢,٢٠٠ دينار لليوم الواحد، أما الوجبات الغذائية فسأختار ولاشك أقلها تكلفة، وقد تبين لي من خلال زيارتي للاستراحة أن أقل الوجبات تكلفة هي ذات الدينار وستمائة وخمسين فلسًا، هذا إنْ راق وطاب لي طعام الاستراحة، ولا شك أنه سيطيب.

ثم عقدت العزم، بعد إتمام نسخ المخطوطات، على مراجعة بعض الأصول مثل (قلادة النحر) للفقيه الإمام العلامة أبي محمد الطيب بن عبدالله بن أحمد بن علي بامخرمة[١١]، و(غرر البهاء الضوي) لمحمد بن علي بن علوي خرد[١٢]، وديوان (محجة السالك) لأبي بكر بن عبدالله العيدروس، وديوان عمر بن عبدالله بن أحمد بامخرمة، و(النور السافر) لعبدالقادر العيدروس، ومخطوطات كثيرة متعددة ذات صلة وثيقة بالموضوع، أبرزها على سبيل المثال: ذيل على طبقات الأسنوي لبامخرمة، الذي استند وعوّل عليه محمد بن عمر بافقيه ونقل حوادث الغزو البرتغالي على مدينتي الشحر وعدن إلى كتابه، و(تاريخ حوادث السنين).

تجدر الإشارة إلى أن هذا الذيل اندثر ولا أثر له في المكتبات الخطية في حضرموت.

لم يأل الأخوة الأفاضل في مكتبة الأحقاف للمخطوطات، وفي مقدمتهم الأستاذ علي سالم بكير، جهدًا إلّا بذلوه معي في تذليل مصاعب البحث، في مظان المخطوطات، من أمثال المشهور وشهاب والكاف وسواهم، والذين قدموا خدمات جليلة للمكتبة منذ تأسيسها حتى يوم الناس هذا، وكانوا على علم ودراية وفهم لمقتنيات المكتبة ومظانها ومحتوياتها.

في الظهيرة اصطحبني الشيخ علي سالم بكير إلى منزله حيث تناولنا طعام الغداء، وكانت الفاكهة المفضلة التمر المهروس، وقيل لي إن النسوة يقمْن بهرسه بأرجلهن، ويحفظ في آنية محكمة الإغلاق للشتاء القادم، وتناولنا شاي البخاري المتميز في حضرموت،

وتجاذبنا أطراف الحديث، وحدثني طويلًا عن تأسيس مكتبة الأحقاف، وكان هو ممّن بذلوا جهودًا في جمع المخطوطات، وكان قبلئذ يعتني بمكتبة آل الكاف، ولما اضطربت الأمور في البلد أراد بعض الجهلة الذين لا يدركون شيئًا عن مآثر اليمن وحضارته ومخطوطاته ووثائقه أن يحرقوا المخطوطات بحجة أنها تراث ماضوي كهنوتي، وتحركت الأيادي الغيورة، واتصلت بالقائمين على التراث والمهتمين بالمخطوطات ومنهم الأستاذ علي عقيل بن يحيى والجهات المختصة فكفّ وأحجم هؤلاء الجهلة عن جهلهم، وتشكلت لجنة جمع المخطوطات والتراث سنة ١٩٧٢م، وضمّت لفيفًا من المهتمين، منهم علي سالم بكير، وحسين الكاف، وعمر شهاب، وغيرهم، وجمعت أكبر عدد من المخطوطات من البيوتات العلمية، ثم أودعت مكتبة المطبوعات التابعة لإدارة الثقافة، ولما بُني مسجد الجامع الجديد [١٣] دعا بكير إلى تخصيص قاعة لمكتبة المخطوطات، وفي إثر ذلك نقلت المكتبة إلى الجامع، وبذل بكير وموظفو المكتبة قصارى جهودهم في ترتيبها وتنسيقها في دواليب وأرفف خصصت لها، وعملوا على فهرستها بحسب الإمكانات المتاحة، وطبعت الفهارس الأولية بالتصوير الفوتوغرافي، وما زلت أحتفظ بنسخ منها، ثم دعا بكير إلى ضم مكتبة المطبوعات إليها، إتمامًا للفائدة، لكن هذا لم يتحقق بعد.

بعدها امتطيت مركبة بكير (الدراجة)، التي أقلّتني إلى الاستراحة، كان الجوّ كئيبًا ربما بالنسبة لي؛ لأنني المقيم الوحيد في القصر، لا أنيس ولا سمير، ولا رفيق سوى مخطوطة (النور السافر) للعيدروس، وهي النسخة الأم على حد قول بكير [١٤]، و(تاريخ الشحر) لباحسن جمل الليل، أو جمال الليل، اللذين يجثوان على مقربة مني، أقلب النظر في محياهما وصفحاتهما.

لقد أسدى إليّ الأستاذ علي بكير خدمات جليلة من إرشادي إلى أصول المخطوطات وامتطائي دراجته التي تقلّني من قصر القبة إلى مكتبة الأحقاف، وهناك أنهل من معين بامخرمة ومن قلادته ودواوين الشاعر بامخرمة.

وخلال هذه الرحلة كنت ألتقط العديد من الصور لمواضع اندثرت أو كادت في كل من سيئون وتريم وغيرهما من مدن الوادي، ومن سوء المطالع، أن كل هذه الصور التي التقطتها لمآثر سيئون وتريم، قبل أربعة عقود من الزمن، والمدينتان كانتا في وضع يختلف تمام الاختلاف عن وضعهما الحالي، قد احترق جلها، وبعضها الآخر ضاعت في أرفف وأدراج الصحافة والصحفيين ودور النشر، فقد التقطت صورًا بديعة للعشة من منازل آل الكاف، ذات الهندسة المعمارية البديعة، ومدارس، ودور، ومساجد مختلفة، وزوايا، وأربطة، وتسويرات قديمة اندثرت الآن لا محالة، أو تغيّرت ملامحها.

في الظهيرة ينتبذ الشيخ بكير ناحية في الجامع، وينطلق في دروسه اليومية، يحدث ويدرس طلاب الثانوية، وجمعًا من رواد المسجد، دروسًا في النحو والفقه، وفي ناحية أخرى تحلقت مجموعة من الصبيان الأحداث حول شاب من أسرة آل الكاف يلقنهم القرآن الكريم وبعظهم، ثم ينطلق صداح المؤذن، فينفض الجمع لأداء الصلاة، ثم يعود بعضهم ويتحلق حول الشيخ علي ليلقي عليهم درسًا في النحو، وأفادني أنه عُيّن عضوًا في المكتبة سنة ١٩٧٦م، حينما قدمت جامعة الدول العربية، وصوّرت عددًا من المخطوطات في السنوات ١٩٧٢-١٩٧٦-١٩٨٣م.

لقد أوشكت العهدة المالية التي بحوزتي على النفاد، وبدأ طعامي يقتصر على تناول وجبة الغداء المكوّنة من ربع دجاجة وصحن من الأرز وبعض من البندورة وثمن الوجبة باثني عشر شلنًا، أما العشاء فقطعتان من البسكويت (أبو ولد أو ميري).

وها أنا ذا في الأيام الأخيرة من زيارتي لكل من سيئون وتريم، التي اختتمتها بزيارة دار المطبوعات، وكانت زيارة سريعة عابرة، ثم عدت إلى الأحقاف، ومكثت سويعات مع بامخرمة في قلادته، وعرّجت على (عقد الجواهر والدرر في أخبار القرن الحادي عشر) لمحمد بن أبي بكر بن أحمد الشلي، وقلبت صفحات الأهدل وأبي شكيل.

---

* أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية وتحقيق التراث الخطي المشارك - جامعة عدن.

الهوامش:

١. دار الرئاسة، قانون رقم (٣٠) لعام ١٩٧٤م بشأن إنشاء المركز اليمني للأبحاث الثقافية، جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية، عدن ١٩٧٤م، ص ٢.

٢. دار الرئاسة، قانون المركز، ص ٢.

٣. لجنة نشر المخطوطات، النتائج العامة التي تخلص عنها اجتماع لجنة نشر المخطوطات المنعقد في سيئون في تريم ٢٧-٢٩ أكتوبر ١٩٨٣م.

٤. محمد عمر بافقيه المتوفي بعد سنة ١٠٠١هـ تاريخ حوادث السنين ووفاة العلماء العاملين والأولياء والصالحين، دراسة وتحقيق أحمد صالح رابضة، دار مطبعة جامعة عدن، عدن ٢٠١٠م.

٥. راجع هذه الأصول في سارجنت، أ ربي، حول مصادر التاريخ الحضرمي، تر: سعيد عبدالخير النوبان، د. ت، ص ٢١-٢٣.

٦. الحبشي، محمد عبدالقادر، قصر الثورة (الحصن الذيل) المركز اليمني للأبحاث الثقافية والآثار والمتاحف، سيئون ١٩٨٥م.

٧. بكير باغشيان، علي سالم سعيد، الجامع في تاريخ الجامع، د. ت، تريم ١٩٧٥م.

٨. يقع القصر في منطقة عيديد بتريم، شيده محمد بن حسين الكاف من أثرياء تريم، وقد استحال القصر إلى فندق بديع، يقع في باحته مسبح تحف به الأشجار والنخيل، راجع: الصبان، تعريفات تاريخية، ص١٧.

٩. الصبان، تعريفات تاريخية، ص ١٧.

١٠. يطلق عليه حصن البلاد أو الحصن الذويل الذي يعود بأصوله إلى سنة ٨١٤هـ/١٤١١م وعاصر تاريخ الدولة الكثيرية في أغلب مراحلها، واتخذ فرع مركز الأبحاث الثقافية حيزًا له فيه، وكان مقرًا لعدد من المصالح والمرافق الحكومية في سيئون. ينظر تفصيلًا لذلك في الحبشي، محمد عبدالقادر، قصر الثورة، المركز اليمني للأبحاث الثقافية والآثار والمتاحف، سيئون، د. ت، ص ١- ١٤.

١١. مجموعة آل بن سهل، ج ٣.

١٢. مجموعة آل بن سهل، تراجم ١٩٠.

١٣. باغشيان بكير، الجامع في تاريخ الجامع، ص٤٣.

١٤. مجموعة بن سهل، رقم ١٦١.

غيل باوزير يجري في مدينة عدن

كانت عدن كغيرها من الموانئ العالمية القديمة والوسيطة والحديثة ملتقى لتجار الشرق والغرب، وقد كانت وسيطًا تجاريًا وثقافيًا ممتازًا لموقعها الاستراتيجي العام، ولأنّ التجارة من العوامل المهمة لنقل الثقافة وتبادل المعارف بين الشعوب، لذلك نرى أنه خلال فترة ازدهار عدن تجاريًا كانت مزدهرة ثقافيًا؛ حيث كانت المدينة تعجُّ بالعلماء ودور العلم، فالتجارة دائمًا وأبدًا تستمر بصحبة الثقافة، لذا رأينا التجّار (الحضارم) يغرسون بذور الدين الإسلامي والثقافة الإسلامية في جنوب شرق آسيا كالهند وإندونيسيا وبورما وماليزيا والصين.

الشيخ/ أمين سعيد عوض باوزير*

وهكذا كان أجدادنا الأوائل قد وفّقهم الله عز وجل، فأسهموا في إرشاد غيرهم إلى دين الحق، وأوقفوا حياتهم على نشر دعوة الإسلام في جميع أصقاع الأرض، فظلّت عدن تنعم بنعمة الإيمان مهتدية بهدي ربها متبعة تعاليم دينها الإسلامي الحنيف.

وبما أن مدينة عدن هي ثغر اليمن الباسم والمدينة العامرة من آلاف السنين وسوق من أسواق اليمن السعيد بما تملك من بيئة جاذبة للعلم والعلماء والزوّار والمهاجرين من المدن والقرى كافّة؛ حيث يحبُّ الإنسان أن يقيم في مثل هذه البيئة التي تهيئ له سبل العيش والطمأنينة والأمن و الاستقرار، فقصد هذه البلاد من قصد، وتوطّن بها للأبد، فأصبح جزءًا منها وأصبحتْ جزءًا منه.

وفيما يلي تراجم لبعض هؤلاء العلماء الأعلام ودعاة التنوير من غيل باوزير الذين رحلوا إلى مدينة عدن وهم:

محمد بن أحمد باحميش

٧٩٨هـ -٨٦١هـ

ولد الإمام العلامة القاضي محمد بن أحمد بن عبد الله باحميش بغيل باوزير سنة ٧٩٨هـ، وكان أحد كبار العلماء والمشاهير الفقهاء من القرن التاسع الهجري، كما كان أحد أعلام الفتوى ورجال التربية والتعليم في عدن.

درس عليه وانتفع به خلق كثير من أجلّهم الإمام محمد بن أحمد بافضل، والعلامة عبد الله بن أحمد بامخرمة، والأستاذ حمزة الناشري وغيرهم.

دخل عدن بعد أن اشتهر بالفقه سنة ٨١٦هـ ونزل حافة (البصّال)، وأقام أولاً عند القاضي عمر بن محمد اليافعي، ثم استقل بداره.

من مشايخه في عدن الفقيه علي بن عمر بن عفيف الحضرمي، والقاضي عمر بن محمد اليافعي وغيرهما.

تولى القضاء في عدن والتدريس في (مسجد البصال) في أواخر دولة بني رسول، وفي أول عهد الدولة الطاهرية فصار قاضي القضاة في عدن.

وله عدة مؤلفات منها:

١. شرح الحاوي. قال عنه الإمام السخاوي: شرح حسن مبسوط.

٢. مجموعة الفتاوى.

وكانت وفاته في شهر رمضان سنة ٨٦١هـ، ودفن في المقبرة نفسها التي فيها جثمان الشيخ العلامة محمد أحمد الذهيبي المسمى بالبصّال وكثير من العلماء، أمثال القاضي علي بن عمر بن عفيف الحضرمي، والقاضي تقي الدين عيسى بن محمد اليافعي، وأولاده عمر وعلي، وغيرهما من الأفاضل.

وقد وردت إشارة طيبة و رائعة ومباركة لمسجدنا (مسجد البصّال) بعدن سجّلها المؤرخ العلامة الشيخ الطيب بامخرمة في كتابه (تاريخ ثغر عدن) في صفحته رقم ١٩٩ وهي كما يلي:

قال بعض الصالحين إذا زارهم قال: (هذه التربة روضة من رياض الجنة).

وهذا من فضل ربنا وتوفيقه أن جعل لمسجدنا (البصال) ميزة خاصة وعظيمة دون سائر مساجد عدن لله الحمد والشكر.

مسجد البصّال أو مسجد الذهبي

محمد بن أحمد بافضل

٨٤٠هـ - ٩٠٢هـ

ولد العلامة محمد بن أحمد بن محمد بافضل بتريم، ونشأ بغيل باوزير؛ حيث قرأ القرآن الكريم، ولزم الفقيه محمد بن علي باعديلة، و أخذ عنه الفقه وفي غيل باوزير أيضًا قرأ (الإحياء) للإمام الغزالي، ثم ارتحل إلى عدن، ودرس الفقه على يد الإمام محمد بن أحمد باحميش، و الحديث والتفسير على يد القاضي محمد بن مسعود باشكيل.

تولّى القضاء والتدريس بعد وفاة أستاذه باحميش ، وقصده الطلبة من جميع أنحاء اليمن.

له مؤلفات كثيرة منها:

١. العدة والسلاح في أحكام النكاح.
٢. شرح ألفية البرماوي.
٣. شرح الأبصار مختصر الأنوار.
٤. شرح المدخل.
٥. تراجم صحيح البخاري يذكر فيه وجه مناسبة الترجمة للحديث.
٦. رسالة في العمل بالربع المجيب.

وقد توفي رحمه الله في عدن سنة ٩٠٢هـ.

عبدالله محمد باوزير

١٢٩٩هـ - ١٣٥٤هـ

ولد العلامة الشيخ/عبدالله بن محمد عبد الله بن عوض بن عمر بن طاهر باوزير بمدينة المكلا سنة ١٢٩٩هـ ١٨٨١م، ونشأ بها تحت رعاية والده.

فقيه، داعية، خطيب، صوفي.

تعلم القراءة والكتابة، ثم قرأ على والده الشيخ محمد وعلى بعض شيوخ العلم بالمكلا المقررات الدينية.

بعد عودة الشيخ/محمد عمر بن سلم من مصر إلى الشحر سنة ١٣١١هـ ١٨٣٩م وتخرُّجه على كبار مشايخ الأزهر الشريف، وتصدّيه للوعظ والإرشاد بمساجد الشحر، وجلوسه للتدريس بمسجدي عيديد وابن عمران، قصده الشيخ عبد الله في أول زيارة له إلى خارج المكلا، وبدأ دراسته عليه وظل ملازمًا له.

وأقام الشيخ بإحدى غرف الرباط والمعهد بغيل باوزير المخصصة لإيواء الطلاب الغرباء ليكون قريبًا من شيخه، وبقي في الغرفة حتى وفاة شيخه الذي كان قد ابتنى له منزلًا خاصًا مستقلًا عن المعهد.

مارس مع ذلك الوعظ والإرشاد وإلقاء الدروس في مساجد المدن والقرى القريبة، وكان ذا قدرة عجيبة على الوعظ والإرشاد والتأثير بالناس، فأحبّه الناس وتزاحموا على دروسه ومواعظه.

وكان حسن الصوت يجيد ترتيل القرآن الكريم، وكثير الخشوع عند قراءة القرآن، وربما قرأ في الصلاة

الشيخ/ عبدالله محمد بن طاهر باوزير

بعض السور الطويلة وودّ المصلون لو أنّه يطيل ويطيل .

كان سريع البديهة، قوي الحجة خصوصًا لدى دخوله في بعض الخلافات والمناكفات، وكان يصدع بكلمة الحق، ولا يخاف في الله لومة لائم.

رفض ولاية القضاء الشرعي في المكلا التي كلفه بها السلطان عمر بن عوض القعيطي في عهد الوزير حسين بن حامد المحضار، وغادر المكلا إلى صور بعمان وبعد شهر توجّه إلى مدينة عدن .

وفي قلب مدينة عدن يقع مسجد (بانصير)، وهو مسجد صغير متواضع قام ببنائه في مطلع القرن الرابع عشر الهجري الفاضل/عوض بكران بانصير، من أهالي الشحر وعلى نفقته الخاصة، وفيما بعد سُمّي المسجد باسمه.

وقد اكتسب هذا المسجد مكانة كبيرة وشهرة عظيمة وسمعة طيبة بسبب تردُّد بعض العلماء عليه ، والتدريس فيه وهم من ذوي التقوى والصلاح والعلم، من أمثال الشيخ / سالم بن محمد بن سعيد باوزير - (مولى النقعة) - ، وهي من ضواحي غيل باوزير، وكان قد مكث بالمدينة المنورة (٣٥) سنة، وانتفع به كثير من الناس، منهم تلميذه الشيخ/عبد الله بن طاهر باوزير، الذي كان يلازمه مثل ظله ليلًا ونهارًا.

مسجد بانصير - بحافة الشريف - كريتر عدن

فلمّا عاد الشيخ سالم إلى بلده (النقعة)، وتوفي بها سنة ١٣١٨هـ، وقد أعقبه في التدريس بعد ذلك في مسجد (بانصير) الشيخ/ عبد الله بن طاهر: حيث أخذ يفقه الناس في أمور دينهم ودنياهم، ذكر ذلك الأستاذ والصحافي والمحامي محمد علي لقمان في صحيفة (فتاة الجزيرة)؛ حيث كان يحضر دروسه العامة مع كثير من الشباب.

وقد أعاد نشر ذكريات الصحافي المحامي محمد علي لقمان كاملة الأستاذ/ عبدالرحمن خبارة في كتاب بعنوان: (نشوء وتطور الصحافة في عدن ١٩٣٧م - ١٩٦٧م) في صفحة ١٢٠.

وهذه بعض من ذكريات الأستاذ/ محمد لقمان اللطيفة والطريفة أيام دراسته الأولى في حلقاته بمساجد عدن باختصار وتصرف، قائلًا:

«ما إن بلغت الثامنة من عمري حتى التحقت بحلقة السيد/ عبدالله بن حامد الصافي، وكان رحمه الله من علماء الحديث في مسجد (الشيخ عبدالله الخطيب العمودي)، الذي اشتهر بمُنطق البَقَرَة، وقرأت عليه المنطق والبيان والبديع.

وكان أبي رحمه الله يدرس الفرائض للبقري على يد الشيخ/ عبد الله بن طاهر باوزير الحضرمي في مسجد بانصير، كما حفظت على يد هذا الشيخ كتاب الزبد وأبي شجاع وأبي فضل، وكان الفقه والنحو والأدب أهمّ ما يهتمّ به الناس في عدن.

وفي تلك السنوات الخوالي تعرفت بالسيد/ عبد الرحمن بن عبيد الله مفتي حضرموت، وبالسيد/أبي بكر بن شهاب الشاعر والأديب صاحب الأرتقيات، وكان السيد ابن عبيدالله ينتقد قراءتي لكتاب النصوص لابن

مسجد العيدروس - كريتر عدن

عربي، ويقول: إن تلك الفلسفة ستفسد عقيدتي وأنا في الطفولة، ولكني احتفظت بعقيدتي رغم مطالعتي لمؤلفات ابن عربي وابن رشد والإمام الغزالي، وكنت أذهب إلى مسجد العيدروس مع صديقي المرحوم السيد/ زين بن حسين العيدروس، وقد كان والده يقرّبني، وكان السيد/ عبد الله عمه يدعو لي كلّما يراني أذهب إلى صلاة الجمعة وأنا ألبس الجبة الخضراء الحرير والعمامة وأجادل الفقهاء والعلماء» انتهى

وكانت عودة الشيخ عبد الله بن طاهر باوزير إلى المكلا إثرَ خلاف نشب بينه وبين رجال كنيسة البادري بعدن، بسبب التحذير من مدارس النصارى والتشبه بهم، ولا تزال عدن حتى اليوم تلهج بذكر بعض أيامه التي قضاها بها، وتحفظ له مواقفه الحميدة والشريفة وجهاده للذبّ عن الإسلام، ومن تلاميذه محمد علي لقمان المحامي والصحافي ووالده، والشيخ سعيد مدّي مدير مدرسة (بازرعة الخيرية) سابقًا، والتاجر المعروف السيّد عبدالله صالح المحضار.

وافته المنية يوم الأربعاء ٢١ جمادى الأولى ١٣٥٤هـ / ١٩٣٥م، وكان يوم تشييعه مشهودًا، شارك فيه آلاف من عارفي فضله، ودفن بجوار شيخه العلامة/ محمد بن سلم في قبّته الواقعة في جهة الغرب من الغيل.

و الحمد لله أولاً و آخرًا ...

أهم مصادر البحث:

١. تاريخ ثغر عدن لأبي محمد عبد الله الطيب بامخرمة.
٢. الفكر والثقافة في التاريخ الحضرمي للمؤلف الأستاذ / سعيد عوض باوزير.
٣. عدن لؤلؤة اليمن للدكتور محمد علي البار.
٤. العلامة عبد الله بن طاهر للأستاذ/ أحمد عوض باوزير. مجلة الفكر عدد إبريل مايو يونيو ٢٠١٦م الصفحة الثامنة.
٥. ثلج الفؤاد بالأمن و السلم في ترجمة العلامة بن سلم و تاريخ رباطه الشهير بالتعليم و العلم. تأليف الشيخ/ أحمد عمر بارفعة. تحقيق الأستاذ / سامي بن محمد باشكيل.
٦. صفحات من تاريخ عدن. لأمين سعيد باوزير.
٧. مساجد عدن. لأمين سعيد باوزير.
٨. من أبرز أعلام الدعاة و التنوير في عدن خلال مائة عام من الزمن. لأمين سعيد باوزير.
٩. أعلام التربية و الإعلام. لأمين سعيد باوزير.

75
العدد (7)
يناير
مارس
2018م

كتاب : (حضرموت إزاحة النقاب عن بعض غموضها)

ملاحظات وآراء

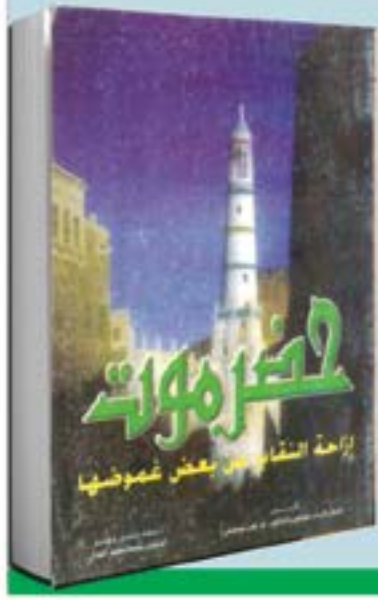

يعد كتاب (حضرموت إزاحة النقاب عن بعض غموضها) تأليف دانيال ميولن – وفون فيسمان، من أهم الكتب التي وصفت حضرموت ومناطقها وعرجت على جبالها وهضابها ووديانها، ناهيك عن وصف دقيق لأهلها وبيوتها إلى غير ذلك، الذي أثلج صدري في هذا الكتاب حبهما للاستطلاع والمعرفة ليس قولًا بل عملًا لذلك اقتحما الصعاب والأخطار في سبيل تدوين كل ما يشاهدانه بنفسيهما، وإن كان لي بعض الملاحظات والتوضيح لبعض ما ذكر في كتابهما سنذكره في محله.

سالم محمد بجود باراس

سوف أقتطع بعضًا من نص الكتاب ثم أعلق عليه، وبخاصة ما يخص مرتفعات هضبة حضرموت، وسنعرج لمحطات تاريخية تُذكر لأول مرة منذ أربعينيات وخمسينيات القرن الماضي، ليتم توثيقها وحفظها للتاريخ والأجيال، عندما كتبت هذا المقال بصحيفة (أخبار دوعن) الالكترونية وموقع (اليمن العربي) وجدت تفاعلًا كبيرًا من المثقفين والمهتمين بالتراث الحضرمي الأصيل، فأحببت أن أدونه في مجلة (حضرموت الثقافية)، ولحسن الحظ تفاعل معي شخصيات مهمة من قبائل نوح وسيبان وأتحفوني بمعلومات قيّمة ومهمة ستكتب هنا لأول مرة، وسنفصل بإسهاب قدر الاستطاعة ما ورد في كتاب (حضرموت إزاحة النقاب عن بعض غموضها) وبخاصة فيما يخص الهضبة بمرتفعات حضرموت، وكما قيل في المثل الشعبي (أهل مكة أدرى بشعابها)، فهناك معلومات كثيرة وردت في الكتاب مبهمة وتحتاج توضيحًا وفهمًا سنحل خطامها، ونفك لثامها، وبالله نستعين.

الموتور الدليل للرحالة:

• «ذكر في كتابهما (الموتور) فهو دليلهما إلى دوعن ووادي حَمم والنصب وغيرها وأن منطقته (الحسي) بكور سيبان والتي تعتبر أعلى جبل بحضرموت بالرغم من أن ارتفاعه لا يتعدى ٧٠٨٨ قدمًا... ». انتهى.

(الموتور) اسم شخص من قبيلة آل سيبان يسمى عمر بن عبدالله باكردس المرشدي السيباني. ولماذا سُمي الموتور؟ إليك السبب.

إنه تحرك من المكلا عصرًا ووصل القويرة بدوعن اليوم الثاني ظهرًا.. فلما سئل متى تحركت من المكلا؟ أخبرهم الخبر لم يصدقوا ذلك... فقالوا له: إنك موتور. أي سرعة سيارة، ومن ذلك اليوم سُمي (الموتور). وما يزال أولاده على قيد الحياة منهم العقيد المقدم عبدالله عمر الموتور وسليمان وسالم، وسالم هذا استشهد في (مولى مطر) عام ١٩٥٥م، وزوجته حامل، فلما ولدت سُمي المولود سالمًا أيضًا تخليدًا لاسم أبيه، وجميعهم يطلق عليهم لقب أبيهم (الموتور) إلى يومنا هذا.

• وكما ذكر الكتاب «سُمي (الموتور) وهو لقب حديث استحقه بجدارة؛ لأنه

كان يقطع المسافة من دوعن إلى المكلا في يومين وليلتين عندما كان يحمل الرسائل الحكومية العاجلة، وكان يحظى بثقة الوزير الكاملة... ». انتهى.

فسُمي الموتور لسرعته وخفته لإيصال الرسائل من المكلا إلى دوعن سواء للحكومة أو لأي شخص يدفع من التجار والمواطنين.

وهناك شخص كان ينافسه هو (البَرق) وهو لقب لشخصية من آل سيبان، سريع وخفيف في إيصال الرسائل من المكلا إلى دوعن أو العكس وهو تحديداً من قبيلة السموح، وهذين الشخصين ما زالت شهرتهما على كل لسان عند قبائل نوّح وسيبان (البرق والموتور).

يسمى الذي يحمل الرسائل من المكلا إلى دوعن أو العكس بالمكاتبة، ويشترط عليه إيصاله في وقتٍ محدد ما لم فليس له أجرة، وكانت الأجرة بـ(الفرانصة كما يقولون محليًا) قروشًا فضية معروفة، وغالبًا ما يقطع المكاتبة المسافة راجلًا في يومين بلياليها، والسريع منهم في يوم ونصف اليوم كـ(الموتور والبرق)، طبعًا قد يمشي المكاتبة ليلًا ونهارًا فلا يرتاح إلا قليلًا، ويحاول أن يختصر الطرقات عبر ممرات صعبة، ويجتاز بطون الأودية لكي يصل في الوقت المحدد له.

• كان الموتور شجاعًا ورجل المهمات الصعبة، حتى صاحب الكتاب ذكر له أنه تعهد لهما بالحماية وأنه سيضحي بحياته لأجلهما فقال: «... وقال بصوت رقيق إنه يشهد الله أن يضحي بحياته من أجلنا، وسوف يوصلنا بمشيئة الله سالمين مع ممتلكاتنا إلى باصرة حاكم دوعن.. ». انتهى.

ما يلبس رجل القبيلة:

• وتم وصف عمر بن عبدالله باكردس الملقب بـ(الموتور) من قبل الكاتب فقال: «... كان (موتور) صغير الحجم، وشعره المموج المدهون الأسود معقوص بضفيرة جلدية رقيقة حول رأسه، ويعلق على رقبته سلسلة يتدلى منها خاتم فضي يتوسطه حجر بُني مسدير في حجم ظفر الإبهام، ويلف حول خاصرته قماشًا داكن الزرقة وضع فيه غمد سكينه (يسمونها جمبية) وكان هذا كل لبسه... ». انتهى.

كان الوصف رائعًا وجميلًا، ولزيادة توضيح للمبهم من هذا الوصف وشرح ما يقصده الكاتب، نقول معروف إن قبائل نوّح وسيبان لهما عادات وتقاليد في اللبس، وقد وضعنا كتابًا عن هذه

العادات والتقاليد بشكل مفصل بعنوان (زبدة الخلاصة في عادات وتقاليد حضرموت)، وهو تحت الطبع.

فرجل القبيلة دائمًا ما يدهن رأسه بزيت السمسم وكذلك يديه ورجليه، وهذا بشكل يومي صباحًا ومساءً كعادة درج عليها، وما يعلقه في رقبته هو زينة يسمى عندهم (فص) أي فص من الفضة وبطرفه حجر كريم كالعقيق والزمرد وغير ذلك. وأما ما يلفه حول خاصرته فهو (الصبيغة) واحدة يلفها على خاصرته وواحدة على كتفه؛ وهذه الصبيغة مصبوغة بلون يميل للأزرق وعادة ما يبيخ لونه في الجسم ويترك أثرًا واضحًا للعيان.

ومن أهم ما يتقلد به رجل القبيلة هو السلاح وكان قديمًا (بو فتيلة، وبو قمع، والميزر، والشرفة، والعيلمان، وبو عطفة)، وغيرها من البنادق (السلاح) قديمًا، وآخرها كما هو معروف (الرشاش الآلي).

كذلك يرتدي رجل القبيلة الخراطة المُزينة يدويًا -كما يبدو أمامك في الصورة- وعلى رأسه الغشاء؛ وهو يستخدمه لحفظ سلاحه من الغبار والأتربة، وأحيانًا يلفهُ على رأسه كزينةٍ وعادةٍ توارثها عن أجداده، وأما حذاؤه فهو حذاء (باجحيش) المعروف، وما زال يستخدم إلى يومنا هذا في بعض مرتفعات هضبة حضرموت.

أوفى حمول باكردس:

وعلى ذكر عمر باكردس الموتور السيباني، هناك مثل شعبي لرجل من آل باكردس قديمًا يقول (أوفى حمول باكَردَس) وهذا المثل ما زال يتداول بين قبائل نوّح وسيبان فما حكاية هذا المثل؟!!

هذا المثل لرجل يُدعى سالم باكردس من آل سيبان كلفه أحد تجار دوعن وتحديداً من منطقة (الخريبة) بجلب سكر له على الإبل من المكلا، كان سالم باكردس قوي الجسم عريض المنكبين، ورجل مشهود له بالصلاح والتقى، فحمل البضاعة لهذا التاجر، وفي الطريق مطرت السماء فأصاب السكر بلل، فوصل إلى الخريبة، فلما وزن التاجر بضاعته صاح قائلًا: لن أعطيك أجرتك كاملة فالبضاعة ناقصة. غضب باكردس واحمرّ وجهه فأخذ برقبة الرجل وعلقه في الهواء بكلتا يديه والناس ينظرون وهو يقول له: قل (أوفى حمول باكردس) قل: (أوفى حمول باكردس) فصاح الرجل وكاد يختنق: (أوفى حمول باكردس..

أوفى حمول باكردس) فذهبت بين الناس مثلًا، فالرجل فهم أنه اتهام له بالسرقة، وهذا عيب وشنار وجرم لا يغتفر للحضرمي لا سيما في ذلك الزمان.

فصار هذا المثل يقال لمن أنجز عملًا أو لمن استلم حقه من شخص كاملًا غير منقوص فيقول: (أوفى حمول باكردس).

محطات ونقاط السيارات قديمًا:

• ذكر المؤلف (المربعات) التي وصفها بهذا الاسم في هضبة مرتفعات حضرموت مرورًا من منطقة (الحسي) ووادي حمم والسوط... ». انتهى.

المربعات يقصد بها بيوتًا صغيرة سواء من الحجر الخالص هو الحجر ومادة الجير ما يسمى عند نوح وسيبان (القرف) تسمى هذه المربعات (السرين) وتستخدم كنقطة عبور واستراحة للقوافل والمسافرين وعابر السبيل.

وسنذكر المحطات قديمًا على (الطريق القبلية) لهضبة مرتفعات حضرموت منذ أربعينيات وخمسينيات القرن الماضي، وهي محطات وقوف واستراحة للسيارات قديمًا، وغالبًا ما تكون الاستراحة عند هذه النقاط والمحطات (السرين) و(النَقَاب)؛ والنقاب: هي حفرة تنقب في الصخر يدويًا يتم فيها تجميع المياه، ومفردها نَقبَة. وهي:

• النويمة (قرية صغيرة تابعة لأرياف المكلا، يسكنها قبيلة العكابرة، منهم الشاعر الشعبي سالم بحلص، والشاعر المعروف حسن بانمر العكبري).

• إديمة (منطقة يسكنها قوم من قبائل نوح).

• بين اللصوب.

• بين الجعار (منطقة يسكنها المراشدة من قبائل سيبان).

• نقاب باقعر (معظم سكانها من المراشدة آل سيبان).

• الشورة (نقطة عسكرية يتمركز فيها الأمن زمن الاحتلال البريطاني، وفيها موقع استراحة للبريطانيين شيدوه بأنفسهم ما زال قائمًا إلى يومنا هذا، والشورة تابعة لأرياف مديرية المكلا).

• بين الجبال (قرية معروفة، ويقطنها المراشدة من آل سيبان).

• القُمرة (قرية صغيرة على الطريق القبلية، يسكنها المراشدة من آل سيبان).

• الدهماء (قرية معروفة، سكانها من آل باصريح وآل باراس).

• الفرضة (قرية صغيرة، يسكنها السموح من آل سيبان وآل بن مالك).

• جول عَبيد (وهو جول في مرتفعات هضبة حضرموت، كانت بريطانيا تنوي إقامة مطار فيه، وبدأ العمل فعلًا وما زالت أكوام الحجارة إلى يومنا هذا موجودة لبدء المشروع، ولكن القبائل عارضت على ذلك).

• الصدع وطريق الحبل (الصدع هو عقبة تنزل فوق رباط باعشن بدوعن مباشرة، كانت محطة لنزول القوافل. وطريق الحبل: عقبة مشهورة بدوعن تنزل أمام منطقة الرشيد مباشرة، وهي من أشهر الطرق القديمة بدوعن زمن الحكم البريطاني والقعيطي).

تم ذكر هذه المحطات لي من قبل المقدم عمر أحمد بن ريشان باصريح، وقمت بوضع شرح مختصر لهذه المناطق للتعريف بها.

طرق القوافل قديمًا في الهضبة:

ولزيادة التوثيق سنذكر نقاط القوافل التي كانت تمر بها منذ أربعينيات وخمسينيات القرن الماضي من المكلا وحتى مديرية دوعن، فهذه محطات تاريخية ومهمة جدًا تبخرت من ذاكرة هذا الجيل الجديد، بل بالكاد يتذكرها حتى كبار السن فبحثت عنها فوجدتها عند الشيخ سالم أحمد بن الشيبة بن ريشان باصريح، وقد بلغ من العمر قرابة الثمانين وما زال قوي الذاكرة، فقد كان جَمالًا في ذلك الزمان، على الإبل والحمير، ويعرف هذه الطرق ويحفظها عن ظهر قلب. وإليكم هذه النقاط والمحطات للقوافل قديمًا التي تأخذ ستة أيام بالحمولة على الحمير وثمانية أيام للإبل من المكلا إلى دوعن. وهناك نقاط قريبة من بعضها قد تتعدى ثلاثة كيلومترات ونحوها يمر عليها الجمّالة ويبيتون المساء بنقطة أخرى كـ(بريرة)، و(الفرضة)، و(المَسيل)، و(صفاء الحارة)، و(عقبة قرامص). وهناك طرق قد يعرج عليها الجمّالة بطريق مختصرة مثل (ثقبة) ونقطة (نقاب باخميس)، فيختلف الحال حسب سرعة أصحاب القافلة وسروحهم إلى دوعن، فالإبل تأخذ ثمانية أيام بسبب أنها تطلق للأكل في الخلاء فيتم التأخير، بينما الحمير يتم رصنها وتُعطى أكلها سريعًا وتستأنف الرحلة فيصلون في ستة أيام، وهذه مراحل مشتركة للقوافل وهي كالآتي:

اليوم الأول: يبدأ السروح (السروح: يبدأ من شروق الشمس صباحًا) من مدينة المكلا، والبَراد (البراد: يبدأ من بعد الظهر وتعد فترة استراحة للطعام والشراب) في منطقة ثلة باعمر، وبعد الظهر من ثلة باعمر إلى منطقة الرشح بحمم والمبيات فيها (المبيات: النوم في هذه المنطقة حتى الصباح).

اليوم الثاني: السروح من الرشح بحمم والوصول ظهرًا إلى منطقة عنكدون، وبعد الظهر ترويحة (الترويحة: تبدأ من بعد الظهر) إلى منطقة الحَسي والمبيت بها حتى الصباح.

اليوم الثالث: السروح من الحَسي وتصل القافلة ظهرًا قرية بين الجبال، وترويحة من هذه القرية وحتى منطقة المَطحَنة والمبيت فيها.

اليوم الرابع: يبدأ السروح من منطقة المطحنة والوصول ظهرًا إلى قرية الدهماء، وبعد أخذ استراحة قصيرة تستأنف الرحلة إلى منطقة الحَرجَة والمبيت فيها حتى الصباح.

اليوم الخامس: يبدأ السروح من الحرجة والبرّاد ظهرًا في منطقة ثيبَة، وترويحة منها إلى رأس الحبل (وهي عقبة مشهورة ومعروفة تطل على دوعن) فيتم المبيت فيها.

اليوم السادس: يبدأ السروح من عقبة الحبل ويتم نزولها؛ وبعد ذلك كل قافلة تتجه إلى الجهة التي تريدها في دوعن.

وصف قرية الدهماء وما حولها:

• ذكر الكاتب في الفصل الثالث «...وتتكون قرية الدهماء كما يبدو من حوالي عشرين منزلًا صغيرًا شيد الجانب الأسفل منها من حجارة غير منسقة وشيد الجانب الأعلى من الطين، وبها قلعة مربعة ضخمة مبنية من الحجارة في الدفاع عن القرية ويسكن فيها العمدة. وفي حافة القرية بناء من الطين يستعمل جماعيًا لدرس الحبوب. وهناك أفران لشواء اللحم وهي عبارة عن أكوام صغيرة من الحصى توقد عليها النار حتى تصبح ساخنة ويشوى عليها اللحم. كان عدد المصابين بالعمى وبأمراض العيون الأخرى مروعًا، والمقبرة التي تقع خارج القرية كبيرة مغطاة بأكوام من الحجارة مما يعطي انطباعًا بأنها حديثة، ويبدو أن (الدهماء) ابتلت بوباء...» إلى أن قال الكاتب: «وبعد أن اجتزنا الدهماء شاهدنا بحيرة صناعية، تم حفرها بجهد كبير لتحفظ ماء المطر، كانت جافة في ذلك الوقت، وصلنا بريرة بعد نصف ساعة من المغيب حيث يقع مكان إقامتنا لليل بالقرب من قرية صغيرة...». انتهى.

قرية الدهماء[1] كتبت عنها استطلاعًا في مجلة (شعاع الأمل)[2] وكذلك كتبنا عنها في موضوع (حصون نوح وسيبان ولبنة والحيسر تحت المجهر)، في مجلة (حضرموت الثقافية)[3]. ما يهمنا تفسير بعض ما ورد في هذا النص.. يقول: (وبها قلعة مربعة ضخمة..) يقصد (حصن الدهماء)، للمزيد عن معرفة هذا الحصن ارجع لمجلة (حضرموت الثقافية)[4]. ويقول الكاتب: (يسكن فيها العمدة) يقصد مقدم القبيلة[5]، ومعروف أنّ لكل قبيلة مقدمًا يدير شؤون القبيلة في السلم والحرب، ويحل النزاعات والخلافات في القبيلة، وإليه يرجع كل أفراد القبيلة، وصوته مسموع، وأمره نافذ، وحكمه مُطاع بدون مراوغة؛ لهذا ساد في ذلك الوقت الأمن، وطبعًا المقدم حكيم وعادل ولا يميل لطرف ولو كان أقرب المقربين له.

• ويقول الكاتب: «وفي حافة القرية بناء من الطين يستعمل جماعيًا لدرس الحبوب. وهناك أفران لشواء اللحم؛ وهي عبارة عن أكوام صغيرة من الحصى توقد عليها النار حتى تصبح ساخنة ويشوى عليها اللحم...». انتهى.

الذي هو (في حافة القرية) يقصد به (الوصر) مساحة خمسة أمتار في خمسة أمتار تقريبًا، يتم فيها درس الحبوب من محصول كل سنة وما زال (الوصر) عند قبائل نوح وسيبان قائمًا إلى يومنا هذا. وأما الأفران التي تحدث عنها الكاتب هو ما يسمى (المضباة) وهي عادة أصيلة ما زالت إلى يومنا هذا تستخدم لضبي اللحم في الطبيعة في الأعياد والأفراح وغير ذلك، حيث يتم جلب أحجار كبيرة توضع على شكل دائرة، ثم تملئ بحصيات صغيرة مختارة بدقة وخفيفة، بعد ذلك يتم وضع الحطب عليها وفوق الحطب يوضع مجموعة حصيات أيضًا ويتم إشعال النار حتى تخمد ويتم ضبي اللحم على الحجر المسخن وتحته الجمر وهذه هي ما تسمى (المضباة).

أما المقبرة التي تحدث عنها الكاتب وكان تفسيره بأن أهلها ابتلوا بوباء فهذا غير صحيح إطلاقًا، فصحيح أن المقبرة أكبر من القرية ولكنها مدفن لكل موتى القرى المجاورة في ذلك الزمن، وهي تقع بالقرب من الخط وطريق القوفل، لذلك تم دفن الكثير من الغرباء فيها.

وأما قوله: «وبعد أن اجتزنا الدهماء شاهدنا بحيرة صناعية تم حفرها بجهد كبير لتحفظ ماء المطر»، البحيرة الصناعية يقصد بها (الكريف)، وهي حفرة يتم حفرها يدويًا وبمشقة وجهد كبير ليتم تجميع مياه الأمطار فيها، وتستخدم للشرب ولعابر السبيل وسقي المواشي والإبل وغير ذلك.

الرحلة إلى وادي منوة:

• في الفصل الثالث: تحت نفس العنوان (رحلة قصيرة إلى أنقاض قوم عاد) يقول الكاتب عن أحمد العجوز السيباني: «... ويعرف الطريق جيدًا.. فقد قادنا إلى بحيرة عميقة تحجبها الصخور، وحولها جدران مستقيمة مليئة بماءٍ بُني اللون. ورغم أننا لم نجرؤ على الشرب منها فإننا نستطيع على الأقل أن نستحم فيها. واعترض دليلنا على الفكرة فهو يعتقد أن في الماء ثعابين ضخمة ولم نر زواحف خطيرة ولم نصدق الرواية. لكن أردنا إظهار احترامنا للرعب من الخرافات التي صورها لنا البدو في هذه البقعة الجميلة من الطبيعة، لذلك تركنا فكرة السباحة». انتهى.

• ما زال صاحب الكتاب يتحفنا بمعلومات رائعة عن أسرار وخفايا هذه الأودية الجميلة في حضرموت وما تخفيه من كنوز أثرية ومعالم حضارية.. والبحيرة العميقة يقصد بها: نقرة في وسط الصخر تسمى عند البدو (بالقَلت وجمعها قلوت) تستخدم للشرب ولعابر السبيل منذ مئات السنين، ولقد ذهبت بنفسي مشيًا على الأقدام إلى هذا الموقع مسافة ٣٠ كيلومترًا من قرية الدهماء، وهي بحق جميلة جدًا، وهناك قلوت كُثر في أودية مرتفعات الهضبة الناظر إليها فعلًا يكاد يصفها ببحيرة لجمالها وخاصة (قلوت وادي راغ)، و(قلت القلت)، و(قلوت وادي فرعون) وغيرها الكثير في مرتفعات هضبة حضرموت. ولقد كانت لي رحلات ومغامرات إلى هذه

المناطق وغيرها، وكلها كانت مشـــيًا على الأقدام والنزول إلى أودية سحيقة وعميقـــة ولا تخلو من الخطر، ولكن المغامرة وحب الاستكشاف كان أقوى من أي هواجس أخرى، وكانت لي قاعدة دائمًا أرددها على مســـمع تلاميذتي وزملائي: (لا توجد كلمة مستحيل في قاموسي)، وقاعدة (سنصنع من التاريخ عمرًا جديدًا) تراثنا وتاريخنا يحتاج إلى نبش من قبوره وأن نبث فيه الحياة ليتجدد لكل زمان ومكان.

وما ذكره الرحـالة دانيال فان ميولن وفون فيســمان عن هذه البحـيرة الطبيعية كان وصفًا جميلًا. وأما قوله: (بـماء بُني اللون) فهذا اللون يأتي من صبيحة السيل الذي جاء من ضرع السماء ويسمى عند البدو (بالماء الكَرع) وبعد أيام يتصفّى الماء من الرواسب وغبار الطين. ولقـد كان أحـمد العجوز السيباني ذكيًا وحكيمًا لمنعه لهذين الرحالين من الاغتسال في هذا الماء، وصنع معروفًا وأوهمهما أن بـــالماء ثعابين ضخمة بغض النظر سواء اقتنعا أم لا ولكن نجح في صدهما عن الاستحمام في هذا (القلت) الذي يعد موردًا للشرب للبدو وأغنامهم وإبلهم.

• وتحت عنوان (رحلة قصيرة إلى أنقاض قوم عاد) يذكر الكاتب بأنهما اصطحبا أحمد العجوز أحد رجال قبائل سيبان وهذا النص: «وقال أحمد: وهو أحد رفاقنا السيبانيين بعد أن أغريناه بعطاء جزل إنه تجول في تلك الأنقاض وتذكر نقوشًا رسمها قوم عاد على سطح صخرة في وادي ثقب وهي ليست بعيدة تقع في الشمال الشرقي من طريقنا وبجانبها بقايا منازل سكنها أولئك القوم في أيام نبي الله هود... ».

اسم الوادي هذا (وادي منوة) لقد ذهبت إليه أكثر من مرة والكتابة موجودة في وادي (ثقبة) وهذا المكان زرته أكثر من عشر مرات وبه كتابات ونقوش حميرية كتبت بخط المسند كما يبدو لي، وقد تم فك شفرات بعض هذه النقوش كما يذكر الكاتب نفسه من قبل البروفيسور (موردمان) من برلين فوجدت أنها نقوشًا لأسماء وأعلام.

السيد أبوبكر بن شيخ الكاف:

• يقول الكاتب: في الفصل الرابع وادي دوعن «توجد فقط مدرستان أسس كليهما ويصرف عليهما السيد الرائع من تريم (أبوبكر بن شيخ الكاف) إن قيام هذا الشخص القيادي من منطقة الكثيري بتأسيس ودعم معظم المدارس في منطقة القعيطي أمر غير عادي ويعود الفضل لكثير من المدارس في المكلا والشحر إلى كرم السيد الكاف، يوجد في الخريبة ٧٠ إلى ٨٠ تلميذًا، ومدرسة أخرى في قيدون بها ٢٠ إلى ٥٠ تلميذًا».

لم يترك الكاتبان شاردة ولا واردة إلا ودوناها للتاريخ والجيل الصاعد، يؤسفني أن هذا السيد أبو بكر بن شيخ الكاف، رجل الخير والفضل العظيم في حضرموت مطمور في ذاكرتنا وذاكرة جيلنا الحاضر، بل لا يعرف عنه أي شيء ويذكره رحالة أجنبي ويعطيه قيمته ومكانته، ونحن وأبناؤنا لا نعرف عنه شـــيئًا، وهو الداعم ورجل الخير لهذه المدارس في حضرموت ودوعن وغيرها.. نحن نتعلم أول من اخترع السيارة من الغرب، وأول من صنع كذا وكذا ونحفظها عن ظهر قلب، بينما تاريخنا وتراثنا لا نعلم عنه شيئًا خذ هذا على سبيل المثال لهذا الرجل السيد أبو بكر الكاف وذكرها الكاتب نفسه بالنص «السيد أبو بكر كان أول من أدخل السيارات إلى حضرموت وشق الطرق إلى سيئون وتريم، وأول من بنى المدارس ودعمها ماليًا، وأول من جلب طبيبًا هنديًا يعمل في حضرموت». انتهى.

وقفة تأمل للحضارم:

كفى بهذا فخرًا يا أهل حضرموت التراث والتاريخ. أختم بنص للتفكير وإعمال العقل للكاتب للحفاظ على النمط التراثي الحضرمي الأصيل، فقال في نفس الفصل الرابع وادي دوعن: «وعندما عبرنا القرين اندفع نحونا أبناء السيد محمد بن عبدالله بن طه البار وهو المنصب وقادونا في زهو إلى منزل والدهم يستحق المنزل بحق مشقة الزيارة فرغ من حداثته إلا أنه حافظ على النمط القديم، كل النقوش الخشبية على الأبواب والنوافذ والزخرفة فوق الألواح الحديدية المطلية بالقصدير ورؤوس المسامير حضرمية أصيلة..» وعندما وصف الكاتب البيوت وصف بيت البار نفسه فقال: «ووضعت في منزل البار مرايا في السقف وهو تقليد حديث وقبيح». انتهى.

أيها القارئ والمثقف قف عند آخر عبارة للكاتب، وتفحصها جيدًا بعقلك وفكرك وهل بدأ الحضارم يخلعون تقاليدهم وتراثهم وعاداتهم واستبدالها بالحديث وكيف ينظر لك المثقفون الغربيون وأنت تستبدل تلك النقوش الحضرمية الأصيلة بزخارف حديثة لا تمت لتاريخك وتراثك في شيء؟

هل ما زلت تحتفظ بتقاليدك وعاداتك الأصيلة التي هي فخرك وتاريخك التليد، كم موقع أثري ما زال بحوزتك؟ وهل يعرف تلاميذك عنه شيئًا أو هو صورة كصنم مجرد روح تسكن قلب جماد؟

الهوامش:

١. ينظر: مجلة (حضرموت الثقافية)، العدد (٤)، لعام ٢٠١٧م؛ ومجلة (شعاع الأمل)، العدد (١٥٩)، لعام ٢٠١٥م.

٢. نفس المصدر.

٣. مجلة (حضرموت الثقافية)، العدد (٤)، لعام ٢٠١٧م.

٤. مجلة (حضرموت الثقافية)، العدد (٤)، لعام ٢٠١٧م.

٥. ينظر: مجلة (شعاع الأمل)، العدد (١٤٦)، لعام ٢٠١٤م؛ وينظر كتابنا (المقدم الشاعر سعيد بن سالم بانهيم المرشدي وشعراء آخرون مع عادات وتقاليد من سيبان).

الوتر السادس
80
العدد (7)
يناير
مارس
2018م

أبوبكر سالم بلفقيه وقصيدته (ليلة الحد)

موهبة الشاعر الفنان أبوبكر سالم بلفقيه تجاوزت قدرات الآخرين من الفنانين قوة وسيطرة لامتلاكها قدرة فذة على صنع صوته الخاص كلمات وغناء أهلته لأن يدخل في مضايق التراث الغنائي الحضرمي وخصوصياته التي تحتاج إلى صوت عظيم يجسده، فالتراث القوي بحاجة إلى موهبة قوية تماثله وتقترب منه قوة وتحدياً وتطويراً[1] وقد أدرك أبوبكر ذلك، فكان أن اهتم بالتراث الغنائي الحضرمي الذي لا يستدعيه استدعاء تسجيلياً ليتغنى به كما هو، بل يضيف إليه محاولاً إدخال قيم فنية أخرى إليه منطلقًا من شجاعته الفنية ومن ثقته بمقدراته، فينفذ ما يرغب ذوقياً وفنياً في تنفيذه، وإن لم يلق هذا النوع من التغيير شيئًا من الدراسة الجادة تكشف ما أحدثه أبوبكر.

د. عبدالقادر علي باعيسى

إن شخصية أبي بكر سالم بلفقيه الفنية كانت شخصية إيجابية أو مرتكزًا مهمًا لتعزيز التراث الحضرمي ،وإن ترديده لألحان التراث يعني أنه عندما سافر لم يسافر وحده وإنما حمل وطنه معه[2] فإذا ضاق به مجال حياته في السفر لجأ إلى التراث، وهذه القصيدة (ليلة الحد) مليئة بلحظات الألم والحزن وبكثير من التأزم النفسي مما توحي به كلماتها بصورة غير مباشرة فللاغتراب أثره الإيجابي في أن يعود بلفقيه إلى مكانه القديم واجتماعيته القديمة عبر اللحن التراثي الطالع من أعماق حضرموت ، حتى لينبثق من بين ثنايا هذه القصيدة (الأغنية) صوت داخلي عميق وحزين لبلفقيه يشعر بشجاه كل من استمع إليه وهو يغني هذه الأغنية، وفي هذه المناجاة التي يبديها نحو أهله ومجتمعه وأرضه يوجد تماه شعوري وانفعالي مع كل البلد (حضرموت) ما دام يتخذ لحن تراثيًا من ألحانها عبر من خلاله عن تجربة حنينه وشوقه الذي يعاني منه، وهو في هذه الحالة يبحث عن ذاته في الوقت الذي يبحث عن وطنه، أو يبحث عن ذاته من خلال وطنه الذي يراه في الكلمات-اللحن[3] إنه لا يستدعي البلد استدعاءً عابرًا مفرغًا من الشعور، وإنما يعكس تجربته الأليمة في حلم العودة إلى الذات – الوطن من خلال هذه الأغنية التي جمعت بين كلمات بلفقيه ولحن من ألحان التراث الحضرمي الأصيل[4] وعليه فمما يبدو لي أن أبا بكر بلفقيه كان يستدعي اللحن التراثي المناسب لكلماته وفق سياق وجداني وشعوري يكتوي به، فيرى لحنًا غنائيًا من ألحان التراث أقدر على إعطاء الدلالات التي يحرص على البوح بها في حالة معينة لا سيما مما له علاقة بالحنين إلى الوطن والأهل[5].

وهكذا تهيء المعاناة والشوق نوعًا من الامتزاج الداخلي بينه وبين بلده، فاستخدام هذا اللحن التراثي المتين الذي نظر إليه الفنان أبوبكر بلفقيه بحساسيته الخاصة يبدو كما لو أنه أكسب اللحن التراثي إيحاءات جديدة وظلالًا جديدة تنبثق عن الحالة النفسية أو الضرورة الموضوعية التي يعاني منها[6] وبأسلوب جدلي: لعل اللحن التراثي هو الذي ولد هذه المعاني التي انداحت في كلمات الأغنية بتلقائية شديدة، فأضاف أبوبكر بصوته بعدًا جماليًا إلى هذا اللحن[7].

إن علاقة بلفقيه بماضيه الشعبي والمحلي في تريم وفي وادي حضرموت عمومًا هي علاقة جذرية متينة تشكلت في ذاكرته الشعبية والروحية منذ طفولته فأراد من خلال لحن هذه القصيدة أن يتغنى بماضيه أو بحياته الاجتماعية الشعبية أيام شبابه بوصفها

قيمًا روحية وثقافيه ووجدانية وحضارية، وبلفقيه في هذا ليس بعيدًا عن التراث الطيني الذي نما فيه بكل ما يحمله في جنباته من أغاني الزراعة والبناء وأغاني الأطفال والإحساس بدفء البيت ونكهته المأخوذة من طبيعة البيئة نفسها(٨).

ولعلنا ما زلنا نشم نكهة الطين وتأثيراتها فينا إلى اليوم وبشكل كبير، مما لا نجده في مباني الاسمنت التي بدأت تغزو الوادي، حيث بدأ يتدخل مزاج مختلف ونفسية مختلفة(٩) وهذه القصيدة (ليلة الحد) تثير فينا مكامن البيت والحارة والأزقة القديمة، أي أنها تثير فينا ترابطًا جماليًا جماعيًا(١٠) ولذا فأبوبكر من خلال هذه الأغنية يلتقي بالوطن حتى لئن لم يسافر إليه، ويلتقي بالحبيبة حتى إن لم يسافر إليها، فالمكان موجود في (سينون) و(وسط سينون) و(الغناء) و(شعب عيديد) و(ذيك المناظر) والزمان موجود في (ليلة الحد) و(ليالي الأنس) و(ليالي الصبا)، وأبوبكر يكتب هذه القصيدة وهو يعيش في بيوت غريبة من الاسمنت لا تولد فيه الحنين والأشياء الأولى والذكريات فيزداد إلى بيته الأول حنينا، ولم يعد أمامنا إلا أن نرى بلفقيه يبكي من شدة الوجد وهو يتذكر من خلال هذه القصيدة الأماكن القديمة، والوجوه القديمة، والجلسات الفنية القديمة، وروائح العطر والبخور، والطرق الترابية، وروائح الأزقة(١١).

وربما كان هذا اللحن التراثي الذي اتخذه أبوبكر لقصيدته (ليلة الحد) لا يلتفت إلى جماله اللحني أحد في حضرموت، فأعطاه بلفقيه وهجًا جديدًا وأعاد له طاقته التأثيرية والانفعالية في نفوس الناس، فهو يدل على الماضي كما يدل على الحاضر، وهو فيما يبدو يحقق لأبي بكر أقصى درجات الإحساس بوجوده الحضرمي إن جاز التعبير(١٢).

وأخيرًا فإن القصيدة عند أبي بكر سالم بلفقيه جزء من الأغنية وليست الأغنية جزءًا من القصيدة، إذ يبني القصيدة على نظام الغناء واللحن، فأنت أمام الأغنية من أول كلمة في القصيدة حيث لا يهتم بالخيال والصورة بقدر ما يهتم بالتوقيع وجمال الألفاظ وسلاستها، فرؤيا أبي بكر للحياة والحب رؤيا موسيقية أو رؤية طربية والعلاقة لديه بين الحب والموسيقى علاقة جدلية لا يحيد عنها.

قصيدة (ليلة الحد)

ليلة الأحد لي مرت بصفو الخواطر
ذكرتنا بشيء ما كان عا البال خاطر
ذكرتنا بلادي ذكرتنا بسينون
عوّد الله ليالي الأنس في وسط سينون

* * *

يا مغبر من الفنا، كفى لا تغابر
لا تزيد الوجع شفنا من الجرح خاير
لا تحاول تعيد السر لي صار مدفون
يارعى الله ليالي الأنس في وسط سينون

* * *

شعب عيديد لي ذكره على القلب داير
به فؤادي وضع عربون من كنت صاغر
فيه دار الهوى ما بين ليلى ومجنون
يارعى الله ليالي الأنس في وسط سينون

* * *

ذكر (ليلى) يذكرنا ليالي المسامر
في ليالي الصبا في وسط ذيك المناظر
في فرح في مرح بالبسط والحب مقرون
يارعى الله ليالي الأنس في وسط سينون

* * *

مات مسكين بس ما مات موت المقابر
راح ضحية كلب ملعون كافر
ذا أنا صرت من ظلمه وراء الظهر مطعون
يارعى الله ليالي الأنس في وسط سينون

* * *

مانويت السفر لكن ذا أمر قادر
وان نويت السفر بامره وعن طيب خاطر
وايش ينفع نروز البَر لا قده معلون
يارعى الله ليالي الأنس في وسط سينون(١٣)

الهوامش:

١) ينظر بحث: فاعلية الشخصية التراثية في الشعر السعودي – صقر قريش أنموذجًا. ابتسام بنت علي رويجح الصيحي، في ضمن كتاب: استلهام التراث العربي في الأدب السعودي، الجزء الأول، تحرير صالح معيض الغامدي وحسين المناصرة، جامعة الملك سعود، الرياض، المملكة العربية السعودية، ١٤٣٥هـ-٢٠١٤م، ص٥.

٢) ينظر نفسه، ص١٠.

٣ ينظر نفسه، ص ٣٢.

٣) ينظر نفسه، ص٣٦.

٤) ينظر نفسه، والصفحة نفسها.

٥) ينظر نفسه، ص١٠.

٦) ينظر نفسه، ص ٤٠.

٧) ينظر نفسه، ص ٤٢.

٨) ينظر: شعبية البيت الطيني والحارة الترابية من الذاتية إلى الرمزية د. حسين المناصرة، في ضمن المرجع المشار إليه سابقًا، ص ٤٨.

٩) ينظر نفسه، ص ٤٩.

١٠) ينظر نفسه، ص ٤٨-٤٩.

١١) ينظر نفسه، ص ٥٨.

١٢) ينظر: توظيف الشخصية التراثية في شعر محمد الثبيتي، خلف بن إبراهيم الثبيتي، ضمن المرجع المشار إليه سابقًا، ص١٠٩.

١٣) ديوان شاعر قبل الطرب لأبي بكر سالم بلفقيه، الرياض، ١٤٢٥هـ المملكة العربية السعودية، ص ٣٢-٣٣.

82
العدد (7)
يناير
مارس
2018م

الاسم

د. سعيد الجريري

تأتي إلى هذا العالم غيرَ مختار، ثم تُغادره، عادةً، غيرَ مختار أيضًا. ومما لا اختيار لك فيه اسمُك الذي إمّا أن يَسِمَكَ أو يَصِمَكَ، واسم أبيك وأمك وعائلتك. ومنذ أن يُخطّ اسمك في شهادة الميلاد، تغدو فلانًا الذي سيماؤه في وجهه.

تلك لحظة استلاب جميلة، يبتهج بها الأبوان والأهلون، ويتفقون جرّاها، ويختصمون، ربّما، إن لم يوافق الاسم رغبة هذا أو ذاك. كأنّ المُسمّى منتَجٌ يُراد ترويجه كعلامة تجارية ذات بعد تاريخي أو اجتماعي أو نفسي أو ذاتي. وعلى أيّ حال فـ(أنتَ وحظّك)، فقد يكون الاسم جميلًا تفيض عليك جمالياته، أو غير جميل، فيُطفئ في داخلك قناديل وشموعًا ملوّنة.

منذ أن علّمَ الله آدم الأسماءَ كلها، والسيمياء مفعّلة في كل اتجاه ولحظة، فالاسم حامل، لا بل مثقل بحمولاته الثقافية والتاريخية وغيرها، يعبر العصور شبيهًا بالأشعة السينية، ومن حيث لا يدري المرء أو المرأة، قد يقف الاسم حائلًا دون حق، وقد يستمنح غير المستحق. وفي هجرة الاسم عبر الاتجاهات واللحظات تتجلى صورٌ ثقافية وتاريخية، فثمة أسماء تروج في نواح، وتقل أو تندر حتى لتكاد تختفي في نواح أخرى، بل إن في ذلك الرواج وتلك القلة أو الندرة، مداخل إلى قراءات اجتماعية ذات أبعاد سياسية ربما أو ثقافية، أو ديموغرافية، أو غير ذلك.

سأدعُ ما هو عام، ههُنا، إلى ما هو خاص، فقد استوقفتني لحظةً انسللتُ (ولا أقول انسلختُ) فيها من اسم «لقب العائلة» دون اختيار أيضًا. لكن قبل أن استجلي تلك اللحظة، لعلّي أسترجع أشياء مما فاض به، اسمي «سعيد»، عليّ من استبطان للسعادة وإغواء لها أيضًا، في كل شيء حولي حتى في أقسى اللحظات وأتعسها، يُعزّز ذلك الشعورَ بالسعادة، حتى المُرجأة أو المُؤملة، أو التي تأتي ولا تأتي -بتعبير البياتي- أنّ اسمي، مردوفًا باسم أبي «سالم»، بما فيه من حوافّ دلالية أثيرة، مما فاض عليّ سلامًا داخليًا يفيض عليّ، هو الآخر، سكينةً وتوازنًا نفسيًا. فماذا أريد وقد جمع اسمان لصيقان دالان عليّ شيئين محلوم بهما: السعادة والسلامة. وذانكَ هما المرتجيان، فالعرب تسمّي عادةً على سبيل التفاؤل والرجاء، ولذلك وصفوا الأعمى بالبصير، واللديغ بالسليم وهكذا. لكني إذ أفيق من فيض السعد والسلام أجد جدّي «سعيد» يفيض سعادة إضافية، حتى ليبدو أبي -رحمه الله- سالمًا بين سعيدين هما جدي -رحمه الله- وأنا. بل إن سلامَ أبي معزّز بفيض أمّي سلامة، فأنا ابن سالم وسلامة.

هل أنسلخُ من اسمي كما فعل أدونيس، علي أحمد سعيد؟ لكن عليًا لم ينسلخ مختارًا، بل كان استبداله اسمه لغاية أدبية في نفسه، منها أن جريدةً سوريةً في اللاذقية أرسل إليها نصوصًا من بواكيره، فلم تحفل بها لأنها موقعه باسمه الحقيقي، فلما عنّت له فكرة الاستعارة، واختار (أدونيس) اسمًا بدلالته الأسطورية، نشرت الجريدة نصه، ثم أرسل نصًا ثانيًا فنشرته على الصفحة الأولى، أرفقها المحرر بإشارة تقول: «المرجو من أدونيس، أن يحضر إلى مكتب الجريدة لأمر يهمّه»!

لم يعنّ لي أن استبدل اسمي فهو حبيبٌ إليّ، لكني لم استطب فكرة تدوير الأسماء، ليدور أبنائي دورة السعادة والسلامة الجميلة التي تشبّعت بها، فغادرتُها إلى كسر النمط والرتابة، ففي اللغة والحياة متسع للاختيار، إلا لقب العائلة الذي يظل عمودًا رئيسًا ليس بالإمكان استبداله، فهو أعمق وأعصى على أي محاولة، لكنني كنت منسجمًا مع لقب عائلتي (الجريري) خاليًا من شوائب القبلية، على الأقل في وعيي الشخصي، وإن تكن له ظلاله التي لا يمكن تجاهلها، فهو مثقل ببعده التراتبي شئت أم أبيت. واتساقًا مع ذلك قد يفيض عليه الآخرون ما لا أشعر به أو استشعره، فهو في الأول والآخر اسم دال على جماعة كغيرها من الجماعات في السياق الاجتماعي العام، لها ما لها وعليها ما عليها.

في أثناء الخدمة العسكرية الإلزامية التي أديتها، في مطلع الثمانينيات، في قاعدة القوى البحرية في عدن -ولها ذكريات جميلة- لم يكن لي من اسمي سوى «سعيد سالم سعيد» أو كما أعلق

ساخرًا مع أصدقائي «ريّان - عدن - ريّان»، وكنت أحب هذا الاسم الثلاثي بحروفيته وإيقاعيته ودلالته اللغوية والنفسية، ثم إنني -في نظر السلك العسكري- لست أكثر من مُجنّد يحمل رقمًا مُشفّرًا برقم محافظته ودفعته ثم تسلسله الشخصي (٥/ ١١/ ٠٠٠٠)، وفي حالات نادرة كان يتم تعريفي بنسبي إلى المحافظة، إنْ صدفَ وجودُ سعيدٍ آخر، فيقال «سعيد الحضرمي»، وتستمر لعبة التسمية من دون أن تسبب لي أذى نفسيًا، كما قد تُسببه لآخرين، ممن وضعتهم الاختيارات القسرية -إن جاز الوصف- في مواقف مؤذية حينًا، محرجةً حينًا آخر.

حتى لقبي الخاص -وكان التلقيب شائعًا في شبيبتنا، وقلما أو ندر ما نجا أحد من لقب رضيَ به أو (تكعّفه) صاغرًا- فقد انتقت لي جدتي -رحمها الله- (الحلو) لقبًا، فإن مللتُ من سعادة الاسم وسلامه، فثمة حلاوة أكاد أذوق طعمها في لساني وتتلمظها شفتاي، ونفسي الغضّة حينئذ، ولعل من المصادفات الجميلة أن اسم جدتي (يسيرة)، فأي عالم من الأسماء هذا الذي يغمرك بالإيحاءات الإيجابية يا فتى!

لكنّ ما حدث معي في هولندا مختلف، فما لم يستطعه العربُ والحضارمة، فعله الهولنديون، من دون قصد ولا رصد، فلغتهم تخلو من حرف (الجيم)، وأيّ جيم في لغات العالم منطوق بلسانهم (خاءً)، فوجدتني فجأة بلا مقدمات، انتقل بلسانهم من (الجَريري) إلى (الخَريري)، لكن حتى في هذه، كانت الانتقالة منسجمة من تراث السعادة الأول، فإذا أنا منسوب إلى الـ(خَرير) الذي من معانيه صوت حفيف جناح الطائر، أو صوت الماء المنساب على منحدر، في مدينة تحيط بك قنواتها المائية من كل جانب، كأنها (مطاريق) بلداتنا الجميلة التي لا يضاهي جمالها أيُّ جمال في مشارق الأرض أو مغاربها.

انهيارات حضرمية

سالم العبد الحمومي

لطالما كانت الدولة من أبرز وأهم الإنجازات الإنسانية على مدى الدهور والأزمان، وسرعان ماعضد الإنسان فكر وثقافة وفلسفة الدولة حماية لها من البطر والنوازع البشرية المتفردة والمتحكمة في مصائر المجتمعات وسيرورتها التواقة للنماء والتطور والاستقرار باكتشاف آخر يوازي كالظل فكر وفلسفة الدولة وبناء قوتها وتمكين قواعدها.. وهي المؤسسة بحيث لا يجنح الأفراد ويستأثرون بالحضور والتأثير والشطحات بعيدًا عن مرجعية ملزمة وحاسمة تحدد علاقات الحاكم بالمحكومين وفق نسق تبادلي في المسئوليات والواجبات باتجاه يصب في خدمة نماء وترف واستقرار المجتمعات والبلدان.. فصارا متوازيين لا يخل بنسقهما إلا نمرود.

ونحن لا ننكر مرور عقود على استهداف المؤسسة وتكريس الحضور الطاغي للفرد كمواز مشوه لأصل الأشياء واستنطاق التراكم التاريخي لمسيرة الإنسان في بناء الدولة وإحياء المؤسسة.. وهنا في حضرموت استنطق التاريخ بشقه التراكمي المعرفي روح المؤسسة في أفراد المجتمع فانطلقت رياح التغيير سريعة وعاتية لتصد وتوقف منهج مكرس لتحريف الفكر المدني الذي عرفته حضرموت مبكرًا وصاغت من خلاله كل أشكال وممارسات المؤسسة والمدنية المتلازمتين .. حتى خضع السلطان القعيطي لمجلس الدولة ولصوت القضاء المستقل!! بما يترجم في لغة العصر باستقلال السلطات الثلاث !! وغابت لزمن زاهر براعم النشوء الطفولي لمفهوم الدولة وحياة المؤسسة، وتوارى -إلا ظاهريًا- سطوة الأفراد المختزلين لفكر وممارسات الدولة والمؤسسة. وهيمنت كل أشكال وصور المؤسسة لتضعنا أمام بوابات المستقبل وتطورات العصر واستيعاب مفردات حضارته .. فكانت السينما والفنون والبعثات العلمية وديمقراطية الأحزاب والصحف إلى آخر القائمة.

وإذن فنحن نؤمن بمساندة الإله لإدارة الإنسان الخيرة، وهو زمن خاص مترع بالخصوبة وتربة النماء لنتسامق فوق مفهوم وثقافة حضور الأفراد الفقير على حساب المؤسسة المدنية الموحدة لجهود المجتمع في صياغة مستقبل شرود لطالما تقنا إلى تطويعه ليرفع اسم حضرموت في فضاءات الأمل المفضي إلى الاستقرار والنماء ومشاركة البشرية في صياغة مفردات حضارتها الحاضرة والمستقبلية.

نبارح قلم
84
العدد (7)
يناير
مارس
2018م

فتنة السرد والشعر
في (أشياء صغيرة) لخالد لحمدي

حين يغازل الشعرُ السردَ

السرد والشعر جنسان أدبيان أداتهما اللغة، فبينهما قواسم مشتركة تمتح في الغالب من بحر التخييل، ولكنهما في إطار المنهج الإجناسي يتوهج كل منهما بفرادة نوعية تعتمد العنصر المهيمن -بحسب النظرة التقليدية لنظرية الأدب- وتقوم على أساس نظري يتكئ على جملة من التمايز بينهما يبرز إشعاع بعضها عند قوم ويخفت عند آخرين، يتأرجح بين الخيال المجنح والموسيقا المطربة والعقل والعاطفة على ما بينها من توافق وانسجام. بيد أن النقد الحديث بدأ يبحر في محيطات اللانوعية، فشرع في الحديث عن شعرية النص وأدبيته بعيدًا عن التصنيفات الإجناسية التي انشغل بها النقد ردحًا من الزمان؛ حتى وصل عند بعض النقاد الأفذاذ إلى مرحلة اجتراح مصطلح لافت ذي طاقة تجريدية هو (جامع النص).

د. طه حسين الحضرمي

وبعد هذا هل نستطيع إلغاء الحدود الفاصلة بين الشعر والنثر؟

ثم هل نجرؤ على منح كل منهما خصوصية إبداعية قاطعة مانعة؟

وبعد كل هذا هل نستطيع أن نقول جازمين: إن الشعر شعر، وإن النثر نثر؟ لا يمكن أن يلتقيا مثلما يستحيل أن يلتقيَ الخطان المتوازيان ما دامت السموات والأرض.

ففي ميدان الأدب لا مكان للمستحيل، وإلا لأضحى الأدب علمًا من العلوم الطبيعية، وافتقد أبرز ما يميزه عن سائر الفنون والعلوم: الخيال والعاطفة.

لهذا كله أصبح أمام الأديب مجال واسع للتعبير عن خلجات نفسه وسوانح فكره وجوانح خياله من خلال طرائق التشكيل اللغوي التي يرتئيها مناسبة.

وعلى الرغم من ذلك تظل قضية الجنس الأدبي مادة نظرية تعتمد التصنيف الذي يتخذ الأسلوب التعليمي منهجًا تنظيريًا؛ ليقول كلمته الفيصل: هذا النص ينتمي إلى جنس النثر وذلك النص ينتمي إلى جنس الشعر. مع التأكيد على استحالة امتناع التماهي بينهما.

هذه مقدمة أحببت أن ألج بها إلى تجليات أشياء خالد لحمدي الصغيرة.

خالد قاص يكتب القصة القصيرة بشغف، ويهيم بصياغتها هيامًا لا حدّ له. فها هو في باكورة إنتاجه (أشياء صغيرة) يتلمس خطاه في متونها القصصية تشكيلًا وتجريبًا؛ فيغمس قلمه في جمرة الإبداع ليشتعل سردًا ويضيء شعرًا.

وإذا كان أجدادنا الأقدمون يحتفلون بولادة الشاعر حين كان الشعر ديوانهم الأوحد، فحريّ بنا في زمن السرد أن نحتفي بولادة السارد.

وإذا كان للشعر فتنته في زمان الوصل والانصهار في بوتقة العشق، فأن للسرد أن تكون له فتنته الخاصة المنبثقة من بوتقة الذات الشاعرة والمتشظية في آفاق البوح السردي والمتماهية في فضاءات الكلمة التي تُدرَك بوصفها كلمة حسب حين تتجلى الشعرية في متونها، والمتساوقة مع الكلمة بوصفها صنوًا لشيء مسمًى على أساس المرجعية التاريخية.

لفت نظري في هذه المجموعة أمران:

الأمر الأول: عتبة العنوان (أشياء صغيرة).

الأمر الثاني: النوعية المراوغة بين السردية والشعرية.

أما الأمر الأول فيثير مسألتين جوهريتين في إطار العنوان:

المسألة الأولى: تطابق عنوان هذه

المجموعة مع مجموعة سابقة للقاصة الفلسطينية سميرة عزام (١٩٢٦-١٩٦٧م) فقد نشرت دار العلم للملايين ببيروت مجموعة (أشياء صغيرة) لسميرة عزام في عام ١٩٥٤م. وأنا على يقين أن مبدعنا لم يطلع عليها وإلا لضرب صفحًا عن هذا العنوان، ولا ضير في تطابق العنوانات؛ فلكل عنوان شعريته وتجربته، وصاحبنا ليس بدعًا في هذا الأمر فقد تطابقت عنوانات في كتب أسلافنا، وما (معاني القرآن) إلا أنموذج مثاليّ لهذا التطابق، ولكن القريب إلى أذهاننا في العصر الحديث ولا سيما في مجال الفن القصصي رواية (المصابيح الزرق) لحنا مينة (١٩٥٤م) ومحمود تيمور (١٩٦٠م).

المسألة الثانية: توهج دال عتبة العنوان الأول (أشياء) في متون المجموعة جمعًا وإفرادًا، فقد تكرر في عموم المجموعة ثلاثًا وخمسين مرة إجمالًا: اثنتي عشرة مرة بصيغة الجمع، وإحدى وأربعين مرة بصيغة المفرد تفصيلًا. فجاءت منكرة في اثنين وأربعين موضعًا ومعرفة (بأل) في ثمانية مواضع، ومعرفة بالإضافة في ثلاثة مواضع.

وهذا التكرار يشير إلى هاجس دلالي يهجس في أعماق المبدع له صلة بالدال (الشيء).

ودال (الشيء) بعيدًا عن تفريعات الفلاسفة وتهويمات الصوفية يحيل بمعناه المعجمي على كل موجود حسًا كالأجسام، أو معنىً كالأقوال.

وقد ورد هذا الدال في محكم التنزيل شاملًا كلَّ الكائنات والأحداث والأمور فكلمة شيء من أعم الكلمات وأبعدها عن التعريف بل تكاد تكون نكرة بإطلاق. ونشبهها بشيء من التجوز بالماء، فكما يتخذ الماء شكل الإناء الذي يوضع فيه نراها تتخذ جنس ما تطلق عليه؛ لهذا تطلق في التنزيل على كل ما سوى الله مهما تباعدت الأجناس، كقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤].

بيد أن هذه الكلمة بكل تجلياتها في متون (أشياء صغيرة) تتوهج بإشعاع إبداعي خاص له نكهته وله بريقه الشعري، وتلقي بظلالها الإيحائية في عموم المجموعة.

وإذا تأملنا الإحصاء السابق لهذه اللفظة بحسب ورودها في المتن الإبداعي سنرى غلبة التنكير على هذه اللفظة، وللتنكير جماليته الخاصة وله فوائده الإبداعية، فهو يستخدم في مواضع لا يمكن للتعريف أن يقوم بها لا من الوجهة اللغوية ولا من الوجهة البلاغية والدلالية.

القاص/ خالد لحمدي

أما الأمر الثاني فله صلة بتماهي السرد مع الشعر، على ما يحمله الأول من سبق التصنيف الإجناسي بوصفه موصوفًا وبوصف الشعر صفة له وذلك بالإخبار عن هذا المتن بعده سردًا يحمل نفسًا شعريًا.

وهذا الأمر يجرنا إلى الحديث عن ماهية تداخل الأجناس الأدبية في أدبنا الحديث الذي يعده بعض الدارسين من جملة التقنيات الخطابية الحديثة. وقد غامر بعض المبدعين في توليد نصوص ملتبسة الهوية مثلما صنع إدوار الخراط في نصوص كثيرة تداخل فيها السردي والشعري وأبرزها نصه السردي المتميز (ترابها زعفران) الذي وسمه بجملة (نصوص إسكندرانية) موغلًا في إبهام هوية هذه النصوص المتناسلة سردًا والمتجلية في إهاب شعري.

خاض خالد لحمدي في معظم نصوصه السردية هذه، مغامرة التماهي بين السردي والشعري مع محاولة إمساكه -بقوة- بتلابيب نصوصه السردية. ولكنه كان في الغالب الأعم يرخي راحتيه لشآبيب الشعر المتدفقة إليه من ذاته الوالهة والحيرى بين الأنا والآخر.

وقد حاول خالد في بعض نصوص هذه المجموعة اختراق السور الوهمي الفاصل بين الشعر والسرد باعتماده الشعرَ بنيةً منظِّمةً لبعض نصوصه السرديّة؛ وكأنه بهذا يسعى إلى خلق حوار بين ما هو سردي وبين ما هو شعري دون أن يخلّ ذلك بماهية نصوصه السردية وخصوصيتها البنائية.

من المعلوم أن الغيرية مهيمنة على السرد اتكاء على سطوتها القائمة منذ القدم على ضمير الشخص الثالث (هو) والمنسجم مع الفعل الماضي (كان)؛ ولكي يتغلب المبدع خالد على هذه السطوة الغيرية حاول أن يستقطب كل ما أمكنه من (أنوية ضمائرية) تتجابه فيها (الأنا المذكر) مع (الأنا الأنثى) لتتشكل وجدانيًا في تلافيف هذه المجموعة المتمثلة في قصص مثل (تفاصيل، الأكفان، لن أكون، جينز أزرق، نهايات مباغتة، لم أكن إلا امرأة، تسابيح لمملكة النور)؛ لتتزوى الذات الغائبة (هو) المتمثلة في الآخر (الذكر / الأنثى) والذات المخاطبة (أنت) المتمثلة تحديدًا في الآخر (المخاطب الذكر) في زوايا سردية يخفت فيها صوت الشعر المنبثق من (الأنا) فيعلو صوت السرد الغيري.

وفي غمرة انشغال المبدع بهذا التماهي بين السردي والشعري لم يغفل عن تحسس السمات المشتركة بينهما، فهو يحاول مجتهدًا الموازنة بينهما، مع الاحتفاظ للسرد بكل مقوماته البنيوية المتكئة على دعامتين أساسيتين هما: مادة الحكي المعتمدة على أحداث معينة ولو في أضيق الحدود، وطريقة بناء هذه الأحداث مما له صلة ببنية زمن السرد والشخصية وسواهما؛ لتظل مهمة الشعر ها هنا مكتفية بمغازلة السرد حسب، دون أن تحدث هذه المغازلة اللطيفة شرخًا في مرآة السرد عامةً.

وفي الأخير أستطيع القول: إن هذه المجموعة -بكل ما تحمله من أعباء تشكيلية ومعيشية تقتحم التجريب بنيةً، وتخترق المألوف دلالةً- تشكّل إضافةً جادة في مجال السرد اليمني عامةً وفي مجال السرد الحضرمي خاصةً.

86
العدد (7)
يناير
مارس
2018م

(٢ - ٢)

الغيمة التائهة
أو الشاعر حسين عمر شيخان

أ.د. عبدالله حسين البار

صورة الذات كما جلاها النص:

مفهوم الشعر عند شعراء الوجدان هو تعبير عن الذات الشاعرة. ولذلك تحدّثوا نقادًا ومبدعين عن (التجربة) وعن (الصدق الفني) وعن (مطابقة الشعر للحياة والحياة للشعر) وما إلى ذلك. وحكموا أحكامًا على الشعر والشعراء معًا، وصنفوهما تصنيفات شتى. فنفوا شوقي من جمهوريتهم الشعرية لأنك لا تعرف حياته من شعره كما تعرف حياة ابن الرومي – مثلًا – من شعره. أضف إلى ذلك إشارتهم إلى أن ما يذكره الشاعر في قصائده هو وقائع يقينية حدثت وعكسها الشاعر في قصيدته. وهذه مسألة تستوجب نظرًا. فنزار قباني مثلًا تبدو الذات المتكلمة في قصيدته (الرسم بالكلمات) منكسرة تعلن عجزها رغم ماضيها المغامر القوي، وفي قصيدته (إلى أجيرة) تبدو الذات المتكلمة متجبرة لحد الإحساس بالسادية المرضية في معاملة المرأة، وهو في قصائد يجري الذات المتكلمة بضمير المؤنث فيتحدث بلسان المرأة مراهقة وتلميذة وناضجة وامرأة حاقدة أو متسامحة أو ما شاء من الصور. فهل نزار هو هذا كله، أو أن للشعر مفهومًا آخر غير هذا الذي قال به دعاة (الوجدان) منذ العقاد والمازني وشكري حتى شعراء الحداثة ونقادها. فما حديث هؤلاء عن (المعادل الموضوعي) و(القناع) إلا صورة معادلة لصورة الشعر عند شعراء الوجدان ونقادهم وإن كان من وراء حجاب. ألم ينسبوا كل ما في القصيدة إلى الشاعر عينه لا إلى شيء سواه؟ لكن اللسانيات الحديثة حين هيمنت بآلياتها الإجرائية على مناهج النقد أسهمت في تقديم مفهوم للشعر غير ما سلف. فنظرت إليه من باب اللغة، فإذا هو تشكيل للعالم من خلال اللغة. وهنا يتراءى كل ما يستخدمه الشاعر في نصه من تقنيات لغوية لها وظائفها فيه، ولها غايات من الكلام. وعليه فإن دراسة (الذات) في الشعر وفق هذا المنظور تبدو مخالفة عن دراستها وفق منظور (الرومنسيين) لها. فإذا كان هؤلاء ينظرون إلى الشاعر على أنه حالة عصابية يتأملها محلل يفقه في علم النفس ما يفقهه علماؤه أو ما يقرب منه فإن النقاد اللسانيين يفيدون من معطيات علم النفس ليدرسوا شخصية (الذات المتكلمة) في القصيدة، ولقد تكون الشاعر عينه، ولقد تكون ذاتًا أخرى زرعها الشاعر في القصيدة وترك لها حرية الحركة داخل النص. وهنا يكون الاعتناء بلغة القصيدة لدراسة ظواهرها، وما الشاعر إلا منتج محدود الحضور عند العملية التحليلية تنتهي وظيفته باكتمال إنتاج القصيدة لتأخذ هذه طريقها من بعد إلى أفئدة المتلقين فينفعلون بلغتها ويتفاعلون معها على نحو يحقق لها مدى منفسحًا من الشعرية وما جاورها من وظائف الكلام.

والناظر في شعر حسين شيخان يلفته طغيان استخدام ضمير المتكلم الذي ينبئ عن طغيان حضور (الذات المتكلمة) في كل قصائده. وقل قلة لافتة غياب هذه الذات في بعض القصائد.

وعلى الرغم من أن حسينًا كان شاعر ذوات لا شاعر معنى، فإن (الذات المتكلمة) تحضر في كل نص ومع كل ذات أخرى. فـ(أسماء) ذات لها صفاتها المائزة عن سواها من الذوات، وللمتكلم حضور بضميره وإن قل ذكره عددًا. و(كلب) ذات في دائرة الاستعارة، له ما يميزه من سواه، وللمتكلم تفاعل معه وإن يكن في إطار الهجاء، و(مشرف الإسكان) و(نزيل السجون) و(هو) و(إلى صديق) و(المستقية) و(الحطابة) و(المساواة) و(العارية) و(بطلة الشباك) و(جالاتيا) كلها ذوات تتحدث إليها الذات المتكلمة أو تحدثت عنها، وسواها ذوات أخرى تفاوت حضورها وتنوع تفاعل هذه الذات المتكلمة معها. فهي حاضرة مع كل ذات غائبة أو مخاطبة. فالقصيدة عند حسين جدل بين ذات مخاطبة وذات متكلمة. أو بين ذات متكلمة وذات غائبة. وقل أن تستقل القصيدة بضمير غائب دون حضور للذات المتكلمة كما هو نسيج القصيدة في قصيدة (هو)، إذ لم يكن للذات المتكلمة حضور، واكتفى الشاعر بجلاء صورة الآخر باستخدام ضمير الغائب ليلج به إلى دائرة

الملحمية التي هي من متمّمات السردية التي تسهم في بناء النص.

وإننا حين نجيل النظر المتأمل في طبيعة الذات المتكلمة في النص من خلال ضميرها اللغوي مفرداً وجمعاً، متصلاً ومنفصلاً، ظاهراً ومستتراً، ومن خلال صفاتها التي اتسمت بها في ثنايا القصيدة، ومن خلال عوالمها التخييلية، تتراءى لنا هذه متعددة الصور، متنوعة الدلالات. فهي في مظان من القصائد تبدو جامحة تتدفق مشاعرها كالسيل الجارف إن في غزل وإن في هجاء:

ياطريد الرباط .. يا بصفة الغيل
سيأتي على الوقود اللهيب
يا وراء الوراء .. يا قبأة الخلف
ستدري متى وكيف تنوب [1]

هنا ذات جمحت في خصومتها إلى حد الفجور، ولم يكفها كل ما قالته في أبيات القصيدة التي سبقت هذين البيتين. وما كان يدرأ عنها هذا الجموح ارعواء عن الإيغال في الشتم، ولا سيطرة على اندفاق الانفعال بحكمة وروية.

وهذا جموح لا يختص به هاجس شعري دون آخر، بل هو سمة في الذات حين يستفزها غضب أو يحركها هوى لا يحد انفعاله:

أمشي وراءك لا آكل :: وشموخ نفسي مستذل
رحالة هيمان بعدك لا يجد هواي عاقل
رشد الكهولة قد قبرت، وها أنا ذا اليوم طفل
أنساق الجبل الذي تتسلقين، ولا أمل
ولكم تعثر بي الطريق وزل بي قدم ورجل
وتشققت قدماي أدماها من الأشواك غل
ولكم وشت بي الريح ضاق الدرب بي واسد دغل
فهل الجماد يغار؟ حولي ههنا غدر وختل
هذي ضريبة رحلة للحب بالآلام تحلو [2]

هنا تمتزج الذات بالجماد في روح استحيائية، فتمنح الأشياء الجامدة روحا بشرية فتصدق كالرجل البداني أن لها ما للحيوان عامة وللإنسان خاصة أرواحاً تسكن الصخر أو الشجرة أو تتردد في أصداء الكهف، فإذا بالريح تبدو واشية تثير غيرة سواها منها، وإذا الأشواك تدمي قدميها لغل دفين يحرقها، وإذا الدرب ضائق بها صدراً، وكل جماد يغار منها يدير حوله مؤامرة كلها غدر وختل. ومن هنا تزيد هياجاً وتزيد جموحاً فلا ترعوي عما انتوت فعله.

وتلك الذات الجامحة لا تقبل حين تغضب بأقل من منزلة (زيوس) رب الرعد والصواعق والسحب والأمطار:

فإذا عصيت ولم تصل فمعي
في قبضتي الشابوك والصمل
وإذا هززت بها فمل ء يدي
شهب، وبين أصابعي زحل
ولي النبازك كن على حذر
وعلى رمادي يحرق البطل
وإذا غضبت تطايرت أمم
وانهد كون .. وانطوى أجل [3]

هذه الصورة التي يرسمها الشعر للذات المتكلمة جامحةً متدفقةً في غضبها السيال تقابلها صورة أخرى تبدو فيها تلك الذات حائرة بين الهدى والضلال، بين العفاف والفجور، بين (المعادنة) و(الرفض). وهي حيرة نفسية تعترف بها الذات ولا تجد منها مهرباً:

تعالي إلى معبدي في الضفاف
لحيا بأنفاسك المعبد
فقد تهت بين الهدى والضلال
ولم أدر كيف يكون الغد [4]

ولقد تقلبت الذات في غبار الخطايا النصياعاً لصرخات غرائزه وعوائها في داخله، وما استطاع الاعتصام منها بصلاة أو جبل من الصبر والاحتمال، فغرق في أعماقها، وحين آب إليه صفاؤه لم يكن بد من الاعتراف:

كأنه بعدما أرضى غرائزه
وما أطاع الهوى والنفس ما عتقا
وما هوى الحسن ما استوحى مفاتنه
وما تحدى لوزن شارد خلقا
وماظا بخصور كلما رقصت
توائبت نحوه لحناً بها شهقا
وما ترنح مغشياً على شفة
يستقطر الوحي مخموراً به شبقا
لكم عصى النفس كم أرضى غرائزه
وكم أضاع لإشباع الروي نفقا [5]

لكنها على الرغم من تهتكها ما تزال تقبض على بقايا من خلق رفيع تسمو به على تلك المبادل والراذل:

فلا تقولي شاعر ماجن
لا يستحي لم يخش لم يعرق
بقية من خلق لم تزل
تضيء في نفسي وطهر بقي [6]

وإنما استمرأت الذات – وهي شاعرة – هذا الانغمار في ماء الخطايا رغبة في التحرر من قيود الأخلاق – دينية كانت تلك القيود أو اجتماعية – فالفنان في نظرها يفعل ما يشاء ليقول ما يشاء، وليس من واجب لازم يدرؤه عن ارتكاب ما يخرج به على أعراف المجتمع وقيمه:

لا شيء للفنان غير الهوى
والحب فوق العقل والمنطق [7]

إن لهذه الذات قيمها الخاصة التي – وإن لم تعلن عنها صراحة، أو تمارسها في واقعها المعيش – تفترض من الآخرين أن يعلموها ويدركوها ولو بالظن دون اليقين:

جهلت سلوكي لو عرفتي ترفعي
لأنكرت رأياً خاطئاً ما له أصل [8]

ومن هنا كان لا بد من الجهر بطبيعة ما ترى تلك الذات والإعلان عنه ليعرف الآخرون سموها:

لقد عشت بالذهن المجرد في الذي
كتبت، ويكفيني الخيال أو الظل
وحبي من الحسن ابتسامة زهرة
أمادت بدرب أم تباهى بها حقل
وترنيم عود، أو رنين أساور
وعجز عوى عند الزفين له حجل
ونكهة عطر أو تمايل برقع
وثوب لصبق خلفه شرد العقل
وضحكة ثغر فيه أجراس جنة
ترن فينهار الوقار ويختل [9]

وقد تبلغ الحيرة في نفس هذه الذات أن تنقض في قصيدة ما سعت إلى توكيده ففي (الحطابة)، وقد أعلن فيها ما أعلن من جهر بالاشتهاء، وحرص على طلب الوصال الشديد، لأنه (لا يطيق الضعف حين يحين وصل)، يأتي في آخر القصيدة خطاب متسام على الشهوة الرعناء، والتهتك المبتذل:

لا تخطني بي الظن :: في الأعماق أخلاق ونيل
روحي إذا ما انهار بي جسد لتسمو بي وتعلو
وأعيش بالذهن المجرد ما أنا يا أخت بغل
إني برغم مهنك الفنان لي بالطهر وصل [١٠]

ومن قال إن هذه الذات تحمل روح بغل لتكون إياه؟ إنها مفطورة على جبلة إلهية أهمتها فجورها وتقواها، فتأذت من أشواك الفجور حين ارتضته، ونعمت بورود التقوى حين اعتصمت بها وآثرتها على الهوى. ولذلك سعت (الذات) إلى الابتهال إلى الله متضرعة:

يا إلهي : نصف قرن مر بي
في ضلال .. رب هل تقبلني
في ضياع أنا أهواه .. وكم
بين شطيه رست بي سفني
نصف قرن في مجون عابث
حامل كل خطايا الزمن
في انطلاق نزق مستهتر
غارق في نزوات البدن [١١]

فهل هذا اعتراف يفضي إلى توبة نصوح؟! وأنى ذلك، وما زالت بواعث الضياع في داخله لم تكف عن النبض والحركة؟

قلبي الأرعن إن مر بي
خيط حسن نحوه يسبقني
وإذا حاولت أن أكبحه
عاد في موضعه يلسعني
هو ينقاد لجفن عابر
وعلى الأهداب كم علقني
وأرى حتفي إذا ما مر بي
صدر أنثى فوقه يصلبني [١٢]

فمضت في حيرتها.. وعزاؤها أنها بشر:

ولا أدعي أني ملاك فما أنا
سوى بشر فوق الغرائز قد يعلو

وأن الفنان فيها له من الحق ما لا يكون لسواه:

أبيح لنفسي ما يباح، وإن يكن
من الغبن للفنان تحريم ما يحلو [١٣]

على أن هذه الذات من الرقة يبكيها ما يبكي الآخرين، وهي من صفاء يعمها، ومن وضوح في الرؤية، لا تطيق نفاقًا، أو تتعامل مع الآخرين من وراء قناع، فإن أحبت أحبت بصدق، وإن بغضت بغضت بعمق وشموخ:

أتالست أملك غير وجه واحد
غيري له وجه خفي آخر
قلبي بتاريخي وجغرافيتي
في أعيني يحنو أمامك ظاهر
وبكل قاراتي التي لم تكتشف
أرشيف نفسي في فمي يتناثر
وجهي يعبر عن خفي مشاعري
ما لي قناع للمشاعر ساتر [١٤]

والذات المتكلمة في نصوص الديوان لا تخفي نرجسية مطوية في أعماقها تجعلها تمنّ على المرأة بأنها من خلقها، وتدل الآخرين على محاسنها كلها:

أأنت، ألا تدرين أني بأحرفي
خلقتك من لا شيء هل كنت من قبل
لحظتك من قبلي العيون وحبتها
بعثتك في شعري أحس بك الكل
ولو شئت يومًا أن أميتك كان لي
فمن كان غيري في المخاض له الفضل
حملتك في نفسي ولم يحملك امرؤ
سوى النفس، عز الموروثون، نهم قلّ

وتلك نزعة مكتسبة من قراءة شعر نزار، لكنها غدت مع الأيام خصيصة نفس تتغنى بها الذات جذلانة.

الهجائيات

اشتمل الديوان على قصائد في الهجاء عددها خمس هي (نزيل السجون، وهو، وإلى صديق، وتألهت، وكلب). ومقطوعة واحدة قوامها بيتان، وعنوانها (محامي) – كذا رسمت في الديوان، وصواب رسمها (محام) لأنها اسم منقوص يحذف ياؤه عند الرفع وعند الخفض-.

وهذا عددٌ ضئيلٌ لشاعر عرف عنه تقديره لموروث شعر الهجاء، وولوعه به، ناهيك بنفوره من كل صور القبح التي تحيط به على كل المستويات. فهو موكّل بالبحث عن صور الجمال مشغوف بالتعبير عنها، فإن لم يجدها هجا ما وجده من نقائضها وذم أصحابها.

لكن هذه القصائد الخمس لا تنبئ عن منظور شامل لمفهوم الهجاء في خلد الشاعر، لأنها صدى انفعال شخصي باعثه الغضب لكبريائه التي مسها أحد بجرح، أو عناها صديق بإخلاف وعد فظن الشاعر في ذلك استهانة به، أو لمجرد خلاف في رأي انتصر فيه آخر بحجة فأبت الذات الشاعرة القبول بحجةٍ فصوّر لها انفعالها الغاضبُ الموقفَ على غير وجهه الصحيح. فأفرز كل ذلك قصائد نفث فيها الشاعر حممَ نفسه الغاضبة، وجلد بها ظهور خصومه حتى أوجعها فاستراح. فهي إذًا لا تصدر عن رؤية شاملة للحياة فتحيط بمآجريات الوجود سياسيةً كانت أم اجتماعيةً كالتي نجدها عند أبي العلاء ولزومياته من الأولين، والتي نجدها عند شعراء كالسياب وبلند والبياتي ونزار والبردوني في المتأخرين. إنه يصوغ موقفه الشخصي من ذات بعينها يستهجن منها صفة أو يذم لها موقفًا في قصيدة هجاء شخصية، فيتقاصر هجاؤه ذلك عن أن يغدو صورة تمثل (جمعًا) يتكثف وجوده في شخص واحد (كبخلاء) الجاحظ مثلًا أو (بخيل) موليير، حيث تتجمع الأشباه بنظائرها في ذات واحدة تصبح رمزًا، أو معادلًا موضوعيًا لأمثالها. وذلك سبب انحصار الهجاء في القصائد الخمس على بعدٍ شخصيٍ لم يتجاوز الذات المعنية ويتعالى عليها. وهو وإن لم يعين ذلك المهجو باسم علم ولا بكنية ولا بلقب فإنه يسمه بعددٍ من الصفات منها العلاميّ الذي لا يعين شيئًا من مثل (نزيل السجون/ خبيث/ شيخ الخنا/ رخيص الضمير/ كومة القش/ غبي/ ضيق الأفق/...). فهذه الصفات عامة لا تعين مهجوًا، ولا تعطي دلالة واضحة عن وجود كائن حي تجلو تلك الصفات هويته وتحدد شخصه. على أنه يستخدم من الصفات في مظان أخرى ما يحدد هويةً وشخصًا من مثل قوله: (طريد الرباط/ بصقة الغيل). ناهيك باجترائه على ذكر مفرداتٍ هي من البذاءة بحيث يعف اللسان عن لفظها من مثل قوله: (قيأة الخلف/ نفايتي/ قمامة...) وهذه أنقاها لفظًا وأنآها عن الفحش، على الرغم من أن استخدام مثل هذه المفردات ليس واجبًا شعريًا. ولعل العفة

في استخدام اللغة في هذا المقام أولى بالشعر، وفاعليته أعمق. قال أبو نواس هاجيًا أحدهم:

يا أهجوك لا أدري :: لساني فيك لا يجري
إذا فكرت في عرضك أشفقت على شعري

ومن مثله قول ابن الرومي، وهو من هو في شعر الهجاء:

لئن جاوزت في مدحك ما قصرت في منعي
لقد أنزلت حاجاتي بواد غير ذي زرع

ومن قبلهما هجا جرير بني نمير وأقذع، فقال:

فغضّ الطرف، إنك من نمير
فلا كعبًا بلغت ولا كلابا

فقيل فيه إنه أهجى بيت.

على أن لمسلم بن الوليد احتقارًا شديدًا في هجاء أحدهم حيث قال:

أمويس قل لي أين أنت من الورى
لا أنت معلوم ولا مجهول
أما الهجاء فدق عرضك دونه
والمدح منك كما علمت جليل
فاذهب فأنت طليق عرضك، إنه
عرض عززت به وأنت ذليل

وهجائيات حسين شيخان هي المعادل المقابل لغزلياته من حيث:

١- كونها صدى انفعال آني سريع الاشتعال. فرؤية (الحطابة) يثير رعونته فيحتدم اشتهاؤه فيصعد بهذا الانفعال إلى سماء الإبداع فتكون قصيدة، ومثل الحال في (أسماء والبرنسيسة والعارية ... إلى آخره). ومثل ذلك يفعله حين يستثير غضبه من سلوك فلان نحوه، أو موقفه هو من تقاعس محام في إنجاز قضيته كما يشتهي هو. ليس لديه من وسيلة لمطامنة جيشان ذلك الانفعال إلا بهجاء.

٢- إن كل هجاء يرتكز على شخص بعينه من الناس للشاعر منه موقف ما. وكذلك غزله. فهو لا يتغزل في امرأة لا يعرفها، ولكنه يتغزل في امرأة تركت في نفسه أثرًا ما. ولهذا تنبض غزلياته وهجائياته بنبض من الحياة.

وفي هجائيات شيخان مفرداتٌ من العامة تتردد في ثنايا الأبيات استملاحًا كمثل قوله: (الليف/ قعادة/ العطير/ زير/ غرب/ الخمير). وقد يلجأ إلى أعلام ضربت بها الأمثال في العربية مثل (عرقوب/ وفند)، أو أمثال رددتها العامة كقولهم: (الله يخلي لآل عامر طفلة).

وهو يعمد إلى المبالغة في تصوير حالة الهجو كصنيع رسامي (الكاريكاتير) حين يهزلون بشخصية ما. فهو يقول في أحدهم:

لا اندفاع الجمهور خلفك كالإعـ
ـصار ضاقت بالشامتين الدروب[١٥]

ولو خرج أهالي (المكلا) بأجمعهم خلف ذلك الهجو ما صاروا إعصارًا، ولا ضاقت بهم الدروب شماتةً، ناهيك بكونهم أرقى سلوكًا وأكرم خلقًا من أن ينعلوا ذلك بمهزوم قهرته الأيام وإن طغا وتجبر.

وخلاصة القول في هذا الهاجس إنه لا يزيد على كونه تنفسيًا عن خصومة شخصية، أو انتصارًا لرغبة أعاق تحقيقها شخص بعينه أو ما أشبه هذا وذاك، ولكنه لم يصعد في الشعرية ليبين عن رؤية للحياة وموقف منها على مختلف الرؤى، فكرية أو سياسية أو اجتماعية، فظل هجاءً شخصيًا ولا غير. وأين مثل هذه القصائد مما نجد في شعر أبي العلاء من هجاء يتسم بالشمول؟

لقد أفسد الإيغال في النازع الشخصي على شيخان هجائياته، وأفرغها من قدرته على التفاعل مع القراء حين يتأملون أبعادًا أخرى فيها تتجاوز ذلك المنحى الشخصي. وإذا كان من المقدور عليه تشبيه صنيعه هذا بما صنعه كاتب عظيم كالجاحظ حين كتب (البخلاء)، وبين الأثرين فرق. وما زال كتاب (البخلاء) موضع نظر من ذوي العقول الراجحة، وليس الحال كذلك مع أرسالة التربيع والتدوير) له. وقل في أهاجي شيخان شيئًا شبيهًا بهذا.

ولعلنا نجد هنا فسحةً لتتدبّر الحكم الذي قيّده أخونا وصديقنا الدكتور الصيغ من أن (في الديوان نَفَسَ الشعراء الكبار الذين يحمل شعرهم همًا، وليس الشعر عنده ترفًا كما نجد عند الكثيرين)[١٦].

والحق أني لم أجد هذا الهمّ بالمعنى الذي يشير إليه قول الدكتور الصيغ في ديوان (الغيمة النائمة) قطّ. وكلّ ما هنالك أشعار هي صدى انفعالات ذاتية لا تدل على انشغال بمجتمع ومشكلاته ولا بحياة وقضاياها. وخذ على ذلك مثلًا شرودًا قصيدة احتواها الديوان عنوانها (إلى الحزب). وهو عنوانٌ لافتٌ من شاعر لم تكن علاقته بالحزب (سمنًا على عسل) كما يقال، ممّا يثير الرغبة في قراءة القصيدة لمعرفة ماذا يقول النص؟ وكيف أن له أن يتكلّم بعد صمتٍ؟ وبم؟ ولكنّ قارئها يصاب بخيبة، ويكابد انكسارًا حين يعلم أن الشاعر يشكو إلى الحزب حظره انتشار بيع القات في حضرموت وحدها دون بقية محافظات الجمهورية في ذلك العهد.

وما للمكلا قد ذوى في ربوعها
شذا القات حتى عاف أجواءها الشعر
وسيّون لا الأجواء تلهب دانها
ولا الوحي في همس السواقي ولا السحر
وما ذنب أرضي حضرموت وما الذي
جنته المكلا أو شبام أو الشحر
أأوتيت ما لم يؤت أهلي بأسرهم
أذنب بلادي أنّ شيمتها الصبر[١٧]

فأين الهم الكبير الذي شغل فؤاد الشاعر فكبر به لمنافحته عنه؟ أيكون في حظر نشوةٍ عابرةٍ همٌ يؤرق شاعرًا ويدفع به لمواجهة مهالك وأخطار؟

وقل مثل ذلك في هجاء محام تقاعس في أداء عمله، والأمر لا يحتاج إلا استبدال سواه به، وهو يسيرٌ لا يحار في فعله ذو بصر محدود.

ولكن النازع الشخصيّ حين يحرك الشاعر للقول يخرجه من دائرة عموم القول إلى خصوصه. ولقد يجوز له ذلك ما دام يرضي رغبة في نفسه. لكنه يتجاوز عنها حين يعود إليها بأخرة من الزمان فيستبعدها من شعره إذ يعده للنشر فما للناس وخصوماته الشخصية؟ وليس أولئك المهجوون بالشخصيات العامة ليكون للقول فيهم معناه وقيمته كما صنع أبو العلاء بهجائه رجالًا كانوا يتّجرون بالدين ويدلسون فيه.

رويدك قد غررت وأنت حر
بصاحب حيلة يعظ النساء
يجرم فيكم الصهباء صبحا

ويشربها على عمد مساء
تحساها فمن مزج وصرف
يعل كأنها ورد الحساء
يقول لكم: غدوت بلا كساء
وفي لذاتها رهن الكساء
إذا فعل الفتى ما عنه ينهى
فمن جهتين لا جهة أساء

وصنيع شيخان في قصائده التي عرض فيها مشكلته الخاصة مع إدارة الإسكان شبيهة بهجائياته. وإن وصف الدكتور الصيغ تلك القصائد بأنها تعبير (عن همومه وهموم الكثيرين مع إدارة الإسكان في العهد السابق وعلى الرغم من أن الموضوع يبدو بعيداً عن الشعر إلا أن الشاعر صاغ فيه قصائد من أجمل الشعر وأحسنه، لأنه كان ينظر إلى الموضوع في إطاره الإنساني العام، ولم يكن يتعامل معه بوصفه مشكلة خاصة به)[١٨].

أما أن الشاعر (لم يكن يتعامل معه بوصفه مشكلة خاصة به) فليس بقول دقيق، والنص ينقضه. ألم يقل:

تركتنا في المكلا ما لنا سند
عز النصير، وعز اليوم أحباب
فلا المحافظ يدري ما غشى بصري
والنائبي، وهو بي ما زال ينتاب
أنا القعيد بداري وهو يجهلني
معوّقٌ أنا لا أقوى على عمل
براثن الداء في عينيَّ والناب[١٩]

فعجزه عن حل مشكلته (الخاصة) هو الذي ولج به إلى هذا المضيق ولم يجد منه مهربًا. فتوالت شكواه من حال بيته بعد أن تهدد بالانهيار:

قل للمحافظ بيتي مسه ضرر
وانهدّ سقفٌ وجدرانٌ وأخشابُ
جفت خلاياه، واختلت به غددٌ
تمزقت منه أوصال وأعصابُ
يكاد ينقض فوق القاطنين به
في كل صدعٍ يُرى للموت سردابُ[٢٠]

وسال الشعر بقصائد في هذا الموضوع دون أن تبلغ حد الهم العام فبقيت مشكلة خاصة تحدث عنها الشعر من حيث هي كذلك دون سواها، وهو موضوع الفقرة التالية من هذه القراءة للديوان.

مشكلة خاصة:

في العقد التاسع من القرن العشرين واجه الشاعر مشكلة خاصة تمثلت في تهدد منزله بالانهيار، فقد أهملت صيانته سنين عددًا وقل الاعتناء بترميمه بعد أن شمله – كما شمل سواه – قانون تأميم المساكن الذي أصدرته حكومة الجبهة القومية بعد استقلال البلاد في المنتصف الثاني من العقد السابع من القرن العشرين، ثم ورثت حكومة (الحزب الاشتراكي) تلك التبعة ولم تضع لها حلولًا ناجعة ما بقيت حاكمة متسلطة. ولقد سعى الشاعر إلى إدارة الإسكان يبحث عن حل لمشكلته، وهيهات. فما كان منه إلا أن استل سيفًا من قصائده، وأعلى صوته ملء الفضاء جاهرًا بمشكلته، فخاطب أصحابًا ومسئولين ذوي شأن، وطلب وساطة كل ذي قدرة ونفوذ لإعانته على إيجاد حل مناسب لهذه المشكلة. وكم رجا وتوسل وعاتب ولام وهجا ودم إلى حد السباب. ولم يُجْدِه الشعر إلا بعد لأي وقلق وانهاك.

ترك شيخان من قصائده في هذا الهاجس ستًا، ومقطوعة مؤلفة من بيتين بعث بها إلى أخينا المغفور له بإذن الله تعالى الأستاذ عبدالله حسين الهدار، وكان يومئذ مدير إدارة الثقافة، ورئيس اتحاد الأدباء والكتاب، ومن المقربين إلى عدد من ذوي النفوذ والسلطة، يرتجي منه حلًا لمشكلته:

عضو الحادك في المكلا ما زال يرجو منك حلا
وسواء مهدت الطريق له فكان الصعب سهلا[٢١]

أما القصائد الست فلها حال آخر، اثنتان منها (بائية ورائية) خاطب فيهما من رجا وساطتهما، وهو في الأولى صديقه (صلوح) ليكون همزة وصل مع المحافظ ليعتني بمشكلته ويجنبه شرًا محدقًا به:

لم يبق لي بعدك يا صلوح أصحاب
متى نراك؟ فنحن اليوم أغراب
تركتنا في المكلا ما لنا سند
عز النصير، وعز اليوم أحباب
فلا المحافظ يدري ما غشى بصري
والنائبي، وهو بي ما زال ينتاب
أنا القعيد يداري وهو يجهلني
تعطلي خلقه داء وأسباب
معوق أنا لا أقوى على عمل
براثن الداء في عيني والناب[٢٢]

ثم يعرج بعد شكواه من سوء حاله إلى جوهر مشكلته:

قل للمحافظ بيتي مسه ضرر
وانهدّ سقفٌ وجدرانٌ وأخشابُ
جفت خلاياه، واختلت به غددٌ
تمزقت منه أوصال وأعصابُ[٢٣]

فهو مهدد بالسقوط، وفصل الربيع تنهمر فيه الأمطار فينذره بخطر، وصخور تتدافع عند جريان السيل تهز فرائصه وترعدها، ولا منجى إلا بتدخل سريع لإنقاذ ما يمكن إنقاذه بترميم أو ما يشبه الترميم.

لو غيمة وهي حلم الأهل في بلدي
تحدرت، جاء طي الحلم إنذار
قل للمحافظ ما زلنا برقبته
حتمًا سيؤسيه لو مادت بنا الدار[٢٤]

وهذه (الرائية) خاطب بها صاحبه (الهدار) ليشكو له من سوء ما صنع به مشرفو إدارة الإسكان، وانشغالهم عنه بتوافه الأشياء والأحداث.

فكيف تنجو و(باعلوي) منشغل
(كالبافطيم)، ودور الناس تنهار
هذا بأمجاد تيم الفيل منشغل
وذاك أمجاده المسواك والطار
غطت ضخامته عينيه في كتل
من اللحوم جثت فيهن أبقار
ما عاد يبصر حتى ما يمر به
لو كان حقًا يرى ما انهد إعمار

وهناك قصيدتان وجههما الشاعر للمشرفين على إدارة الإسكان مباشرة، مهادنًا ولائمًا في واحدة، هي (الدالية)، وشاكيًا متذمرًا، وهاجيًا في الثانية وهي (الرائية). وفيها أظهر سخطًا من سوء معاملة أولئك المسئولين لفنان عبقري مبدع مثله:

أبطال حبر في السطوح مع الأشاوس من نزار
والباب ذو الأقفال تكسره الخلاخل والسوار

ولا ضير في ذلك لو كان (المشرف الثوري) واعيًا بما يجب القيام به في مثل هذه الحالة، ولكنه:

يلهو كهارون الرشيد مع الخرائر والجوار (٢٥)
وكأنه السلطان تشرب نخب غفلته الديار
يلهيه عنا نفس ما قد كان يلهي شهريار

فلم يطق صبرًا، ولم يحتمل حنقه على هذه اللامبالاة، فانفجر هاجيًا:

موهت إشراق الحياة سلبت أضواء النهار
أرواحنا صارت بسطحك سلعة للاتجار
في كف سمسار تسوق بين بياع وشار
من خلف ظهرك يا خليفة ألف مروان حمار
من خلف ظهرك.. لا تثر يا تيح ظهرك كالجدار
يا أجبن الجبناء حتى في اتخاذك للقرار

ولقد ابتأس حاله على إبداعه فرثى حاله وصور بؤسه وتعاسته في بلد لا يقيم للإبداع والمبدعين شأنًا عظيمًا كريمًا:

ما أتعس الشعر يا هدّار في بلدي
ما دام يقلق هذا الشعر صرصار

وهذه نغمة حرص على ترديدها في هذه القصائد الأربع:

مضى الجميع، وأقوام أتت ومضت
وشاعر القوم عند الباب بواب
أمضي من الوقت ما يكفي لملحمة
ما صاغها قبل إغريق وأعراب (٢٦)

وقال في أخرى:

وترنحت فوق الجدار قصائد
واختل بحر كامل ومديد
ومعلقات هن كل نفائسي
شقت شرايين لها ووريد (٢٧)

وبقيت قصيدتان، داليّة وقافيّة، كلتاهما في موضوع واحد هو مناجاة الغيوم المنذرة بالمطر لتبارح سماءه فينجو بيته من سيلها المنتظر.. وإذا كان تجمع الغيوم في فضاء بلد ما إيذانًا بخير عميم فهو في نظر الشاعر المرعوب من انهيار البيت الآيل للسقوط إنذار خطير بشر عظيم.

يا حلم أهلي وصحراتي وأوديتي
أذكى انحدارك في أجوائنا القلقا
صحح مسارك ما في الدور من عطش
أعد إلى الزرع في وديانتا الرمقا
أعد إلى القمح في الوادي نضارته
وامنح ستابلنا الإنعاش والألقا
أعد إلى الطبل والمزمار فرحته
وامسح بجفن الرواعي السهد والأرقا (٢٨)

ولذلك تراه ينفر من الغيم، ويرجو زواله؛ لأن في زواله عن سماء داره بقاءً للدار وساكنيها، وخيرٌ من هطول مائها على المكلا أن تذهب إلى البعيد البعيد حتى تنجو داره وديارٌ مثلها مهددة بالسقوط والانهيار.

أتخمتنا بالوصل فارتحلي
عنا إلى الأغوار والنجد
يكفي، فوت بدورنا وبنا
فتوقفي. حاشاك أن تتدي
يا غيم ما بالدور من عطش
صحح مسارك في ذرى بلدي (٢٩)

لقد ضج الشعر بمشكلة الدار المهددة بالسقوط، وأبلغ عن حالها بما هي مشكلة خاصة بالشاعر الذي ارتبط وجوده كله ببقاء الدار وسلامتها من الانهيار، وفي القصائد إشارات تنبئ عن ذلك: (بيتي مسه ضرر/ يكاد ينقض فوق القاطنين به/ جئنا نطالب بالصيانة للديار لا لنستجدي/ حسب داري أنا إعلان مقدم الصرصار لترتمي قبل ركب القادم الدار/ نبلع أقراص منع سقوط الدور، وملء جوفي من الأقراص مليار...). وتلك نظائر دلالية تدل على انحصار عرض الشاعر للمشكلة في إطارها الذاتي المحض، وحسبك إلى ما أنبأ عنه النص أن الشاعر حين ضمن حل المشكلة لم ينبس بكلمة في هذا الموضوع، واكتفى بما قاله فيه يوم كانت المشكلة قائمةً حيةً عنده. أتُعدُّ قصائده تلك مما يندرج في باب (الهم) العام الذي ينشغل به كبار الشعراء كما قالت مقدمة الديوان ذلك جهرًا؟!

إخوانيات وقطع متجاورات:

بقيت في الديوان بعض نصوص لم يكتمل بناؤها لتصير قصيدةً، منها ما هو مشروع قصيدة لكن الشاعر لم يستغرق في نظمها فتاهت بين أوراقه، ولم يرجع إليها ليتمها، أو كأن إحساسه بهواجسها لم تلحّ على وجدانه فبقيت على ما هي عليه، على الرغم مما في بعضها من خفق وجداني غير خافية شعريته:

يا ليل إنك صاحبي في محنتي
بيني وبينك عشرة وإخاء
وحكايتي في الحب أنت كتابها
والقارئون نجومك الغراء
أمشي على جمر الحرائق صامتا
للقا الحبيب لو الحبيب يشاء
يا ليل ذوبني السهاد كشمعة
تبكي وترقص فوقها الأضواء

وهناك أبيات قل أن تنبئ عن شعر حقيقي كالذي قرأناه في هاجسي (المرأة) و(الذات المتكلمة)، ولذلك فهي لا تضيف إلى تجربته عظيمًا ولا حقيرًا لأن الحصاة المعزولة لا تدل على عظمة الجدار ولا روعة بنائه.

وهناك قصائد وجدانية بعث بها لبعض أحبته يستزيرهم، أو يتفقد أحوالهم، أو يسأل عن غيبة تبحث عن اطمئنان:

حتى عديم النفس طمأنته
بأنك الأمس وصلت العراق
ولم تطمئن من غدت نفسه
هاربة منه وراء الرفاق
يا من سلبت النفس من أضلعي
لم يبق مني غير دمعي المراق
وحين ودعتك أحيا أنا
وقبلتي حين أصلي العراق (٣٠)

وهذه (الإخوانيات) مما عرفه الشعر العربي في عصور متقادمة، والعبرة فيها بقدرة اللغة على تجاوز (الأنية) ولحظات المناسبة لينفسح مداها على الأعمق من المعاني والرؤى المنهمرة في الزمان. وهل قول أبي تمام مخاطبًا صديقه علي بن الجهم:

إن يكد مطرف الإخاء فإننا
نغدو ونسري في إخاء واحد

أو يختلف ماء الوصال فماؤنا
عذب تحدر من غمام واحد
أو يفترق نسب يؤلف بيننا
أدب أقمناه مقام الوالد (٣١)

إلا من هذا السمت العالي من الشعرية؟ ومن أمثاله أشعار لابن الرومي ومن لف لفه. وكلها أدخل في نسيج الشعر العربي وسياقه الإبداعي. أما إخوانيات شيخان فأبعد عن ذلك منزلة، وهي لا تزيد على مثل قوله:

يحلو بقربك مقيل ويطيب
ويلذ لي ما دمت أنت قريب (٣٢)

أو مثل قوله:

لا تلمني إذا تأخر ردي
إنني مثلما علمت كسول
وأنا في تلهفي واشتياقي
لكتاباتكم إليَّ عجول (٣٣)

فهل في مثل هذا القول وأشباهه شجن الشعر وخفق الإحساس بالمعاني السامية المقام؟ أدع الإجابة عن ذلك للقارئ المطلع على الديوان.

وهنا أراني أضع سؤالًا: هل ينبغي نشر كل ما خلّفه (الشاعر) على أنه تراثه الإبداعي؟ أو أن ما يستحق أن ينشر هو ما أبدعته قريحة (عبقرية) وإحساس عميق بالمعاني والرؤى؟

وعلى هذا فإن كثيرًا من (نصوص) الديوان كان ينبغي نخلها وغربلتها قبل الإقدام على ضمها للديوان ونشرها ضمن قصائده البارعات.

ولكن هيهات ذلك اليوم فقد سبق السيف العَذَل.

في بهاء القصيدة:

لا مراء في أن حسينًا شاعر متمكن من صياغة الشعر، وله خصائصه الأسلوبية التي تميزه من سواه، وسأسعى في الفقرات التالية الوقوف على ما تيسر لي منها، وأبدأ بأولها:

أ- وظيفة تعبيرية أفضت إلى حكم برومنسية القصيد:

تصنيف الشعراء في مثلثات ومربعات ودوائر عادة جرى عليها النقد قبل اللسانيات، وعد ذلك منهجًا مادام النقد يقوم على فعلي أمر محددين هما: صنّفْ واحكمْ. وهذه معيارية تتحكم في إنتاج النص أو هي تفترض ذلك. فالشاعر إنما يتعامل مع اللغة والحياة تشكيلًا وتكوينًا ولا يعطي النظرية أدنى اهتمام، ولا يعيرها بعض اعتناء. لكن النقد هو الذي يسعى إلى ذلك، ويرى سعيه ذلك غاية مقصودة، ومطلبًا أسنى. من هنا سعت مقولات النقد ما بعد اللسانيات إلى نقدٍ وصفيٍّ محض، ويدع الحكم على النص مرهونًا بمعطيات اللغة ومنطوق الكلام في النص.

والناظر في ديوان (الغيمة التائهة) يلفته غلبة الوظيفة التعبيرية على لغة الكلام في النص، وهي متأتية فيه من خلال حضور الذات المتكلمة في النص بضميرها وصفاتها في مقابل الحضور المحدود للآخر ذكرًا أو أنثى، مخاطبًا أو غائبًا. وسأجلو لك ذلك من خلال الوقوف على ثلاث قصائد من قصائد الديوان، وأدع ما تبقى لدراسة أخرى تتوافر على دراسة (أنا الشاعر في ديوان الغيمة التائهة)، تقوم على إحصاءٍ حسابيٍّ دقيق، ووصف نفسيٍّ يحلل طبيعة تلك (الأنا) وخصائصها، وهو ما لا يتسع له هذا المقام. وقد اخترت القصائد (المستقية "تحت الأمطار"/ شباك/ الحطابة) مثلًا للتحليل وموضوعًا له. ففي (المستقية) يوحي العنوان باحتمال وجود بعد سردي في بناء القصيدة يهيمن فيه ضمير الغياب بمختلف صوره، ولكن الإحصاء العددي لحركة الضمائر في القصيدة أنبأ عن شيء آخر. فقد جاء ضمير المخاطبة مرة واحدة في المتن (عراك غيم) ثم اختفت، ليتجلى عدد من الأفعال هي (قطاتْ) في بنية الصورة الحرة، وكأن الشاعر حمل آلة تصوير متحركة، فتابع توالي الأفعال وتلون صورها وتحولاتها المرئية على جسد (المستقية) لينسرب من ذلك إلى تتبع ذبذبات النفس وتفاعلها الشهواني مع تلك الصورة الماثلة أمام عينيه (سابقت خطوي الدروبُ/ ترنّحت مثلي الديار/ أعلنت أطماعي الحمراء عصيانها/ اجتاح اللهيب أشلائي/ دنوت للغيم الرضيع/ في فمي شبق/ تلهث داخلي الصحراء/ وقفت أستسقي السماء،...). وتلك حركة مزدوجة منها الداخلي ومنها الخارجي، وفي كليهما يتوالى حضور الذات المتكلمة، ويهيمن حضوره بمختلف صور ضميرها فاعلًا ومفعولًا به، ظاهرًا ومستترًا، متصلًا غير منفصل لتوكيد الرغبة في الوصول إلى تلك المرأة والالتصاق بها. يماثله في ذلك ما نجده في قصيدته (الحطابة) وللعنوان الوظيفة ذاتها وقد رأيناها في عنوان قصيدة (المستقية). لكن حضور ضمير المخاطبة هنا يفوق عدد حضوره في القصيدة السالفة، بلغ عدده الحسابيّ سبعة عشر ضمير مخاطبة، ناهيك بصوتها الحواريّ الذي ينقله النص في أسلوب غير مباشر، لكنه حضور يتقاصر أمام طغيان حضور ضمير المتكلم الذي بلغ عدده الحسابي مئة وعشرين ضميرًا، وكأن الذات أمام صورتها النكرة في عيني المرأة الحطابة حرصت على جلاء صورتها بما يساعدها على تقريب بعيد وتيسير نيل عسير مرجوّ. أضف إلى شيوع الصوائت الطويلة في القصيدة مما يهيؤها للغناء على الرغم من وجود السردية في بناء بعض المظان. فتخفت لذلك الوظيفة المرجعية والوظيفة الانتباهية المتجهة إلى المخاطب غالبًا لتهيمن على لغة النص وظيفة انفعالية تعبيرية تركز على ذات المتكلم تحديدًا وتنحصر في صفاته ومشاعره.

ثم نقف على قصيدة (شباك). وهو عنوان حياديّ - إن جاز وصف كهذا - كونه يقبل احتمالات متعددة ومتناقضة. وهنا لا تخلو المخاطبة من حضور لافتٍ يحدثه لها (المتكلم) في الأصل، فهو (الناهي) عن فعل ما لا يجب (لا توصدي/ لا تغلقي/ لا تسدلي/ لا تقولي/ لا تفرقي...)، وهو (المستفهم) عن الحال الغامض، (ألم تحسي أنني أقتفي؟!). فغدا حضورها مرتبطًا بحضور ذلك المتكلم، وما يوجه من كلام. وعلى الرغم من ذلك فقد جاء حضور المتكلم طاغيًا من جهتين، أولاهما استخدام ضمير المتكلم في صوره النحوية كلها.

وثانيتهما في متعلقات الذات التكوينية، فالقلب الذي يخفق قلبه هو، والعين التي تبصر عينه هو، والشاعر المتهم بقلة الحياء وعدم الخشية من الفضيحة، والمدعي الطهر والنقاء إنما ذاك هو، وفي هذا دلائل غلبة حضور الذات في النص، وانشغال المتن بها مما يحصر وظيفة لغتها في التعبير عنها، وهو جوهر مبدأ المذهب الرومنسي دون سواه من مذاهب الإبداع الأدبي. سيقول قائل: ولكن شيخان وصف باتجاهه نحو مذهب (الفن للفن)؟ وأقول: إن ذلك ليس بمانع نصّه ولا لغته من أن يتسما بملامح مذهب شعري آخر هو نوصلة وثقى بمذهب (الفن للفن)، وأعني به المذهب الرومنسي، نجد ذلك عند كثير من أعلام الأدب في الغرب، ونجد أشباهه عند آخرين من شعراء أعلام في أدبنا العربي الحديث. وحسبك بعلي محمود طه، ونزار قباني مثلين شرودين في ذلك. ولعل حضور شعر نزار في شعر حسين أطغى، فهو يتناص معه تناصاً ظاهراً كقوله:

يانهدها على فمي :: يعصر كرم الموسم

الذي يستدعي مطلع قصيدة نزار:

يا شعرها على يدي :: شلال ضوء أسود

مثلما يستدعي قول حسين:

يا مشرف الإسكان جئتك طالبا

إصلاح ما قد أفسد التجميد

قول نزار، وبين المطلعين بون شاسع:

يا تونس الخضراء جئتك عاشقا

وعلى جبيني وردةٌ وكتابُ

ومن الباب عينه قول حسين:

يدك التي التفت تطوقني

وتلف جسمي المتعب المرهق

الذي يترسم خطى نزار في قوله:

يدك التي حطت على كتفي

كحمامة نزلت لكي تشرب

والبيتان على تقاربهما متباعدان. فهما يتحدثان عن موضوع واحد وهو اليد التي مست المتكلم في شيء من الرقة والحنان. لكن تعبير حسين عنها موصول ببينة وذات يغايران بينة نزار وذاته. (يد امرأة) حسين التفت كأنها أفعى على رقبته فقربت به من حال الاختناق، وطوقت عنقه كأنها عنق كلب مطوق بسلسلة تقيده، (ولفت جسده المتعب المرهق) وكأنها كفن يدفن الجسد به بعد استكمال تكفينه. أما (يد امرأة) نزار فحمامة حطت على كتفه لتلتفته من استغراقه في التفكير بعيداً عنها، وقد نزلت تلك الحمامة لتشرب منه، وهذا أقصى حالات الاطمئنان وانتفاء الذعر.

لكن لا لوم على حسين، فالشاعر إنما يصور كما قال ابن الرومي (ماعون بيته)، وما يعرفه منه، وما يراه فيه. وما زالت المرأة المكلاوية في حاجةٍ لسنواتٍ طوال لتضارع المرأة الدمشقية غنجاً ودلالاً.

ب - في مراثي النص:

عمد شعراء الوجدان في الشعرية العربية الحديث إلى التشكيل الاستعاري حين يقصدون إلى الرسم بالبيان العربي، فغدت الاستعارة مقصداً يتجهون نحوه لجلاء فكرة الاتحاد بين ذواتهم وبين صور الحياة والطبيعة والمرأة اتحاداً تمتزج فيه العناصر فتغدو كأنها ذات واحدة. ولهذا يكثر في أشعارهم تعبير من مثل (الشمس الذابلة/ والوردة الباسمة/ والقمر العاشق/ وما إلى ذلك). على أن هذا لا ينفي وجود بنى الصور التشبيهية في أشعارهم، فهم من أوائل شعراء الحداثة الذين تجاوزوا التطابق الشعبي بين المشبهات والمشبهات بها منذ عاب العقاد على شوقي ذلك في كتاب (الديوان ج ١). وهل يمكن لمتذوق شعر هؤلاء الشعراء أن يغفل عن مثل قول أبي القاسم الشابي:

عذبة أنت كالطفولة كالأحلام

كاللحن كالصباح الجديد

كالسماء الضحوك كالليلة القمراء

كالورد كابتسام الوليد (٣٤)

حيث تتوالى التشبيهات متجاوزة ذلك التطابق لتخلص إلى عالم فسيح من الدلالات المتدفقة المتنوعة.

أو هل يستطيع متذوق للشعر مستغرق في ظواهره البلاغية أن يصرف نظره عن روعة التشكيل البياني في هذين البيتين:

وإذا ما استخفني عبث الناس تبسمت في أسى وجمود

بسمة مرة كأني أسثل من الشوك ذابلات الورود (٣٥)

وهي من العمق والسعة بحيث لا تحيط بتحليلها صفحة من كتاب.

هم إذاً يجيدون بناء الصورة في إطار تشكيلها التشبيهي أو الاستعاري، لكنهم غلبوا الثاني على الأول، وتجاوزوا في الأول المألوف في الموروث الشعري فمنحوا لغة شعرهم خصوصيةً وتميزاً.

وما كان حسينٌ إلا واحداً من هؤلاء، عمد إلى التصوير البياني كما عمد إلى استخدام الصورة الحرة في هيئاتها الثلاث (لوحةً ولقطةً ومشهداً)، فرسم بالكلمات صوراً شتى ومرائيَ متنوعة ضمنت لشعره بهاء تخييلياً يدل على اعتناءٍ بلقاء المتلقي في حال من الاندهاش.

ولقد استخدم الصورة التشبيهية متجاوزاً ذلك التطابق الذي كان يقصده إليه شعراء الاجترار عامة، فإذا الصورة عنده توغل في العمق الدلالي والإيماء الشعري إلى المعنى.

لا حاجزاً أعرف أو فاصلاً

أنا هنا كالمارد المطلق

كالشر، كاللعنة، لا تتقى

شراهتي، كالقدر المطبق (٣٦)

والمشبهات بها هنا مجردات لا يحيط بها الحس ولكنها تسبح في تائهات المعاني فيتلقطها الإبداع ليتفاعل معها المتلقي.

وقريب من ذلك حديثه عن مدى بلاده الفسيح وقد انطوى في وجدانه وتسرب عبر خلاياه (كرخيم الحدا/ كأنفاس وديانه/ كهمس سواقيه/ كالدان/ كأجراس نحلة). وتلك محسوسات منها المسموع ومنها المشموم، ولكن تصعيدها عن مطابقة الأشباه بنظائرها أوغل بها في عالم الإيحاء الذي رأينا صورة منه في استخدام المجردات في باب التشبيه.

وتجري الاستعارة في شعره كما جرت في أشعار أمثاله من شعراء الوجدان، وأبرز ما يلحظه قارئ شعره في تشكيل

الاستعارة عنده أنه يجري اقتران دوالها بين دوال كائن حي (حيوان/ طائر/ نبات) (بأخرى ترتبط دلالتها بمعنى مجرد أو جماد)، مما يلج بالصورة الاستعارية إلى الاستيحائية animation. وقد يكون اقتران الدوال فيها بين دوال (تشير إلى خاصية بشرية والأخرى جماد أو حي أو مجرد)، مما يدخل الاستعارة في دائرة التشخيصية personification. وذلك من مثل قوله:

وعوت شراهات الجياد، وسابقت

خطوي الدروبُ، كأنها أحياء (٣٧)

دع عنك (كأنها أحياء) فهو تشبيه فضلة. وانظر إلى عواء الشراهة وإلى إضافة الجماد إليها لترى الشاعر وقد منح (الجماد) حياة فيها وحشية كالتي هي ممنوحة للذئاب. ولك أن تتصور أي شبق ذلك الذي شمل الأحياء والأشياء عند رؤية تلك المرأة المستفزة. أما (سابقت خطوي الدروبُ) فتشخيص يبين لك مدى الحرص على السرعة للوصول إليها والظفر بها.

وتمرد الكبت الحبيس، وأعلنت

عصيانها أطماعي الحمراء (٣٨)

التمرد صفة في الإنسان تلبسها الكبت فتتشخص المعنوي المجرد في هيئة ماثلة أمام البصيرة. ومثلها عصيان الأطماع حيث اقترن المجرد بصفة بشرية.

وهو كثيرًا ما يوغل في خياله فيتصور الجوامد كائنات حية تسكن أرواحها الخفية في أعماق ذلك الجماد كالريح والأشواك والأدغال، حتى لينسب للجماد غيرة وغدرًا وختلًا، وكأنه ذلك البدائي الذي لم يستطع تعليل حركة الأشياء من حوله، أو ذلك الطفل الذي اندمج مع لعبه فسكب عليها من روحه نفسًا تحيا به وهي الجماد.

وتشققت قدماي أدماها من الأشواك غل

ولكم وشت بي الريح ضاق الدرب بي وانسدّ دخل

فهل الجماد يغار؟ حولي ههنا غدر وختل (٣٩)

وعلى بهاء مرائيه التخييلية فقد تراه يقع في تكرار صورة بعينها ولا يسعى إلى تجاوزها إلى سواها مما يماثلها. انظر معي:

- واستحال الوجود أرجوحةً سكى

سرى وتاه الوجدان في سبحاته

- وتهاوى القوام أرجوحةً سكى

سرى نموج النهود في طياته (٤٠)

- أرجوحةً سكرى فما لحني وعودي واحتد

طبل (٤١)

وقد يأتي بالأرجوحة مجردةً من النعت، وقد يجيء بها جمعًا. وقد جرت مفردة كما رأيت.

ومن طرائقه في التصوير لجوؤه إلى الصورة الحرة في هيئة اللقطة. وهو يعمد فيها إلى اقتران الفعل بالاسم متخطيًا اقتران الاسم بالاسم، ليفيد من ذلك معنى الحركة وتنوع الحال وعدم الثبات على هيئةٍ واحدةٍ، وهو ما يفيد اقتران الاسم بالاسم، وكأن الشاعر يحمل آلة تصوير سينمائية فيجسد بها المرائي في لقطات متوالية. أولا ترى ذلك متجسدًا في قوله:

عرّاكِ غيمٌ شفَّ منه رداهُ

شهقت له سحبٌ فساحَ نضاهُ

وتلملم الغيم المبعثر وارتمى

خلف الرداء يصول حيث يشاءُ

عبر المضيق وفيه لامس ما اشتهت

أرضٌ وما اجترأت عليه سماءُ (٤٢)

... أولا تراها لقطات تتوالى في حركتها وتجددها حتى تكتمل الصورة، وتستقيم بنيتها؟ وفي الديوان من أمثالها كثيرٌ كثير.

في خاتمة الأقاويل

كان الشاعر حسين عمر شيخان واحدًا من ثلةٍ من الشعراء اتجهوا بالشعر العربي فيها وجهةَ التجدد والإبداع، فتجاوز مع أترابه حالًا من (الاستاتيكية) التي اتسم بها مجتمع حضرموت الثقافي والأدبي إلى حال من (الديناميكية) كانت تمثل في شعره أملًا مرجوًا ولكنه انكسر فخابت ظنونٌ، ونكص افتراضٌ رأى فيه منشودًا، فاكتفى بالموجود، وإن فيه لما يغني المحتاج حين يبحث عن قصر مشيدٍ بين ركام طلولٍ وأبارٍ معطلةٍ. ولعلّ حسينًا – وهو الشاعر المتفنن المبدع – قد ظلم شاعريته حين لم يعتن بما أنتج إلا في أقلّ القليل، فصار هو الموجود الذي دلّ بيقين على شاعر متفنن مبدع اسمه حسين عمر شيخان، غيمة تائهة في فضاء الإبداع في حضرموت.

المكلا في ١٥/ ٤/ ٢٠١٧م

الهوامش:

١. الغيمة التائهة: ص٣٠.
٢. نفسه: ص١٠٢-١٠٣.
٣. نفسه: ص١٠٩-١١٠.
٤. نفسه: ص١٤٧.
٥. نفسه: ص٧٦-٧٧.
٦. نفسه: ص٨٣.
٧. نفسه: ص٨٥.
٨. نفسه: ص٩٤.
٩. نفسه: ص٩٧.
١٠. نفسه: ص١٠٧.
١١. نفسه: ص١٢٢.
١٢. نفسه: ص١٢٣.
١٣. نفسه: ص٩٨.
١٤. من النصوص التي سقطت من الديوان، وعنوان القصيدة (الوجه الآخر).
١٥. الغيمة التائهة: ص٢٧.
١٦. نفسه: ص٨.
١٧. نفسه: ص٨.
١٨. نفسه: ص٨-٩.
١٩. نفسه: ص٢٠.
٢٠. نفسه: ص٢٢.
٢١. نفسه: ص١١١.
٢٢. نفسه: ص٢٠.
٢٣. نفسه: ص٢٢.
٢٤. من القصائد التي سقطت من الديوان.
٢٥. من القصائد التي سقطت من الديوان.
٢٦. الغيمة التائهة: ص٢٥.
٢٧. نفسه: ص٤٧.
٢٨. نفسه: ص٧٩.
٢٩. نفسه: ص٤٣-٤٤.
٣٠. نفسه: ص٩٠.
٣١. أخبار أبي تمام: للصولي، تحقيق محمد عبده عزام وصاحبيه، ص٦٢.
٣٢. ديوان الغيمة التائه: ص٣٥. ولاحظ الخطأ النحوي في الشطر الثاني.
٣٣. نفسه: ص١١٠.
٣٤. نداء الحياة: أبو القاسم الشابي، كتاب الدوحة، عام ٢٠١١م ص٩١.
٣٥. الغيمة التائهة: ص٩٥.
٣٦. نفسه: ص٨٢-٨٣.
٣٧. نفسه: ص١٦.
٣٨. نفسه: ص١٦.
٣٩. نفسه: ص١٠٣.
٤٠. نفسه: ص٣٦.
٤١. نفسه: ص١٠٥.
٤٢. نفسه: ص١٥.

95
العدد (7)
يناير
مارس
2018م

محاولة لفهم النص المحضاري

قراءة صوفية لنصوص مختارة

للشاعر حسين أبو بكر المحضار (١٩٣٠ - ٢٠٠٠م)

(١ - ٢)

سالم فرج مفلح

تأملت نفسي مليًا مرات كثيرة، وعلى مدى سنوات، وساءلتها في أمر الكتابة في الموضوع عنوان هذه الورقة، وطالت الحيرة، وظل التردد قائمًا في النفس والوجود، وكيف لا يكون حالي كذلك؟! وشاعرنا المحضار قد شغل الناس حاضرًا وغائبًا، أما حاضرًا فبروائعه الشعرية الغنائية وشخصيته القوية في نطقها وصمتها معًا، وأما غائبًا، فإننا وبعد أن غادرنا المحضار إلى العالم الآخر، ونحن نكتب عنه وعن شعره في كل مناسبة وفي لا مناسبة، ونحتفل بذكراه في كل عام مرة، وتقدم الدراسات وتنعقد الندوات.... إلا أن المتأمل لكل ما قيل عن المحضار وشعره وإلى اليوم، لا ينقص مثقال ذرة من جهلنا بحقيقة المحضار وأدبه وفنه، وظل المحضار غائبًا كما كان حاضرًا، ذلك العملاق الذي بالقدر الذي يشعرنا بقزميتنا أمامه، فهو أيضًا يذيقنا مرارة الهزيمة أمامه حاضرًا وغائبًا. ولعل خير مثال على عجزنا أمام النص المحضاري، هو أن يظل ما كتبه المؤرخ الأديب الراحل محمد عبدالقادر بامطرف في تقديمه لديوان المحضار (دموع العشاق) في طبعته الأولى سنة ١٩٨٧م وإلى اليوم، هو الدراسة الوحيدة الجادة التي حاولت سبر غور المحضار وشعره وفنه، ولم نستطع بمعارفنا وخبراتنا المتأخرة المتقدمة تجاوزها بحال من الأحوال، والغريب الأغرب أن أيًا ممن كتبوا عن النص المحضاري استفاد علميًا مما كتبه مبكرًا الراحل بامطرف، من أجل فهم أفضل ومعرفة أقرب له. يقول الأستاذ بامطرف في نظرته للنص المحضاري: «إن الناس تذهب في تفسير أشعاره في استنباط الأغراض منها كل مذهب، ونؤولها تبعًا لانفعالاتنا وما كانت عليه حالتنا النفسية، ونأخذ منها شواهد الحال، وننفس بها عن موجدة نجدها عن أمور تعتمل في صدورنا، فننفعل بها على قدر قراءتنا وفهمنا، ثم نتجادل حولها، فنقتل ما قاله المحضار تفسيرًا وتأويلًا». ما قاله الراحل بامطرف هو عين الحقيقة أمس واليوم، في حضرة المحضار أو في غيابه، خاصة وأنه يتحدث بلغة الجمع، ذلك أن الأستاذ بامطرف فيما قاله إنما ينقل صورة مباشرة لحضور النص المحضاري فينا جميعًا، وهو في وصفه المكثف لذلك النص بوصفه (حمّال أوجه)، وقابلًا لتجدد القراءات ومناسبة الأحوال، قد أعطى شهادة مبكرة على أن ذلك النص إنما هو من النوع (الجيد) الذي يتمتع بكل تلك الصفات؛ نظرًا لـ(غموضه والتباسه)، وهو الأمر الذي يعني (فلسفية) ذلك النص؛ فهل يقول أستاذنا بامطرف بأن شاعرنا المحضار يصدر في شعره عن فلسفة ما؟ وأن النص المحضاري إنما هو نص فلسفي؟

يقول الأستاذ بامطرف: «المحضار رجل مسالم، وإن جنوحه للمسالمة يرجع إلى طبيعة روحه الفلسفية، فهو يرى أن مراد النفوس أحقر من أن نتعادى فيه أو نتفانى؛ ولذلك اختط لنفسه مجرى في الحياة أسماه (مجرى سفينة نوح)، وهو شديد الإحساس بأحوال زمانه، يشير إليها بكثير من

الرفق وبُعد النظر، وفوق ذلك فهو ذواقة في صياغة أشعاره، ديدنه النظر إلى كل قضية من أكثر من زاوية».

وإذا أردنا أن نلخص خصائص الفلسفة المحضارية كما رصدها مبكرًا الأستاذ بامطرف، والتي أعطت النص المحضاري نوعيته (الجيدة)، فإننا نجدها على النحو الآتي:

١- الزهد في الدنيا ومتاعها.

٢- الدعوة إلى السلام والمحبة بين الناس.

٣- وإذا كانت فلسفته تقوم على أساس أن مسلكه في الحياة هو مسلك سفينة نوح عليه السلام، فإن هذا يعني أنها تقوم على مبدأ طلب العناية الربانية، وهو مضمون الفلسفة والنشاط الصوفي.

كل تلك الخصائص التي رصدها الأستاذ بامطرف تعني أمرًا واحدًا، هو الفلسفة الصوفية، وإن كان لم يسمها باسمها. أما كيف انعكست تلك الفلسفة في أشعاره، فإن بامطرف يرى أن تلك الفلسفة هي التي جعلت شعر المحضار من النوع (الذوقي)؛ لأنه صادر عن نفس ذواقة ورؤية بعيدة للأشياء. غير أن الشعر الذوقي أو (الإشاري) هو فقط الشعر الصوفي، فهل النص المحضاري هو فعلًا نص صوفي ذوقي إشاري؟

قبل الإجابة على هذا السؤال المحوري في هذه المحاولة، لا بدَّ من الحديث عن الشعر الصوفي كما يفهمه أهله (الصوفية) الذين يقولون عن أدبهم (نحن أصحاب إشارة لا أصحاب عبارة) و(الإشارة لنا والعبارة لغيرنا)، ويقول فيه شاعرهم:

إذا أهل العبارة ساءلونا
أجبناهم بإعلام الإشارة
نشير بها فنجعلها غموضا
تقصر عنه ترجمة العبارة

فنشهدها وتشهدنا سرورا
له في كل جارحة أثارة
ترى الأقوال في الأحوال أسرى
كأسر العارفين ذوي الخسارة

ويقول ابن الفارض الصوفي الكبير في نفس المعنى:

وعني بالتلويح فهم ذائق
غني عن التصريح للمتعنت
بها لم يبح من لم يبح دمه ولي
الإشارة معنى والعبارة حدث

ويقول أيضًا:

رموز كنوز عن معاني إشارة
بمكنون ما تخفي السرائر حفت

ويقول الصوفي الكبير عمر عبدالله بامخرمة موضحًا دور الرمزية في أشعاره من أجل فهمها:

خذ عل مذهبي عند المجي والذهاب
واستمع زمزمة رطني ورمز الخطاب

ويقول في نفس المعنى الشاعر الصوفي الكبير (جلال الدين الرومي):

أهل الصورة غرقى في بحار كلامي
وأهل المعنى رجال أسراري.

ويقول الشاعر الصوفي أحمد بن علوان:

نظر المحب إلى المحب سلام
والصمت بين العارفين كلام
جمعوا العبارة بالإشارة بينهم
وتوافقت منهم بها الأفهام
يتزاحمون بلحظهم لا لفظهم
فلذا بها في نفس ذا إفهام
هذا هناك وذا هناك إذا ترى
ولسر ذاكَ بسر ذا إلمام
وتقابلت وتعاشقت وتعانقت
أسرارهم وتفرقت أجسام
فيقول ذا عن ذا وذا عن ذا بها
يلقى إليه وتكتب الأقلام
سقط الخلاف وحرفه عن لفظهم
فلهم بحرف الائتلاف غرام

ألفوا نعم لبيك واتلفوا بها

إذ لا وليس على الكرام حرام

أعرافهم جنوية أخلاقهم

نبوية ربَّانِيُّونَ كِرام

شهواتهم ونفوسهم وحظوظهم

خلف وفعل الصالحات أمام

بسطت بهن لهم أكف بالعطا

قامت بواجبها لهم أقدام

فالسر علم والعقول أدلة

والرب قصد والرسول إمام

الشعر الصوفي هو الشكل الذى عبر به الصوفية عن أحوالهم ومواجيدهم وسكبوا فيه تجاربهم الذوقية من خلال توظيفهم الإشارة والرمز للدلالة على المعاني المقصودة، بعيدًا عن المعاني الواردة الظاهرة على سطح أقوالهم. والصوفية في إيثارهم الإشارة على العبارة، إنما فعلوا ذلك أيضًا لأن الإشارة تمتاز باللطافة والرقة والدقة التي تجعلها أكثر اتساعًا للحقائق العلية والروحية، بينما العبارة في كثافتها المادية تضيق على مثل ذلك، فضلًا عن أن التلويح سبيل إلى كتمان الأسرار الإلهية وصيانتها وضنًا بها على غير أهلها من المتصوفة. وعلى العموم فإن أولى خصائص الشعر الصوفي وأبرزها، هو ما يتعمده شعراء الصوفية ومنهم المحضار في سلوك سبيل الرمز والكناية وضرب الأمثال: مثل: (الحب مثل البحر تلعب به الرياح - شوفنا كما الطير لي هو دوب شادي.. - وهو كثير في شعر المحضار)، ليحمل الشعر بين طياته ما لا حصر له من الدلالات الخاصة، وهذا ما يصرح به شعراء الصوفية أنفسهم ومنهم المحضار كما سوف نرى، ويستخلص الشعر الصوفي إبداعه الأدبي من خلال اعتماده على (المماثلة في الشبه) -كقول المحضار: على ضوء ذا الكوكب الساري- اعتمادًا مباشرًا، وهو الأمر الذي يعطي الأدب الصوفي قيمة أدبية عالية، ولهذا نجد أن هذه المماثلة تسيطر على أدبهم، كما يعمد الشاعر الصوفي إلى استثمار تعدد الدلالة للكلمة، مثل قول المحضار:

وهمع العسل واللبن من سمح ضروني

وبعده سقوني من القاطع وضروني

(ضروني الأولى: تعني عودوني. ضروني الثانية: تعني أضروني).

أو مثل قوله:

رعى الله زمن فيه أكرموني وودوني

وبالحب جابوني معاهم وودوني

(ودوني الأولى: تعني أكرموني. ودوني الثانية: تعني أعادوني).

أو مثل قوله:

ما بين عيني وبين النوم بادي

(بادي: على معنيين، الأول: تعني ظاهر، والثاني: تعني حضرميًا: حرب).

ويقيم على أساس تلك المماثلة والتعدد أنواعًا من المماثلات والموازنات والمطابقات، ولقد توصل الصوفية إلى هذا النوع من الشعر بعد أن عانى الصوفية الأوائل مثل الحلاج محنًا شديدة وصعبة لما صدر عنهم من (شطحات) كانت مثار حفيظة الفقهاء خاصة الذين أتقنوا إثارة الشكوك حول إيمان الصوفية وتوحيدهم الخالق تعالى، انطلاقًا من محاكمة شطحاتهم محاكمة فقهية صرفة، وهكذا كان ذلك الشكل الأدبي الذوقي الإشاري الرمزي هو الأسلوب الذى اختاره الصوفية لترجمة معانيهم وأحوالهم ومواجيدهم، بعيدًا عن لغة الناس والمعاني المتداولة التي لا تستجيب للمعاناة الصوفية إلا في شكل تلك الشطحات التي عانى منها الصوفية الكثير والكثير. ومنذ القرن السادس الهجري أخذ الشعر الصوفي صفته الفلسفية، بعد أن أخذ الفكر الصوفي مضمونه الفلسفي الكلامي (الأسلوب الرمزي الإشاري الذوقي) الذي يهيمن على الشعر الصوفي، يعني أن العبارة فيه غير مقصودة في ذاتها، وإنما هي إشارة ورمز ذوقي لمعان وجدانية صوفية جاءت عن طريق الكشف والإلهام الإلهي لحالة من المعاناة الروحية لذلك الصوفي، وهذا يعني أن ظاهر النص الصوفي غير مقصود، وأن المعنى المقصود يمكن الوصول إليه من خلال الغوص في البنية العميقة للنص، بعد معرفة التصوف على حقيقته وكما يفهمه أهله، ومعرفة إشارات القوم ورموزهم واصطلاحاتهم وأحوالهم. وإذا كان الأستاذ بامطرف قد أعطانا -مبكرًا- مفتاحًا لفهم فلسفة المحضار، ومن ثم النص المحضاري من خلال تصوره عن المحضار وشعره، ومن خلال ما رصده من خصائص الفلسفة المحضارية من حيث هي فلسفة صوفية، فهل ترك لنا المحضار مفتاحًا يكون مصداقًا لفهم الأستاذ بامطرف ومتوافقًا والنص الصوفي الرمزي الإشاري الذوقي؟

الحقيقة أن المحضار كان سباقًا في إعطائنا أكثر من مفتاح لفهم فلسفته في الحياة ونوعية أشعاره الفلسفية، فإذا كان بامطرف قد كتب ما كتب عن المحضار وشعره في سنة ١٩٧٨م، فإن المحضار كان قد خاطبنا في إحدى مراثيه سنة ١٩٧٥م بقوله:

من طهّر النفس من وسواسها الخناس

وحب مثلي وآمن مثل إيماني

تصبر عنده المآتم مثلما الأعراس

وتعيش فيه المحبة رمز ومعاني

في البيتين أعلاه يشرح لنا المحضار

فلسفته في الحياة، فيقول إنها تقوم على تطهير النفس من أدرانها والسعي إلى اكتساب المحبة والإيمان الخالص بالله تعالى والتسليم له تعالى في كل أمر وشأن بحيث تستوي لديه الأفراح والأتراح والمآتم والأعراس، ولسنا في حاجة إلى القول أن تلك المساعي والصفات التي يسعى إليها المحضار في الحياة، إنما هي مساعي أهل التصوف والفلسفة الصوفية والنفسية الصوفية، فلا يكون التصوف إلا في النفس، ذلك أن التصوف إنما هو علم بما ينبغي أن يعرفه الإنسان من أمر نفسه وطبيعتها وأفاتها وخواطرها، وما تصفو به النفس وتسمو وترقى به من ألوان الرياضة والمجاهدة، ووسائل التصفية والترقية، ثم العمل بما علمه من هذا كله والتحقيق له في حياته الخاصة والعامة، في ما بينه وبين نفسه، أو بينه وبين الآخر، أو بينه وبين ربه، وذلك على وجه تتحقق فيه المثل الأخلاقية العليا التي ينتفي معها الشر ويتحقق فيها الخير. ثم إن المحضار يخبرنا في البيت الثاني بأنه قد أصبح في مقام تتساوى فيه لديه المآتم والأعراس، وهذا هو مقام التسليم بقضاء الله وقدره، وهو مقام عزيز لدى المتصوفة، وهو يعني سكون القلب تحت جريان الحكم الرباني بلا اعتراض أو جزع وخوف، وهو بلغة المحضار في إحدى قصائده (مسلم ما يهمه برقها أو رعدها القاصف)، أو قوله: (ما دام ربي معي مانا معول.. يحط مهما يحط الوقت ويشل.. كله سواء إن عدل عندي وأن جار)، وقوله في أخرى: (سلمت لله أمري.. ما با يسلط علي غيره ناهي وآمر).

وفي الشطر الثاني من هذا البيت يخبرنا المحضار بأن المحبة (ويقصد بها التصوف) تتبين وتنعكس في أشعاره رموزًا ومعاني ذوقية ذاتية معيشة على مستوى الداخل والباطن، تم سكبها في إشارات ورموز، وذلك هو أسلوب الخطاب الصوفي كما سبق بيانه.

كما خاطبنا في مرثية أخرى سنة ١٩٧٧م متحدثًا عن أسلوبه الصوفي في أشعاره بقوله:

(١)

حسبي الإشارة في العبارة
أنا على التعداد مقدر
(بمعنى: ما أقدر).
يكفيك تسأل عن خباره
من كانوا به أخبر
ما تختفي الأنوار والأقمار
ليلة خسمشر
اللول هو والماس ظاهر
ما تخالطه الصهاديد
(الصهاديد: الزجاج المكسر).

(٢)

ليه حبوا الناس شعره
ليه قالوا إنه أشعر
عن من سبق قبله
لأنه ما تبجح أو تشعر
جاب الكلام السهل
حط وسط الكلام السهل سكر
وبعد ما رق واتطعم
وزعه في كل البراريد

(البراريد: جمع براد وهو الوعاء الذي يوزع به الشاي في الفناجين).

في المقطع الأول من النص أعلاه يخبرنا المحضار في صراحة تامة، بأن شعره إنما هو شعر إشاري رمزي ذوقي، ويخبرنا بأن العبارة فيه غير مقصودة في ذاتها، وإنما هي إشارة إلى معنى آخر، وأنه لا يستطيع أن يقول أكثر من تلك الإشارة لما يقصده، ويقول المحضار في إحدى قصائده: (يكفي من الرمز والتلميح)، ويقول في أخرى: (الرمز والتأشير يكفي.. سره على الناس مخفي.. بالعمد من ذات شفي)، أو قوله: (رعى الله أيام زينة معه في سعاد الزبينة.. لها سر بيني وبينه.. على الناس با اخفيه)، وقوله: (رمش عينه بريد المحبة... بين قلبي وقلبه... باقي الناس ما با يفهمونه)، وغير ذلك كثير. ثم يخبرنا المحضار بأنه يعلم أن مقاصده من المعاني عصية على إدراك العامة من الناس، وإنما يفهمها أهل الاختصاص في هذا الفن من المتصوفة، لهذا فهو يرشدنا للاستعانة بهم لإدراك تلك المعاني المشار إليها في أشعاره، إذ إنهم بها أخبر خبرة تجار المعادن الثمينة والأحجار الكريمة ببضاعتهم.

بل نجد المحضار أكثر وضوحًا في هذه المسألة حين قال:

من شرب له كأس منه
حل ربطه ورموزه وأسراره

وفي المقطع الثاني يرى المحضار أن سبب إعجاب الناس بشعره يعود إلى بساطة ألفاظه العادية الشعبية البعيدة عن التبجح والتقعر، ثم مزج وخلط تلك الألفاظ لإلباسها معاني ذوقية رفيعة تتجاوب مع كل الأذواق والحالات.

وإذا كان شعر المحضار يعتمد على توظيف (الرمز)، حسب قول المحضار نفسه، فإن الرمز يحتاج بالضرورة إلى (التأويل)، والتأويل الرمزي للنص ينتج عنه بالضرورة نص مغاير للنص الأصلي، ولهذا لا غرابة أن تكون محصلة تأويلنا للنص المحضاري نصًا آخر مغايرًا للنص

موضوع المعالجة النقدية في صورته الأصلية.

وإذا كان التأويل إنما هو شبكة معقدة من التخمينات والحسابات الدقيقة، فإنه يجب ممارسته من أجل تجنب سوء فهم النصوص، فليس من التأويل في شيء تأويل قول المحضار مثلًا: (أعبدك بعد الإله) بأنه كفر بواح، إذ إن ذلك ليس تأويلًا، وإنما هو قراءة سطحية وساذجة أبعد ما تكون عن التأويل.

النص المحضاري ليس منتجًا جاهزًا للفهم، وإنما هو إشارة إلى معان تقع وراءه، ولهذا فإن مهمتنا تكمن في معرفة حقيقة هذه الإشارة وتأويلها من خلال الغوص بعيدًا في بنيته العميقة والحياة داخله وفي صلب المعنى الذي نقوم بمساءلته، لملء فجواته وبياضاته وثغراته وتحقيق تماسكه الدلالي (الوحدة الموضوعية للنص).

ولما كان جنس النص ونوعه يتحكم في طريقة تماسكه الدلالي، فإن التماسك الدلالي للنص الصوفي يتم في ضوء معطيات نقدية ولسانية خاصة.

وإذا كانت اللغة المتداولة لا تستجيب للمعاناة الصوفية، فإن الخطاب الصوفي يمثل تجاوزًا لها، وتفجيرًا لإمكانياتها المكنونة، انظر كيف أنزل المحضار القمر من سمائه وعليائه وطرحه أرضًا ومحايثًا له بقوله:

على ضوء ذا الكوكب الساري

انظر كيف أحال الشعر نثرًا بين يدي حبيبه بقوله:

الشعر يا النثره لك مثل حب الفيل

بك طاب لي نثره

ولا اقدر أنساك ولو فوقي مدر وصليل

تحل بك الذكرى

ما تنتشي العشرة

أيام ذقنا بها طيب الخمرة

كأس المدامة

انظر كيف جعل القلب كائنًا عضويًا قابلًا للسلامة والفساد والتعفن، وكيف فرق بين العشق والحب بقوله:

قلب لي ما تعفن.. يعشق الحب والفن

قضايا الشعر الصوفي ونماذج محضارية:

١- **التقشف والزهد في الدنيا وهجرها:** (المحبة بلية والهوى مشكلة منك بغى قلب ميدان).

٢- **العشق الإلهي:** وهو الغالب على أدب القوم. (عاد الهوى عاد الحبيب الأولي عاد)، (الحياة)، (جمالك رمز).

٣- **المقامات:** وهي فيما تحقق للعبد من مكاسب عبر الرياضة والمجاهدة. وهي متناثرة في أغلب قصائده الصوفية مثل قصيدة: (حبلك قوي) وهي في مقام الرجاء، ومجاهداته ورياضته الروحية.

٤- **المناجاة:** وهي سرد لتجربة العارف الصوفية. متناثرة في أغلب قصائده الصوفية، إضافة إلى قصيدة: (اللّه قدير)، قصيدة: (واسع الجود، يا حافظ الخلق...).

٥- **المديح النبوي:** (روضة العشاق في نظم مولد عظيم الأخلاق من أنفاس متقن الأشعار)، وهي قصيدة مطولة.

٦- **التوسل والاستغاثة:** بالنبي أو الأنبياء وعباد اللّه الصالحين.

٧- **مدح شيوخ الصوفية وأعلامها.**

* * *

نماذج من الشعر الصوفي للمحضار:

إذا كنا قد رأينا فيما سبق بعضًا من آراء أهل التصوف في نهجهم الصوفي، فما هي نظرة الشاعر المحضار في نهجه الصوفي؟ لعل القصيدة الآتية تعطي إجابة على ذلك السؤال:

الصبر أولى

الهوى حاكم مسلط عانقس غصب وقلوب

لاحكم ما في حكامه شي انقلابه

كم وكم خرّج صحابه من رواشين وغلوب

بعد ربح النصر حسوا بالغلابه

راحته والله تشبه عذابه

فيه ياكم شفت من راحه وكم شفت تعذيب

باصبر والصبر أولى ما وقع لي حظ ونصيب

* * *

وقت يسقيني عسل من جبح ما غبه الثوب

لارضي وأوقات يجرحني بنابه

تمضي الأيام نا واياه ركضه بقيروب

لا في المبعد ونصحوني القرابه

الهوى خافي حنش في جرابه

اختبرته من زمن صغري وجربت تجريب

باصبر والصبر أولى ما وقع لي حظ ونصيب

* * *

لارعى الله الهوى ذي ما ركب فوق تركوب

دوب وأهل العشق خدامه ركابه

لابكاء داود ينفعهم ولا حزن يعقوب

عندما تنزل بهم نقمة عذابه

كم وكم من شاب ضيع شبابه

في الهوى لما تبيّض دومة الراس وتشيب

باصبر والصبر أولى ما وقع لي حظ ونصيب

* * *

استلي واضحك وناراسي من اللطم معصوب

الهوى والناس والدنيا عصابه

لاشكيت الحال قالوا لي مقدر ومكتوب

لي كتب مبعد رضي يمحي الكتابه

عاد شي دعوه من الله مجابه

لي بها في الحب باتقضي جميع المواجيب

باصبر والصبر أولى ما وقع لي حظ ونصيب

100
العدد (7)
يناير
مارس
2018م

تعليق نقدي على (بلاد بلاسماء)

رواية وجدي الأهدل، الفصل (١)

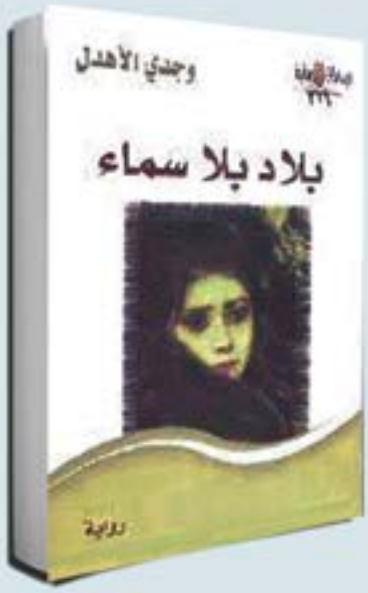

لعل المتأمل للرواية يلحظ أنّ ثمّة خطين بنائيين متضادين ينتظمانها: أحدهما: ينتمي إلى الوعي، ويتّجه من المعرفة إلى العرفان، يتجلى بوضوح في العنونة في عتبات الرواية، في إشارات: (السماء، والخطأ، والشرح، والمعرفة، والخبرة، والتحرر، والملك، والاستسلام، والمتعة، والسلطة، والعمى، والوهم، والسحر، والارتباك، والقربان، والشكّ، والتنسّك).

أمّا الآخر فيعود إلى العلاقة بين هذه العتبات والمجتمع في نماذج شخصيات الرواية في علاقتها بـ (سماء) كما تروي كلّ شخصية من شخصيات الرواية.

د. أحمد سعيد عبيدون

(١)

هذان الخطّان يمكن أنْ نراهما بوضوح من عنوان الرواية الذي يقدم لنا البلاد/ الأرض منقطعة عما يقابلها: السماء، وقد عبّر عن الأرض بلفظ البلاد التي هي جمع بلد، وفي جذرها وأغصانها إشارات سلبية من الثبات، والدوام، والبلادة، وذهاب الحياء والعقل، والتردّد والحيرة. وهي صفات تبرز الإنسان في لحظة استفال، ودنوّ، والتصاق بالأرض، التصاقًا يُظهر الصفات الحيوانية في الأفراد أكثر من الإنسانية. (انظرلسان العرب مادة: بلد). هذه الصفات يؤكدها الوصف الثاني: (بلاسماء)، فهو يقطع عنها صفات العلوّ، والسموّ، والأخلاق، والفضائل،والقيم، ممّا يبرز العنوان في تداعياته الدلالية علاقات متضادة تؤكد الخطّين السابقين في بناء لغة الرواية: العقل/ والبلادة، التغير/ والثبات، العلو/ والاستفال، الفضائل/ والرذائل، اليقين/ والحيرة...

(٢)

هذان الخطان يمثّلان علامة، الدالّ والمدلول فيها لا يقومان على منطق الاختلاف الذي يؤدي إلى التوحّد والبناء، وإنّما على (الاختلاف) الذي يؤدّي إلى التناقض والتبعثر والتقويض، في مساحة من السرد تُعلي من الشرّ في مواجهة الخير، والبراءة في مواجهة الخُبْث، والفساد في مواجهة الصلاح، والخرافة في مواجهة النور، والسواد في مواجهة البياض ... في مجتمع يختبر ويجرّب مزيدًا من المواجهة بين الوعي والواقع في طريق تحرّره ووضع قدمه على الطريق نحو النور، ويمكن أن نرى هذا الوعي في تأمل له في الفصل الأوّل المعنون بـ (الملكة) مثالًا:

(٣)

في فصل (الملكة) يبرز اسم (سماء) متجاوزًا معناه الكناني الأنثوي القريب، إلى معناه البعيد، المنتمي إلى خطّ الوعي والعُلوّ، وهو يتناسب في صفاته هاته مع الملوكية، التي هي في معناها سُموٌّ وارتفاعٌ وعُلوٌّ: فهي طالبة علم في كليّة العلوم، وهي ترفض الرفث والدناءة، فقد ردّت على سفاهة الحاج صاحب البقالة بالتلويح بظاهر الشبشب في وجهه رغم استشعارها لحرج كبر سنّه، وهي ترفض إزعاج ابن

الجيران علي، وترصّده لها، وتضايق من ملازمته لها كظلّها، ومن مضايقة المارّة وتحرّشهم بها، وإساءتهم إليها، كلّها صفات ترفعها إلى أعلى باتجاه حريّتها وأخلاقها وسموّها، الطفولة، البراءة، التفكير في الانتحار للدخول إلى الجنة، والموت كطفلة بريئة ليس عليها حساب، الحاجة إلى مَنْ يشعرها أنّها من البشر، لها عقل وروح، لا يختزل وجودها في اللحم والمتعة والجنس وحدها، وإنما في كونها إنسانًا لها عقل وتفكير وروح تحتاج للتقدير والاحترام.

هذه الصفات كلّها تجعلها ترتفع عن أرض الناس العاديّين واهتماماتهم الشعبية والحيوانية باللحم والمتعة، إلى سماء الاحترام، والتقدير، والفهم، والحرية، والعقل، والروح، والإنسانية. وهذا ما يعطي اسمها (سماء) مدلوله الكنائي الأبعد، ويجعلها ملكة يتطلّع إليها الناس بعيون الاحترام، وقلوب المحبة والامتنان، والعيش معها ومعهم بسلام.

هذا هو الشقّ الأوّل من العلامة المنتمي إلى السماء، والمحتوي للصفات الملوكية. أما الشقّ الثاني المضادّ له، فهو ما نراه في وجود ملكة بهذه الصفات السماوية، لا تعيش في قصر عال، ولا تحتجب عن الناس، ولا تستطيع أنْ تحكمهم وتُملي قيَمها عليهم، هي سَماءٌ نقيّة، جميلة، نزلتْ لكيْ تسكنَ الطابق الثاني، وتذهب للجامعة، وتمارس حياتها كفتاةٍ بسيطةٍ في غابةٍ من القيم الأرضية السفلى في مجتمع لمْ يَرَ ملكة تمشي في الأرض على قدمَيْن، ممّا يجعلها أقرب إلى أنْ تُؤوّلَ إلى مملوكةٍ في نظرهم، أكثر ممّا تريد أنْ تكونَ مالكة.

(٤)

إذا كان التعاملُ الطبيعيُّ مع الملكة هو التطلّع إليها بعيون الصيانة والتقدير، والاحتجاب، والخدمة، والسمع والطاعة، فإنّ الأمر مع (سماء) ينعكس تمامًا، وهنا يبدأ الفعل التفكيكيّ للقيم في احتكاك (سماء) بالمجتمع، وهو الأمر الذي يحتويه مصطلح يمكن أنْ يعبّر عنْ هذا الفعل الإبداعي في الرواية، ويعطي للسَّرْد وظيفة تحليل وتفكيك وإبراز وبعثرة

وجدي الأهدل

لثنائيات متضادّة تركبتْ بشكل زائفٍ فاسدٍ يحتاج إلى التعرية والتهديم، هذا المصطلح هو (التّحديق) وبدائله اللغوية في لغة السرد، وهو يُرينا الفعل الذي يقوم به المجتمع ضدّ قيَم الوَعْي مع بقائنا داخل اللغة، فإذا كان النظر إلى الملكة (التّطلّع) هو وعيٌ يقوم على الاحترام في اتجاه من (أدنى إلى أعلى)، فإنّ (التّحديق) وعيٌ يقوم على الانتهاك بالنظر غير المحترم في اتجاه من (أعلى إلى أسفل)، كما نرى في هذا الرصد اللغوي الغزير:

يراني / يترصّدني / العين السحرية / يراني / يلحق بي / أحسب نظراته النارية مسلطة عليّ/ نظرات الناس الفضولية/ الجميع يحدّق فيها / التحديق المكثّف القادم من جميع الاتجاهات / التحديق من ذكور مكبوتين / يقتحم جلدي / يحدق فيهن الرجال بشهوانية / التحديق المتواصل من عشرات المارّة / يصوّبون نظراتهم الشبقة إليّ / تحديق الرجال فيّ / التحرّش البصري / وهو يبصبص عليّ متلمّظًا بشفتيه / تلصّص شقيقي الأكبر على دفتر يومياتي / أمّي تحدّق في وجهي بتركيز بحثًا عن أثر للحبّ / الأنظار المسلطة عليّ طوال الوقت / أنا تحت المراقبة ليلًا ونهارًا / أشعر أنّي محاصرة / المجتمع يحاصرني من كافة الجهات / كلّ ما حولي يشعرني أنّني لستُ بشرًا لي عقلٌ وروح / أداة للمتعة ...

ويتطور التحديق بالعين إلى التحديق باليد، بمعنى أنه ينتقل إلى الفعل، من النظر إلى اللمس، الإيذاء، سائق الباص: ينشب مخالبه في لحمي حتى الرسغ، وثمّة جناس قصصي في التحديق: ذلك الذي يتعلّق بحكاية التحديق في عيني القط، وحكاية التحديق في عيني النمر.

يبدو التحديق لعبة الأسود والأبيض في وعي السرد بالمعنى الحسّي والمعنوي، أشبه بالحوَر الجمالي في الرؤية، فالحوَر شدّة بياض بياض العين وشدة سواد سوادها، والأحور العقل، والحوار رجوع الكلام، ويبلغ هذا الحور قمته في استعارات قصصية شديدة التنافر والحركة كما نجد مثلًا في ارتداء (سماء) البالطو الأسود وفي حملها الحقيبة البيضاء، فيما أسمته بـ (هيستيريا الحقيبة البيضاء): "أرتدي البالطو الأسود فوق ملابسي، وأضع النقاب على وجهي"، "لا أنصح أية بنت من بنات بلادي بحمل حقيبة بيضاء .. لأن لونها يلفت انتباه الرجال بصورة غريبة .. وبعضهم يصاب بهيستيريا من نوع خاص – هيستيريا الحقيبة البيضاء- في فقد شعوره والقدرة على التحكّم بنفسه" هذه الجماليات مقترنة باللذة القرائية التي تتمتع بالتضاد المعرّي والهادم بهذه الطريقة في التدافع بين الأسود والأبيض.

102
العدد (7)
يناير
مارس
2018م

بضه ... سلام للشعباء مائة مليون

وحـنـي يا بـضـه حـنـي ... وحـنـي يا بـلـد قـيـدون
سـلام آلاف من عندي ... على الشعبـاء مية مليون
أنا مشـــــتاق للوادي ... وقلبي من قداه مشطون
إلى الجـمـال والحـادي ... ومن بالسفح هم يرعون

هكذا وصفها الشاعر الشيخ محمد بن عبود العمودي في قصيدته الغنائية ذائعة الصيت التي كتبها تعبيرًا عن وفائه وحبه لبلدته بضه الرابضة في منتصف وادي دوعن الأيمن، التي تعد من أقدم مناطق وادي دوعن ومن أكبرها مساحة، وغدت اليوم مركزًا تجاريًا وتحتضن أسبوعيًا سوق الأربعاء الشهير الذي يستهويه أبناء دوعن والمديريات المجاورة.

وتقع بضه على حضن سلسلة من الجبال المطلة على مجرى الوادي من جهتين متناثرة مناطقها على الجانبين الشرقي والغربي (البلاد، وحصن عبدالحمد، والقفل، والشرقي، والقبلي...) ويحدها من جهة الجنوب منحنقة لجرات، ومن الشمال منطقتا قرن ماجد وبلاد الماء، أما من جهة الشرق والغرب فيحدها سلسلة من الهضاب التي ساعدت في الدفاع عن المدينة قديمًا. وتحيط بها أشجار النخيل، وتظهر المدينة بحلة جميلة للناظر إليها من رأس عقبة بضه.

وبضه هي مقر منصبة آل العمودي قاطبة، وعند زيارتك للمصانع القديمة فإنها تحكي لك تاريخًا طويلًا لهذه المدينة التي يوجد بها اليوم جميع الخدمات الأساسية والمرافق وأخذت تعيش عصر التطور.. وتربط دوعن بمديرية الضليعة ومحافظة شبوة عبر عقبة بضه. ويوجد بها ساقية بُنيت وفق طريقة هندسية رائعة مازالت حتى يومنا هذا وعمرها أكثر من (٨٠٠ عام) أسسها الشيخ محمد بن عثمان العمودي.

يوسف عمر باسنبل

التسمية:

قال السيد العلامة أحمد بن حسن العطاس «إنها مأخوذة من بضيض الماء، يقال بض الماء إذا نزل قليلًا قليلًا. وعلى مقربة من حصن المنصب بها عين ماء قليل لعلها سميت بذلك من أجله». اهـ. فيما رجح علوي بن طاهر أنها لفظة مرتجلة أو من ألفاظ اللغة الحضرمية القديمة (الشامل ١٦٢). (السقاف ٣٧٧). ويقال أيضًا إما أنها أخذت من اسم الإباضية (هي فرقة من الخوارج سكنت حضرموت وبخاصة وادي دوعن)، والناظر إلى اسم الإباضية يجد أن الاسم قريب من اسم بضه فقد يكون ذلك سبب تسميتها بحسب رأي الأستاذ حسين عمر بن الشيبة العمودي، ويعود ذلك لعدم امتلاك الباحثين والمهتمين من مصادر التاريخ الدوعني القليلة والنادرة ذكرًا لبضه قبل القرن العاشر الهجري، ولكن هنالك ذكر لوفاة الشيخ أبوبكر بن عبدالقادر سنة ٨٦٥هـ. كما في (تاريخ شنبل)، وقال عنه إنه صاحب بضه. وتسمى أيضًا بالشعباء (شكل الشعباء يشبه الرقم سبعة)، وسميت بهذا الاسم لأنها تقع على ضفاف واديين (الوادي الرئيس دوعن ووادي شعب صر) مما جعل شكلها على شكل الشعباء).

قيل إن زاوية الشيخ العمودي قد نقلت إليها في عهد الشيخ عثمان بن أحمد (الأخير) بن محمد بن عثمان بن أحمد (القديم) بن محمد بن عثمان بن عمر (مولى خضم) بن محمد بن الشيخ الكبير سعيد بن عيسى العمودي. والشيخ عثمان هو رجل الأحداث في حضرموت في القرن العاشر، توفي سنة ٩٨٦هـ. وقد تولى مشيخة العمودي بعد أخيه الفقيه عمر بن أحمد، فقد نقل عن الشيخ ابن حميد قوله إنه أي الشيخ عمر تنازل عن المشيخة لأخيه عثمان في ٢٢ شعبان سنة ٩٣٧هـ. وأما المنطقة نفسها فقد كانت موجودة من زمن بعيد حيث وجد بها نقوش (موجودة في أحد شعاب المنطقة). وموقعها الاستراتيجي دليل على قدمها إذ تمر خلالها ثلاثة أودية هي الوادي الرئيس دوعن، ووادي شعب صر، وكذلك وادي شعب ظرفون.

الشيخ عثمان العمودي حاكم بضه:

وجاء في كتاب: (الشامل في تاريخ حضرموت) أن زاوية الشيخ العمودي قد نقلت إليها في عهد الشيخ عثمان بن أحمد (الأخير) بن محمد بن عثمان بن أحمد (القديم) بن محمد بن عثمان بن عمر (مولى خضم) بن محمد بن الشيخ الكبير سعيد بن عيسى العمودي. والشيخ عثمان بن أحمد الذي جعل مشيخة العمودي سياسية. وسبقه الشيخ عبدالله محمد الذماري ٨٣٨هـ.

الشيخ عثمان بن أحمد المتابع لحياته يجده ذلك الرجل السياسي الذي بإمكاننا أن نطلق عليه لقب سلطان الوادي ورجل حضرموت القوي في تلك الحقبة. فقد صال وجال طيلة أكثر من عقدين من الزمان في حروب ومناوشات جلها مع السلطان الكثيري القوي بدر بن عبدالله الملقب (أبوطويرق).

وللشيخ عثمان بن أحمد ذكر كثير ويُحكى عنه أنه عندما قدم عليه الشيخ معروف بإجمال هاربًا من شبام أكرمه وأسكنه وأطعمه في السنة الأولى الدخن، والسنة الثانية الذرة، وفي الثالثة البر، وعندما سأل عن ذلك قال: «إننا نريد أن نرتقي في الإكرام لا أن ننزل».

وحُكي أيضًا أنه عندما كان أبوطويرق يحاصر بضه واشتد الحصار عليها حتى كاد أن ينفد الطعام بها سارت الأمور لصالح العمودي، وطلب السلطان الصلح، وعندما جاء اليوم الموعود لدخول السلطان إلى عند الشيخ في بضه أمر الشيخ بأن تخرج جميع الأطعمة الموجودة بالبلد وأن تنثر بأكياسها في مداخل البلد وعلى طريق السلطان ففعلوا وعندما شاهد السلطان ذلك ظن أن البلد به طعام كثير وأنها لن يضيرها الحصار وإن طال فتساهل في شروط الصلح.

قال الشاعر الكبير عمر بامخرمة السيباني مادحًا الشيخ عثمان بن أحمد العمودي بقوله:

يا عوض قل لمن كفه غياث المساكين

قل لعثمان وافي الذرع شمس البراهين

والذي في جبينه سر طه وياسين

زادك الله على مر الجديدين تمكين

اذكر العهد يا بن حمد وحسنه تحصين

والشيخ عثمان هذا هو الذي تلقى الشيخ معروف بإجمال بالصدر الرحب عند هروبه من شبام سنة ٩٤٩هـ وآواه حتى وفاته.

وسارت الأمور وانتقلت المشيخة من شيخ إلى آخر حتى عهد الشيخ المنصب محمد بن عبدالله (أبوست) ١١٠١هـ، وبدأ بعده النزاع والاختلاف بين أبناء العمومة عامة آل مطهر وآل محمد بن سعيد خاصة، واستقر الأمر بعد أن نزع الشيطان بين آل العمودي في القرن الحادي عشر على أن تكون بضه وما حاذاها وما ارتفع عنها لآل مطهر..

ومنصب بضه من آل صالح عبدالله بن صالح بن عبدالله بن صالح بن محمد بن حسين بن محمد بن مطهر بن عبدالله (أبوست) بن عبدالرحمن الوجيه بن عبدالله بن عثمان بطل الوادي بن أحمد السابق ذكره. وهم من آل صالح بن عبدالله ابن مطهر.

توفي الشيخ صالح بن عبدالله بُعيد سنة ١٣٤٠هـ وتوفي والده المنصب السابق سنة ١٣٠٥هـ.

وفي سنة ١٣٦٤هـ توفي منصب بضه الشيخ عبدالله بن صالح بن عبدالله العمودي، وخلفه ولده الشيخ حسين.

وفي تاريخ بضه السياسي الكثير من الأحداث لأنه ومنذ عهد الشيخ عثمان بن أحمد العمودي كانت مركز الوادي فقد ارتبطت بالأحداث كلها من القرن العاشر إلى غزوة الزيود لوادي حضرموت واستقبال الشيخ عبدالله بن عبدالرحمن (أبوست) العمودي لهم في سنة ١٠٧٠هـ تقريبًا، والذي استقبلهم هو ابن الشيخ أبوست (الشيخ محمد)، وكان ذلك في حياة أبيه.

وأحداث المشايخ آل مطهر وأحداث المشايخ آل محمد بن سعيد بن عبدالله وغزوة الكسادي واستيلائه على الوادي سنة ١٢٨٦هـ، وأحداث القعيطي ابتداء من فجر القرن الرابع عشر الهجري حتى أحداث ثورة البادية في منتصف القرن العشرين...

ويُحكى أن من أراد أن يدخل بضه بنيّة الضيافة أو المشورة أو الاحتكام أو الشكوى وغيرها من الأسباب فإنه كان قبل أن يصل إلى بضه يقف كبير الوافدين بمن معه ويقول لهم أوزنوا الكلام فأنتم داخلون بضه. وكما هو معروف فإن المناصب كانوا من أهل العلم الديني والدنيوي والشعر والأدب.

مواقف من تاريخ بضه:

لمدينة بضه الكثير من المواقف التي سجل التاريخ جزءًا منها أن الشيخ عبدالله بن عثمان بن سعيد العمودي حاكم بضه في القرن التاسع الهجري استولى عام ٨٣٧هـ على الوادي الأيمن بأكمله.

وفي بـضه مثوى آل العمودي لا يقـل عدد الرماة فيها آنذاك عن خمسمائة رام يحـملون الميازر الألمانية، ولم يفرطوا بـــها مثل ما باعها أهل حضرموت في أثناء المجاعات.

ومن غرائب الصدف كما يحكي ذلك ابـن عبيداللاه السقاف في كتاب (إدام القوت) أن بـدر بـوطويرق جهز على العمودي بـجيش يرأسـه يوسـف التركي فهزمهم العمودي وأخذ مدفعًا معهم كانوا يطلقـــونه على عسكره وورد بـه إلى بـضه، وكذا اسـتولوا على مدفع النقيب الكسادي عندما هزموه وانحـدروا بـــه إلى بـــضه، وما يزال هذان المدفعـان موجودين إلـى اليـوم فـي مصنعتهم ببضه.

التعليم في بضه:

كان التعليم في بضه مثل باقي المناطق التي اشتهرت فيها العُلم وكان من أشهرها عُلمة الشيخ سالم بـلخير في زاوية الجامع، ثم أعقبه محـمد خرد، وعُلمة الشيخ محـمد باعشن في دار المنصب وهو خريج مدرسة الفلاح في مكة، وعُلمة الشـيخ عبـــدالله محـمد المنصب في بـيته، وعُلمة الشيخ عبدالله بن الشيبة العمودي، وعُلمة الشيخ أحـمد محـمد بـاعفيف في بـيته وهو إمام مسجد (بامنصور).

ثم ظهرت المدارس وكانت بـدايتها عند تحـويل عُلمة مسـجد الجامع إلى مدرسـة، وكانت تتكون من ثلاثة طوابـــق، وبـــها مكتبـة، وكانت نفقتها على يد فاعلي الخير من أسرة آل الحسيني. وكان التعليم فيها نظاميًا حـــيث يتم تدريس الدين وعلومه، واللغة العربية وعلومها، إضافة إلى حلقات الذكر. وكان الطلاب يدفعون مبلغًا زهيدًا. وممن تولى إدارتها العلامة علي محمد بن حـــفيظ وســـاعده المعلمون عبـــدالله بازغيفان، ومحمد هفان، وعبدالله الخطيب، وأبوبكر العيدروس وآخرون. وبعد ذلك جاء الشـيخ محـمد ســعيد العمودي وشـجع الأهالي من أجل تأسيس مدرسـة فتجاوب الأهالي والتجار الموجودين في الحبشـــة وغيرها وتبرع منصب بـضه بـالأرضية، وتم تأسيس المدرسة عام ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٣م، وتم وقـف أحـد البـيوت عليها في عدن من

أجل الإســـهام في عملية الإنفاق عليها والمساعدة بإشراف من أسرة آل سعيد بـن عبـــدالله العمودي. وتولى إدارتها العلامة علي بن حفيظ، ثم تعاقد الأهالي مع الشيخ عثمان بـــــاعمر العمودي على الإدارة والتدريس وبإشراف ناظر المدرسة الشيخ محـمد حسـن بـامطهر العمودي بـمنهج ســـوداني، وكان التعليم فيها للصفوف الصغرى، وظلت المدرسة تعمل حـتى عام ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م عندما تحولت للإشراف الحـكومي من قبـل أحـمد عمر آل عثمان العمودي. وكان التدريس في بـــــداية التأسيس للمدرسة عام ١٩٦٣م في مبنى تابـع لمسجد الشيخ محـمد عثمان وسط البـــلاد، وكان التعليم فيها يقـتصر على الصفوف الدنيا للأولاد فقـــط، وتغير فيما بـعد اسـمها من (مدرسـة بـضه الأهلية) واليوم تسمى (مجمع صلاح الدين).

وكان تعليم البنت في منطقـة بـضه في تلك الحقبـة يأخذ دوره وإن كان التعليم في بعض العُلم يجمع بين الجنسين؛ وأشهرها عُلمة الفاضلة فاطمة حسـن بـادكوك في بـيتها، وعُلمة الفاضلة فاطمة حسين خرد، وعُلمة الفاضلة نور حســين بـاداهية في بيتها، وقامت أيضًا ببناء مدرسة للبنات مع السـكن وفي أثناء تواجد الأسـتاذ أبوبـكر عثمان بـاعمر العمودي كانت زوجته تقـوم بالتدريس للبنات عندما فتحت فصل واحـد عام ١٩٦٨م. وفي عام ١٩٩٧م تم بـــناء مدرسـة مستقلة للبنات في وسـط البـلاد على نفقة الشيخة المرحـومة والدة الشيخ محمد بن عبود العمودي ليتم فصل البنات عن البنين.

واليوم يوجد في بضه أربعة مبان لمدارس (مجمع صلاح الدين) أحدها المبنى الرئيس بشرقي بضه، والمدرسة القديمة التي تأسست عام ١٩٦٣م، وفرع الصديق بالشرقي على الخط العام، ومدرسة النور للبنات.

من علماء بضه:

من علماء بضه ومفاخرها الشيخ عبـدالله بـن حسـن بـاطيران العمودي، وكان عالمًا فقـيهًا كبـيرًا أخذ عن مفتي زبـيد السـيد عبدالرحمن الأهدل، وتوفي سنة ١٣٣٠هـ تقريبًا. والشيخ عبدالله بن عثمان العمودي الذي تمسى المقبرة القديمة باسمه وبـها ضريحـه. والشيخ عبدالقـادر بـن عبـدالله (أبوسـت) من علماء القـرن الحـادي عشـر. والشيخ سعيد بـن عبـدالله (أبوسـت) من علماء القرن الحادي عشر. والشيخ عبـدالله بـن سـعيد بـن عثمان العمودي من علماء القرن الحـادي عشـر والمترجم له في كتاب (بشـرى المتقـين عن تاريخ العموديين). ومنهم الشيخ أحمد بن حسين من آل أحمد بـن سـعيد العمودي وهو أهل العلم والنور. والشيخ صالح بـن عبـدالله الهندي مفتي بضه. ومنهم الشيخ عبدالرحمن بـن عمر العمودي أحد تلاميذ ابن حجر، وهو صاحب (حسـن النجوى فيما وقـع لأهل اليمن من فتوى). وكذا الشـيخ عبـدالله بـن محـمد العمودي الذي قـال في (المواهب والمنن)

إنه كثيرًا ما يقـــول «الهمة والعزم يأتيان برسـل التوفيق خير من كثير من العقـل»، وهي حكمة عظيمة.

ومن علماء بضه الشيخ معروف بن عبدالله بن محمد بـن عبدالله بـن أحمد بـاجمّال الصدفي، الذي ولد بشبـام سـنة ٨٩٣هـ، وهو أحـد كبـار علماء حـضرموت تعرض لنكسات ومضايقات كثيرة والتجأ للشـيخ عثمان بـن أحـمد الذي آواه إلى أن توفي ببضه يوم السبت ١٥ صفر سنة ٩٦٩هـ ودفن بمقبـرة ظرفون شرقـي بـضه، وما زالت تسمى مقبرة الشيخ معروف باجمّال.

وأيضًا الشيخ عمر بن محمد خبيزان من أهل القـرن الحـادي عشـر الهجري. ومن علمائها السيد علوي بن زين بـن أبـي بـكر خرد حج ثلاثين حجة ماشيًا ولم ينم الليل خمسـين سـنة، عاش طويلًا قـيل مائة وخمسـون سـنة توفي سـنة ١٢٩٧هـ والسيد جعفر بن محمد بن حسين بـن جعفر بن محمد بن علي بن حسين بن عمر العطاس المتوفى ببضه في ٢٤ شوال ١٣٣٣هـ.

المعالم التاريخية:

يوجد بـمدينة بـضه بـعض المعالم التاريخية منها:

• **المصنعة:** مصنعة بضه وهي أم المصانع العمودية التي تأسست في منتصف القرن العاشـر الهجري (٩٣٧هـ)، على يد الشـيخ عثمان بن أحمد العمودي.

• **دار الجد:** ويعود بناء هذه الدار إلى القرن الثامن الهجري أي أكثر من ٦٠٠ عام.

• **قرن المعجا:** وبه قلعة محصنة ويحمي بضه من جهة الجنوب الغربي.

• جامع الشيخ محمد بـن عثمان العمودي: الذي أعيدت عمارته في فاتحـة محـرم من عام ١٣٩٢هـ.

• **الدرع:** ويتميز ببـنائه الشـامخ وطرازه المعماري الأثري.

• **مسجد الحصن (حصن باعبدالصمد):** الذي تأسـس عام ١٠٦١هـ وأعيد بـناؤه وتجديده في ربيع الأول من عام ١٤١٤هـ.

• **كريف بضه:** الذي كان يكفي أهل المنطقة ما يقارب التسعة أشهر ويعد كريفًا ضخمًا في وقـتـه، ويقـال إنه بُني على نفقـة السـلطان عامر بـن عبـدالوهاب صاحـب اليمن وعدن؛ لأن الذي بناه باساكوته الذي عمّر جامع تريم وضمير ثبي. ثم حصل خلل في الكريف وعمّره الشيخ عبدالله بـن صالح العمودي منصب بضه، ومن بـعده الشيخ عبدالقادر باياسين، ثم عمّره أولاد الشيخين عبدالرحمن وسعيد ابني عبدالله بن صالح.

• **مقبـرة الشيخ معروف بـاجمّال:** المتوفى بـها في منفاه من بـدر بـوطويرق. وقبـلها مقبرة الشيخ عبدالله بن عثمان العمودي.

• **مصنعة آل حسـين العمودي:** (وهم من آل عثمان بن أحـمد القـديم)، يقال بـأنها أول مصنعة، ومبـنى هذه المصنعة بـاق إلى الآن، وتتميز بموقـعها الاسـتراتيجي فهي تقع وسط البلاد من الأعلى، وتكشـف وادي دوعن من الجهتين، وحـواليها العديد من المصانع التي كانت بـدايات حـكم آل العمودي.

• **عرش بـضه:** وبـه قـلعة آل خالد منيعة التحـصين، وذات طراز معماري فريد يلفت انتباه الناظر إليها.

• **القفل:** قفل آل خالد وهو حـصن يحـمي بضه من جهة الجنوب الشرقي.

• **سوق الأربعاء الأسبوعي:** الذي يفترش فيه الباعة مجرى الوادي منذ سـاعات الصبـاح الأولى حـتى قبـيل الظهر، ويتم فيه عرض جميع البضائع، وتقـام فيه أسـواق للمواد الغذائية والعسـل الدوعني والخضروات والأسـماك والأغنام، وهو فرصة أسبـوعية للقاء بين أبناء وادي دوعن.

• **نظام الري:** وهو نظام فريد تتميز به هذه المدينة دون سواها، وإن كان هناك بـعض الشبـه مع نظام الري لبقـية مدن الوادي، وهناك سـاقـيتان (الساقـية الطالعية والساقية الهابطية) حيث يوجد هناك سور للساقـية الطالعية ارتفاعه حـوالي ثمانية أمتار تقريبًا عن الساقـية الهابـطية، وهو سور مبني من الحجر (مضلعة)، ناهيك عن نظام سقـي بسـاتين النخيل (الحـيضان)، وأسس هذا النظام الشيخ محمد بن عثمان العمودي (عامر بضه)، وقـد كان هذا النظام مبنيًا على هندسـة وإحـكام فقـد وجد على إحدى سواري مسجد جامع الشيخ محمد بن عثمان القديم وحدات نظام قديمة فرعونية أي أنه درس الهندسة الفرعونية ونفذ على أساسها نظام الري في مدينة بضه. وهناك بـعض الطرق التي اسـتخدمها للقـياس والوزن بحسب ما أفادنا بـهذه المعلومات الأستاذ حسين بن الشيبة العمودي...

المراجع:

١) حداد، علوي بن طاهر، الشامل في تاريخ حضرموت، تريم للدراسات والنشر، ٢٠٠٥م.

٢) السقاف، عبدالرحمن بـن عبـيدالله، معجم بلدان حضرموت، مكتبة الإرشـاد، صنعاء، ٢٠٠٢م.

٣) باحمدان، محمد سالم، التعليم الأهلي في دوعن، ٢٠٠٨م.

٤) حسين، بـن الشيبـة العمودي، بـضه.. عراقـة الماضي وأصالة الحـاضر، مجلة (دوعن)، العدد (١١).

106
العدد (7)
يناير
مارس
2018م

نظرات سريعة

حول مجذوب سنقافورة *

تُعَدُّ الكتابات الرصينة عن الحضارم في مهاجرهم المختلفة حول العالم قليلة جداً فيما سبق، غير أن الباحثين في الفترات الأخيرة توجّهت أنظارهم - إلى حَدٍّ ما - صوب ذلك الشتات الحضرمي كما يحلو للبعض أن يُسمّيه، والبعض الآخر من الباحثين يرونَ في لفظة شتات، التي قُرِنَتْ منذ زمن بالتشتُّتِ اليهودي لا تليق بالحضارم، الذين أثْرَوا الحياةَ في مهاجرهم بجميع جوانبها. وإنّنا عندما نناقش هذين الرأيَيْن عن تسمية حضارم المهجر بالشَّتَات الحضرمي نرى أنّ الحضارم - فعليًا - هم في شتاتٍ حقيقيٍّ، لكن أسبابه ودوافعه ونتائجه وتأثيره وتأثراته تختلف كثيرًا عن جميع الشتاتات حول العالم، هذا الاختلاف والتميُّز دفع بعض الباحثين والمراكز العلميّة حول العالم في الفترات القريبة لأن يوجّهوا أنظارهم نحوها كما أسلفنا.

عادل حاج باعكيم

لقد تحدّثَ عن هذه المسألة المهمّة -الهجرة الحضرمية بالشتات الحضرمي- جماعةٌ ممّن تخصّصوا في هجرة الحضارم (حضارم المهجر)، أو اهتمّوا بدراستها، ومن أجود ما قرأتُ في تبيينها ما كتبه الدكتور فريد العطاس في مقدمته على الكتاب الذي جمع فيه مجموعة أبحاث حرّره مؤخّرًا الموسوم بـ: (الحضارم في المحيط الهندي إسهامات في مجتمع واقتصاد جنوب شرق آسيا)، ترجمة الدكتور عبدالله عبدالرحمن الكاف.

الكتاب السابق الذكر - الحضارم في المحيط الهندي - الذي خصّصْنا هذه العجالة للنظرِ السريع في أحد فصوله وهو الفصل الموسوم بـ: (إمبراطورية في خدمة هياج إسلامي: مجذوب في مستعمرة سنقافورة)، للأستاذ سيرين سيفيا، طالب الدكتوراه في جامعة كاليفورنيا بـ(لوس أنجلوس)، الذي اهتمّ في أغلب أبحاثه ومقالاته بالتصوف الإسلامي أو الحياة الروحية في الإسلام، فهو مشارك في تحرير كتاب (الحركات الصوفية في الإسلام المعاصر)، كما تُعَدُّ كتاباته من الكتابات التخصصية الرصينة في هذا الشأن.

أولًا وقبل الحديث عن بعض جزئيات هذا الفصل نفكّك العنوان ونبيّن المراد من بعض جزئياته وهو كالآتي:

- إمبراطورية: يقصد بها الباحث (سيرين سيفيا) بريطانيا العظمى، التي كانت الإمبراطورية التي لا تغيب عن أراضيها الشمس.

- هياج: هو الثوران.

- مجذوب: مشتق من الجذب، وهو مصطلح عند أهل التصوُّف يأتي بمعنى: حال من أحوال النفس يغيب فيها القلب عن علم ما يجري من أحوال الخلق، ويتصل فيها بالعالم العلوي، ويسمّيه بعض الصوفية بـ(الوجد)، أمّا عند أفلاطون فالجذب بمعنى الخير الأسمى. والشخص المجذوب الذي يقصده الباحث هنا هو الحبيب الداعية الولي الشهير (نوح بن محمد الحبشي العلوي الحضرمي السنقافوري).

- مستعمرة: هي إقليم يحكمه أجنبيٌّ، يتوطّنُه أو يكتفي باستغلاله اقتصاديًا أو عسكريًا.

- سنقافورة: حاليًا جمهورية تقع على جزيرة في جنوب شرقي آسيا عند الطرف الجنوبي من شبه جزيرة ملايو، ويفصلها عن ماليزيا مضيق جوهور، وعن جزر رياو الإندونيسية مضيق سنقافورة. كانت جزءًا من سلطنة جوهور حتى القرن الرابع عشر الميلادي، ثم أصبحت مستعمرة تابعة للإمبراطورية البريطانية، التي جعلتْها قاعدة بحرية لها في فترة الحرب العالمية الأولى، غير أنّ اليابان استطاعت السيطرة عليها أثناء الحرب العالمية الثانية وتحديدًا في عام ١٩٤٢م، غير أن بريطانيا استعادت السيطرة عليها مجددًا وظلت مسيطرة عليها إلى أن استقلت.

أورد الباحث في مطلع فصله خبرًا أوردتْهُ صحيفة (سنقافورة الحُرّة) بتاريخ الثاني من أغسطس ١٨٦٦م، هذا الخبر الذي ذكرت فيه الصحيفة نبأ وفاة الحبيب نوح، الذي وصفتْه بالملك الطاعن في السن، ووصفت الموكب الجنائزي بالمهيب والمراسيم بالكبيرة، وأشارت أيضًا إلى أنه يُعَدُّ عند المسلمين - بتلك الأنحاء - في مقام

النبيِّ نوح . أورد سيرين سيفيا هذا الخبر في طليعة فصله ليؤكّد قطعًا على المكانة الاجتماعية والدينية التي وصل إليها الحبيب نوح (الشخصية المدروسة)، وليؤكد أيضًا أنه وليٌّ له كرامات مشهورةً في تلك الأقطار وذلك ليقوّي ويعضُد الروايات الشفاهية، التي اعتبرها مصدرًا مهمًا، اعتمد عليه في كتابته لهذا الفصل . قال الباحث : «يحاول هذا الفصل أن يستكشف سجلات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، إضافة إلى كمٍّ هائل من الروايات الشفوية عن الحبيب نوح، التي تحوي قصص الكرامات، مستخلصةً من سير الأولياء، التي تضمُّ روايات مصدرُها العديدُ من الباحثين، وتمّ تناقلها عن طريق ما يعرف بالإجازات، التي تؤكّد سلسلة من القصص المتناقلة، حتى تصل وتسند إلى ناقليها الأصليين (الرواة)، علاوةً على ذلك فإني أقدّر ما يروى من أحلام ورؤى يقظة، وممّا يتمُّ تداوله من قصص تُعيِّنُ المريدين على مواكبة تقاليد الأولياء . تلك الأقاصيص والروايات لا غنى عنها فيما نحن بصدده». كما صرّح الباحث برأيه في جزئية أخرى من فصله فقال: «إنّ المصادر الشفوية مثل كرامات ومعجزات الحبيب نوح ليست مجرّدَ مخازن لمواد خاملة من الماضي كما نقل في كوبر، بل إنها تعكس خبرات وحكم محنكة .. إلخ».

تحدّثَ سيرين في فصله هذا «عن بعض الجوانب الأساسية في حياة ذلك الفقير المحبوب في سنقافورة أيّامَ الاستعمار وما تلاه في عهد سنقافورة المستقلة»، هذه الشخصية التي نظر إليها الباحث عن كثبٍ تُعدُّ من الشخصيات المضطربة في نظره ونظر الاستعمار، وتعدُّ الفترة المدروسة من الفترات المهمّة جدًا في تاريخ سنقافورة الحديث، التي لم يكتب عنها من هذه النظرة الروحيّة، التي اتّخذها سيرين منهجًا له في كتابته لهذا الفصل، والعنوان يؤكّد ذلك، فقد جعل (في خدمة مجذوب) جزءًا منه ليدلّل على ضعف الإمبراطورية العظمى في حربها ضد الإسلام، فقد هزمها في سنقافورة فقير مجذوب .

هذا الفقير الذي أذعن له جميع الحكام البريطانيين لمستعمرة سنقافورة، الذين عاصرهم ستافور درافلس المتوفّى عام ١٨٢٦م، وجون كروفورد المتوفّى عام ١٨٩٨م وفاركوهار، الذي

المترجم د. عبدالله عبدالرحمن الكاف

حاول بعضهم محاربته علنًا أمام الناس ممّا كلّفهم ذلك كثيرًا من هيبة بريطانيا في نفوس الناس في تلك المستعمرة، فقد هزم هذا المجذوب نوح جميع مَنْ حاربه من الحكّام أمامَ النّاس، وجميع ما ورد من قصص وأحداثٍ تُفيدُ بأنّ الصّراعَ لا ينتهي بينَ الحاكم والفقير إلا بطلب العفو والمسامحة من الفقير، مما دفع المستعمر إلى اتخاذ قرار صعب يجرح الحكومة البريطانية بأكملها وهو أن لا يتعرّض أحدٌ منهم للحبيب نوح . قال سيرين : « لم يكن النظام البريطاني، الذي كان يسيطر على سنقافورة من عهد السير ستافور درافلس في يوم من الأيام راضيًا عن ما يعمله الحبيب نوح . قام النظام بعدّة محاولات لوضع الحبيب نوح تحت سيطرة الحكومة والإنصات لأوامرها . لكن تلك المحاولات باءت بالفشل واستمر الحبيب في سلوكه وظلّ مشغولًا بمساعدة قطاعات الشعب، التي تعاني الفقر». هذا السبب الذي جعل الحبيب نوحًا محبوبًا بين الناس «مساعدة قطاعات الشعب التي تعاني من الفقر».

لم يكن الحبيب نوح الفقير الوحيد في سنقافورة، لكنه كان الأشهر بين جميع الفقراء المجذوبين هناك. يُعَدُّ الحصولُ على المعلومات الدقيقة صعبًا في مثل حالة الحبيب نوح، ممّا جعل الباحث سيرين يعتمدُ على الروايات الشفوية مصدرًا مُهمًّا في دارسة حياته، غيرَ أنّ هناك مَنْ جَمَعَ بعضَ كراماتِ الحبيب نوح وطرّزها ببعض المعلومات الخفيفة وغير الموثوقة عن حياته، هذه المجاميع هي : (لامبانقتيروخير) جمع غاوزي خان سوراتي، أحد شيوخ الطريقة القادرية النقشبندية في سنقافورة، و(السيرة المصغرة) جمعها عبدالغني سعيد، أحد شيوخ دار الأرقم من مجموعة صوفية ماليزية، والثالثة سيرة لم تطبع بعد جمعها أحد أسباط أبناء أخ الحبيب نوح وهو السيد عبدالله بن أحمد العطاس .

هذه المصادر التي مع وجودها تصبح الكتابة الدقيقة عن شخصية الحبيب نوح بجوانبها المختلفة من محاربة الاستعمار ومساعدة الفقراء ونشر التعاليم الإسلامية غير ممكنة - إلى حدّ ما - غيرَ أنّ طريقة الباحث في استقراء تلك الأقاصيص، واستخراج تلك الأحداث من بواطنها يُعَدُّ منهجًا جيّدًا في دراسة مثل هذه الشخصيات، التي لم يكتبْ عنها البريطانيّون بغرض جعل الناس يتناسونها بمرور الزمن -كما نظنُّ - لتمسح مع ذلك النسيان تلك الكرامة المهدورة على يدِ تلك الشخصيات التي من أشهرها الحبيب نوح، لكنَّ محبّةَ غالبيّة الناس جعل هذا المكرَ الاستعماريّ مستحيلًا؛ لأنّ أمثال الحبيب نوح قد رسخوا في الذاكرة الوجدانية لجميع طبقات الشعب السنقافوري .

اتخذ الحكام البريطانيون من مستعمرة سنقافورة ألوانًا من الحيل والمكر والخديعة في حربها الفاشلة ضد الحبيب نوح، فتارة يتّهمونه بالجنون وأخرى بالسرقة مما يجعلهم يزجّون به في السجن، « كان في كل مرّة قادرًا على مغادرة السجن وكأن شيئًا لم يحدث». قال سيرين سيفيا: « لكننا نلاحظ أن سجنه أدّى إلى عدة نتائج:

أولًا: أن المجذوب نظر إليه صانع معجزات وكرامات في سنقافورة.

ثانيًا: تاريخ ديني منشأه الثبات والخلود في قصص حياة الحبيب نوح من ناحية وفشل السلطة الاستعمارية في احتواء جذبه.

ثبت في شهادة مُريديه، وفي التقارير الصحفية عن تشييع جنازة الحبيب نوح أنّه تفوق على الممثّلين المستعمرين، حتى عند وفاته فقد انتظر جثمانه في محله حتى وصل أربعة من البريطانيين المحترمين، الذين اعتنقوا الإسلام على يده مما جعل هذا الحادثة آخر حوادث الصراع بينه وبين الاستعمار البريطاني.

تحدّث الباحث في فصله أيضًا عن جوانب أخرى، منها بعض مظاهر ولاية الحبيب نوح، ومتى تظهر كرامات الأولياء، وعلاقته بمريديه، وهداياهم له، وبعض كلامه. قال الحبيب نوح متحدّثًا مع أحد مريديه التجّار، الذين يتعهّدون تجارة القماش بين الهند وسنقافورة: «كنت منتظرًا وصولك من الهند وهديتك لي أيضًا. لقد وعدتَ سرًا أن تهديني عدة بارادات من القماش الأصفر عندما تسافر سالمًا وتعود سالمًا إلى سنقافورة. أودّ أن أذكّرك لكي تفي بوعدك؛ لأنّي أريدُ أن أهدي القماش الأصفر إلى المحتاجين». نقرأ في هذا النص - الصغير من حيث عدد كلماته، الواسع في معناه - بعض جوانب شخصية الحبيب نوح - رحمه الله -، يظهر من خلال هذه الكلمات القليلة أن هذا الرجل المتحدث أحد أولياء الله الصالحين، الذين وصل إلى مرتبة يطلق عليها المتصوّفة (المكاشفة)؛ حيث علم بما أسرّ به مريده قبل سفره، وكان بإخباره له بما وعد يحقّق أمورًا، منها أنه يدفع المريد لتنفيذ وعوده ويقوّي العلاقة بينهما، بحيث تمسك المريد بالحبيب عند علمه وتيقنه بولايته، وأيضًا رغبة الحبيب نوح في مساعدة المحتاجين؛ حيث نوى مسبقًا - كما صرّح - أن يهدي ذلك القماش الأصفر إلى بعض المحتاجين.

مقام نوح الحبشي

ختامًا ستتحدث بما أتيح لنا من معلومات عن بعض جزئيات سيرة الشخصية المدروسة في هذا الفصل بشكل مركّز. الحبيب نوح بن محمد الحبشي ينتسب إلى صاحب الشّعب من بني علوي، ولد في حضرموت في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي، تلقّى بعض العلوم عند علماء حضرموت كعادة الحضارم وخاصة العلويّين منهم في ذلك الوقت، ثم في عام ١٨١٩م سافر الحبيب نوح إلى سنقافورة وبها عمل كاتبًا في الخدمة المدنية التابعة للمستعمر البريطاني، غير أنه سرعان ما استقال منها بعد مضيّ فترةٍ قصيرة، بدأت حينها تغلبُ عليه حالة الجذب، التي اشْتُهِرَ بها إلى أن توفّاه الله، عرف الحبيب نوح بالصلاح وحب مساعدة المحتاجين حتى أصبح بطلهم، الذي ينظرون إليه بكلّ حُبٍّ وتقدير، له بعض الإخوة أصغرهم حبيب عارفين، كما أنه تزوّج وأنجب بعض الأبناء، أكبرهم الشريفة رقية المتوفّاة عام ١٨٩٠م. توفّي الحبيب نوح بعدَ أنْ طالَ به العمرُ كما أشارتْ صحيفة (سنقافورة الحُرّة) في خبر نعيه، الذي نشر في الثاني من أغسطس ١٨٦٦م، ويرى بعض الباحثين أن وفاته كانت حوالي عام ١٨٨٠م، وهو بعيد عن الحقيقة، والأسباب التي جعلت ذلك الباحث يستنتج هذا التاريخ عديدة - في نظرنا - منها:

- أنه لم يعتمد على مصدر في تحديد هذا التاريخ، بل كان اجتهادًا غير موفق.

- أنه لم يقف على عدد صحيفة (سنقافورة الحرة)، الذي احتوى النعي المشار إليه سابقًا، وإلا عرف أن وفاته كانت عام ١٨٦٦م.

- أنه لم يستطع الوقوف - كما نظن - على أيّة وثيقة من الوثائق الشخصيّة للحبيب نوح، التي يمكنها الإجابة عن بعض الاستفسارات المهمّة عن حياته وشخصيّته، أو لعله لم يبقَ منها شيء، إلى فترة ذلك الباحث، وذلك لضياعها، أوعدم وجودها في الأصل، والاحتمال الأخير في نظرنا غير ممكن؛ لأنّ بني علوي عُرِفُوا بشدّة الحفظ، وأنهم يحتفظون لفترات طويلة جدًا بمثل هذه الأشياء المهمّة.

تُخْتَتَمُ (الامبانقتيروخير) بتأمل واستغراق، وبحروف بارزة، وهو أمر يمكن من خلاله مقارنة التمثال الميت لرافلس في سنقافورة بالحضور الحقيقي والحيّ للحبيب نوح، ويظهر جليًا من خلال هذه المقارنة أيضًا الفرق بين من يخدم من أجل سنقافورة ومن يخدّم سنقافورة بأكملها من أجله، «خلّف رافلس تمثالًا لا يزار، لكنه (أي الحبيب نوح) لم يمتْ، ما زال حيًا ويجذب الكثير من الزوّار».

---

*ورقة مقدّمة لندوة: قراءات في كتاب (الحضارم في المحيط الهندي)، التي أقامتها جامعة الأندلس بالمكلا بتاريخ ١٧ أبريل ٢٠١٧م.

109
العدد (7)
يناير
مارس
2018م

محاولة للتعري

أبوبكر محمود باجابر

هذه الضمادة تمنح الجرح وقتًا لينمو !
وظلًا ليستريح !
متساهلة
كهبّة شعبيّة غزلتها شوارب الريح
وودودة بما يكفي لإغواء جرح قديم بالتعرّي
وبما لا يكفي لإطفاء رغبة نبتت بالخطأ في مكاني الصحيح !!
هذه الضمادة
وسادة تسرق النوم من رأسي
تتسلّل من تحتي، لتُطعم بي جروًا فاجرًا ينبح بوجه السماء كلّما حاولت حَمْلَ جلنتي بعيدًا!!
لم أمنعه من النباح ، بقدر ما حذّرتُ منه السماء، حتى لا تتورّط بي مثلما سبق وتورّطتْ أختها الأرض ..
الأرض لم تفعل الكثير
فقط ، كانت ترغب في أن تكون القشّة الطيّبة
لأنجو ، فكانت النهرَ !!
النهر الذي التفّ حولي – فيما بعد – على شكل ضمادة بحجم العدم !
فكانت هذه الضمادة ..
وكنتُ الجرح الذي سيكبر أكثر وأكثر بين يديها !
وفي عينيها !
هل قلتَ لي، "إنّ هذه الضمادة أسمال رثة قطعتها نزوة عابرة من قميص المستحيل"؟!

ليس بعد ، فهذه الضمادة لم تفقد شهيّتها في أن تكون القميص
القميص الذي يأخذ كلّ مقاسات يأسي
" الإنسان جرحٌ مفتوح!! " مجنون يضاجع الراعية والقطيع معًا على الطريق العام
أنا لا أريد أن أصبح إنسانًا أبدًا !!
فالإنسان فضيحة عارمة مدعومة بإجماع أممي ، وسخطٍ شعبيٍّ نهم يأكلُ اليابس، ليبصق الأخضر في وجه اللوائح والنظم المؤيدة لحقوق الإنسان!!
" جرح مفتوح!! " أنا على ما أظن
"وهذه الضمادة؟!"
لا ضير!!
اتركوها عليّ ، وشدّوها بكلّ ما أوتيتم مني!
فهذه الضمادة لا تنقض وضوء الوجع
ولا تثير قلق العتمة !!
هي الكذبة التي لا تقول إلا الصدق
وهي بالمناسبة – أكبر من أن تغلق جرحًا بحجم العدم
وأكثر من أن تهرّب فجرًا يائعًا إلى رئتيه !
إنّ هذه الضمادة تدحض ببداهة
وببلاهة كلّ الشائعات المغرضة القائلة بوجودي !!

موتٌ مؤقت..

محمد سالم بن داود

قَرِّبوا لي وسادتي وفراشي
سأموتُ حتى يجنّ معاشي
راتبي في البنوك أضحى أسيرًا
وأنا في الشِّعاب أرعى المواشي!
فإذا ما عوزتُ يومًا لمالٍ
بعتُ في السوق - يا عيالي كباشي
بات يشكو مواطنٌ دون جدوى
أين منّي المُنى وليل الرّيا ش؟!
في بلادي أعيشُ دومًا فقيرًا
وأخافُ من بيع يومًا (كُواشي)
أيّ ظُلمٍ وأيّ فوضى تمادت؟!
في هواها وغاب روحُ النّقاش!
قد جرى العدلُ في زمانٍ سحيقٍ
كرجالٍ أقامُوا عندَ النّجاشيْ
فاصبروا وابشروا بنصرٍ قريبٍ
لا تُبالوا إذا غشى الشّعبَ غاشي
كان (هتلر) و(موسوليني) طُغاةً
ثمّ ولّوا - والعهدُ نازٍ وفاشيْ

110
العدد (7)
يناير
مارس
2018م

سفر النجوم

من رواية (العنين)

(٢ - ٢)

خالد لحمدي

لأول مرةٍ أرى البيتَ كئيبًا، وأحسستُ بالوحشة، فأجهشتُ بالبكاء.

تنفتح في القلب نوافذُ الكون هامسة:

– أوَ ما زلتَ تعشقُ الصبرَ والانتظار..؟

ارتجف جسدي هامسًا: – تعبتُ كثيييييرًا.

وما زلتُ أولدُ مع كلِّ بذرة غرستُها في الأرض ونبتت وأينعت.. مع كل سنبلة قمح انحنت للأرض، وحملت قمحًا كثيرًا.

يجيئُني العمُّ خميس، بوجهٍ مقطب.. قائلًا بمرارةٍ وقلق:

– لم أرَ زمنًا كهذا.

وأردف بامتعاض وخوف:

– نركضُ خلفَ وهمٍ وسراب، تنعدم فيه الرؤية تمامًا.

البردُ قارس، والأرضُ لم تعد تفي بحوائجنا والتزاماتنا المتزايدة.

ثم أردفَ مؤكدًا..

– هذه الأرضُ سيجوع أهلُها..

حتى الكلاب صارت تتشاجر بعضُها مع بعض، لاقتسام عظمةٍ، أو جيفة لم يبقَ منها إلا عظام يابسة.

أسمعُ كلماته وكأنها طبلٌ يقرعُ في أذني..

هو لم يبع شيئًا منذ الصباح، ولم يعد أحدٌ يشتري القصب والبرسيم كعهد سابق.. ذهبَ الأمانُ، وهربَ من يشتري منتوجَ الأرض من قمح وشعير وأعلاف ومحاصيل كثيرة.

كلُّ الدروب مغلقة، ولا تنفتحُ إلا للسُرّاق، ورجالات الموت والقتلة.

ما عليش يا عم خميس..

– الصبرُ طيب.

رد بوجه فاتر:

– ماتت أرواحُنا قبل أن تجفَّ وتموتَ أرضُنا.

قلت بذهول مفاجع:

هل يُعقل أن يكونَ هذا هو العمُّ خميس، الذي كان لا يخفتُ صوتُه، ولا تفادرُ الضحكةُ شفتيه.. الأقوى جسمًا، والأذكى عقلًا، والشهير بين مزارعي قريتنا.. انحنى ظهرُه، وخفتَ صوتُه وأناشيده التي يغنّيها في أثناء مواسم الحصاد، بفرح ونشوة، تحت أشعة شمس مضيئة.. أكلَ الدهرُ عمرَه، وأنهكَ العملُ جسدَه، وظلَّ رجلًا عالي الخلق، سمع المعشر، ومحببًا بين كل الناس. يعارك الأرض وحيدًا، بعد أن أمسكَ ابنُه سعيد بإمامة المسجد، وحلقات الدرس التي يجمع فيها صغار القرية كل مساء.. انشغل بالمسجد وشؤونه.. يغادره بعد صلاة الفجر، وقد ارتفعت الشمسُ في السماء.. يقضي حوائجَ بيتهم، ثم يعودُ للمسجد قبل الظهر، ولا يغادره إلا بعد أن يغلقَ الشبابيكَ والأبواب، ويتأكد أنَّ حنفيات الماء أغلقت جيدًا.

صرتُ ألتقيه في المسجد كل يوم.. وقد نقف أحيانًا بعد الصلوات، نحاكي بعضًا، ونذهب بقلوب تنضحُ صدقًا ووفاء.. وتمرُّ عقاربُ العمر بخفّة وتسارع، ولا شيء يؤخرها أو يعيدها إلى الوراء.. والله وحده من يولجُ الليلَ في النهار، ويولجُ النهارَ في الليل، وهو عليم بذات الصدور..

وأرواحنا تنامُ في سرر الأمل والحلم، وقلوبنا تعانقُ الريح وأهداب الفضاء..

أيها القلب أين أنت من كل هذا..؟!

أوَ ما زلتَ متناغمًا مع الماء وخرير السواقي، وما تزال الشمسُ تُقبّل وجهَك كل صباح ندي..؟ كيف تحيا..

أو ما تزال كما كنتَ، روحًا محمولةً على جناح النور، مرتحلًا بين الشوق وسُهده، وبين مرارة الشغف والظمأ..؟

كل الفضاءات ضيقة، دون حضن يتّسع بك ولا يضيق.. وليست كلُّ الرهانات خاسرة.. وبوسعك أن تدفعَ بالحب للأمام.. ويمكن لك أن تمسكَ به، أو تدعه يهربُ بعيدًا، كل شيء بقدر.. وهذه أقدارنا.. لم نصنعها ولا نملك مردها أو تغييرها.. ولا بد أن نعيش اللحظةَ كما جاءت، ولا نعترض أو نتمعّض.. ونسأل الحيَّ الذي لا يموت، لأمانَ والعافية.. وأعيننا مثقلة بالسهد، وأرواحنا ترقب الخلاصَ، وقد دنت في الأفق خيوط المغيب.

اليوم لا يشبهُ الأمس، ومن مات من الاستحالة أن يعود.. وبيت هنا يزغردُ ويفرح، وآخر يبكي ويشتدُّ بكاء.

يقف عمّي إبراهيم مُوشّحًا بعباءةِ الصبح.. يدعو بصوت هادئ وعجيب:

– يهل الله.. يهل الدار..

فزعتُ عند سماعي صوتَه المباغت.. فهبطتُ السلم، ولم أدر كيف بلغت بي خطاي، حتى وجدتني أفتحُ له الباب. وقف لثوانٍ وجهه بوجهي..

رأيت في عينيه تعبًا وساعات نوم لم تكتمل..

بادرني بصوتٍ متسائل:

– أو ما يزال أبوك نائمًا..؟

أجبته بتوجّس:

– لا أظن ذلك، فقد سمعتُ صوتَه قبل أن تجيء.

ولم أكد أكملُ كلماتي، حتى سمعتُ أبي يدعو عمّي للدخول إليه..

جلسا في (ضيقة) البيت متقابلين..

111
العدد (7)
يناير
مارس
2018م

شعرت وكأن عمّي إبراهيم سيقول شيئًا، ولا يرغب أن يسمعهما أحد.

صعدتُ إلى أعلى البيت، واندسستُ في غرفتي، متلحفًا بغطاءٍ أكثر دفئًا ونعومة.. البرد ينخر مفاصلَ جسدي، ورأسي يضجُّ بالتساؤلات القلقة.

أرسل نظراتي تجاه نافذتي غرفتي..

وقد بدأت تخترقهما خيوطُ ضوءٍ ماتزال باردة.

شتاء قارس، وبرد جاف، لم أشهد مثله..

تجمّدت المياهُ في البيوت والسواقي..

واخشوشنت الأجسام والوجوه، ولم تحتمل جلودُنا تكاثف البرد، واكتنفَ حياتَنا الملل والضجر..

اجتمع الفقرُ والبؤس، ونَقَر البيوت الهوزُ، ولم تكشف الناسُ بؤسَها وجوعَها وقليلةٌ هي المنازلُ الميسورة حالُها، وأغلب النجع يتساوون في الجوع، ويطعمون بعضًا وقت الاكتفاء.

رغم كل شيء، لم يكنز بيت طعامًا.. دون أن يطعمَ البيوتَ المجاورة..

في خضم تساؤلاتي وقلقي، مما يحدث فينا وحولنا.

إذ صعقتْ عند سماعي صوت أمّي، قائلةً بعمق وتأثر:

- كيف يرضى أن يزوّجها من رجل لا يعرفُ عنه أيَّ شيء..؟

ضحكَ أبي وتنهّدَ بارتياح، وقال كمن هو غير مبالٍ:

- هذا الأمرُ لا يعنيني شيئًا.

قالت أمي بخوفٍ دافق:

- الأجدر بك أن تنصحَه.

رد بغضب وتساؤل:

- أنصحه..!

ثم صمت برهةً، وحملق بقوة في وجه أمي..

وقال بصوت غاضبٍ منذر:

- هذا شأنُه..

وحذاري أن تتفوهي بشيء كهذا، أمام الآخرين.

قالت أمي بصوت منقبض:

- لا يصحُّ أمر كهذا..

جزعت روحي واضطربت دواخلي.. صحيحٌ أنني لم أفهم، ولم أتبيّن ما سمعتُ..

فنفضتُ لحافي، وغادرتُ سريري، وقلتُ لأبي مستوضحًا عن الخبر الذي وصلني بغتة..

رد بصوت لا مبالٍ:

- تقدّمَ عريسٌ لهدى قاطعتهُ وخنقة تملؤني..

- لا.. رد أبي بتساؤل ممض:

وماذا يعنيك أمرٌ كهذا..؟

قلت بقلق وحنق:

- بل يعنيني كثيرًا.

قال أبي، كمن يستوضح شيئًا:

- ماذا قلت..؟

فقلت مؤكدًا كلامي:

- بل يعنيني..

- يعنيني كثيرًا..

وقفَ أبي ممتلئًا غضبًا ثم قال:

- أنتَ لستَ وليَّ أمرها.

ثم صفقَ البابَ بعصبية وتركنا، وغاب في صمته وعزلته.. وروحي تموت كل يوم، وتُقتل بأساليب وطرقٍ عدة.

السحر والجمال والفتاة الرائعة..

تُسلب من بين يديّ، وأنا أقفُ بخضوع وصمت.

كيف يحدثُ أمرٌ كهذا..؟!

يجب أن أحزمَ وأتدبّرَ أمري.. فالوقتُ يزحفُ، ويسرق روحي.. وقلبي يعيش موته والعذاب.

أوَ هل يخجلُ العشاقُ من حُبّهم، وأرواحهم تتلظى على جمر التشهّي.. وحرائق السهد والاشتياق..؟

أريد أن أصرخَ بملء صوتي، وأشقَّ جدران الصمت البائسة.. - كفى..

تعبتُ، ولا أرغب أن أموت وحيدًا.. وعيناي تتأملان موتي، ونهايتي التي أرادها لي أبي..

وحيد في غرفة باردة، تملؤني توترًا وسأمًا وتمنحني الصبر والتروي، وتهيئني للنوم برفقة فتاة، لا تدرك ما يدور حولها ويعتمل، مصيري معلقٌ بكلمة واحدة..

تضعني على سكّةِ الحياة، أو ربما تقودني نحو الهلاك، بمزاج تعس وكئيب.

كان المطرُ والثلجُ، يضرب الأبوابَ والنوافذَ، وعواصف تحمل صقيعًا وبردًا، وفي الأفق غيومٌ تلوّنُ وجهَ السماء، وفي داخلي ينبضُ قلب، يمتلئُ وجعًا وألمًا..

ليس سوى نفس، ونبضة قلب، تباعد بيني وبيت عمّي إبراهيم..

خطوة أو خطوتان وأحادث وأنظرُ وجهَ من أحبّ..!

أو سأنتحر أم أغادر منهزمًا، أجرُّ الخيبة، وجرح لا يبرأ أو ينطفئ..

---

١) المدخل الرئيس للبيت.

112
العدد (7)
يناير
مارس
2018م

حكايات من المشقاص

بين الحقيقة والخيال، وبين قصيعر والبحر يروي الأجداد قصصا لا تنتهي. ليست العلاقة ودية دائما. البحر سر وجود قصيعر. فلولاه ما قامت بلدة في هذا المكان. لكن البحر أيضًا أخذ من بيننا رجالًا لم يعدهم إلينا. ولم يخبرنا أماتوا أم ما زالوا أحياء ؟

زمن الساري والسناني

فائز محمد باعبّاد

انتهت هذه الحكاية قبل أكثر من مائة سنة، جرت أحداثها ربما في بداية حكم القعيطي، أبطالها، الأول: هو الساري بن هدوف بن حمد الهزيلي (من بيت العور بيت العسل) سكن منطقة المحجر وأقام فيها منطقة نفوذ امتهن القتل والتقطع وطغى وتجبر فخافه الناس حتى قيل إنه كان يطلق حميره في مزارعهم فلا يجرؤون على الجهر بالشكوى، ملك الساري فيما بعد أراضي زراعية منها بئر في المحجر كانت لآل النقيب اليافعيين أعطيت له مقابل مقامه في استرجاع حقوق لهم، فابتنى بجوار البئر حصنًا (جنوب غرب المحجر) ما زالت بقاياه ماثلة (ومازال البئر والحصن يسميان باسمه).

البطل الثاني: يدعى أحمد بن علي السناني البكري اليافعي قدم من يافع جنديًا لتثبيت الحكم القعيطي وترسيخ الأمن والسكينة في منطقة تغلي بالفتن والقلاقل، لكن السناني الشاب ترك مبكرًا الجندية خلف ظهره وتحول إلى حياة القتل والنهب والتقطع، وسبب هذا التحول -كما يقال- زواجه في المحجر من بنت مشقاصية من أسرة ثعينية من بيت العربي -بكسر العين- وكان أصهاره يتقطعون وينهبون ككثير من أمثالهم في ذلك الزمان، فطلب الحاكم القعيطي في قصيعر من الجندي السناني إحضارهم للتفاهم والمصالحة، فحضروا استرضاء لصهرهم، لكن الحاكم غدر بهم وأشهر جنوده السلاح عليهم وطلبوا منهم الاستسلام فلم يذعنوا وأشهروا بدورهم بنادقهم على الجنود ولم يبق إلا أن تنطلق أول رصاصة لتبدأ المعركة الرهيبة المكشوفة، في هذا المشهد طلب آل العربي صهرهم السناني ولم يكن موجودًا، وقالوا نريد أن نفهم فقط أكان على علم بما خطط له الحاكم القعيطي أم لا ؟، فقدم السناني فلما رأى البنادق مشهرة انحاز لأصهاره ووجه بندقيته مثلهم نحو الجنود زملائه ... ثم أخذوا يتراجعون رويدًا وبنادقهم مشهرة حتى ابتعدوا عن الجنود وعادوا إلى مواطنهم. انضم السناني إلى أصهاره في النهب والسلب والتقطع حتى وصل نشاطهم إلى الديس والحامي، وكان السناني الأخطر والأسرع والأكثر

بطشًا، واشتهر وأخاف الناس وأرهبهم فقد ذكروا أنه دخل الحامي لسرقة مستودع (حوش) فلما اقترب منه سمع أحدهم ينصح الحارس ويحذره من السناني فكأن الحارس استخف بالتحذير وتحدث بما لم يرق للسناني، فكمن له ثم هاجمه وأخذ من المستودع ما أراد، ثم قطع أذني الحارس ووضع على مكان أذنيه المقطوعتين رمادًا وتركه يتلوى من الألم. كان نشاط السناني أشد وجعًا؛ لأنه كان يعلم مواضع ضعف الدولة وقوتها لكونه كان جنديًا، فأقلق الرجل السلطنة ووصل به الأمر لضرب الجنود ومهاجمتهم في حصونهم.

أمام كل هذا لم يجد الحكام القعيطيون حلًا للسناني إلا التفكير في اغتياله إذ كان القبض عليه حيًا أشبه بالمستحيل، بحثوا عن قاتل مأجور فلم يهتدوا إلا إلى الساري بن هدوف؛ إذ لا ندّ - فيما يبدو - للسناني إلا الساري، الذي استدعي إلى الريدة لمقابلة الحاكم القعيطي هناك فذهب برفقة أخيه من الأم علي بن الحصين بن القرن العجيلي، انتهت المقابلة وعلم الساري أن المطلوب قتل السناني مقابل ثلاثمائة قرش (وكان مبلغًا لا بأس به وقتها). كان الساري العجوز يعلم بقدرات السناني الشاب وبصعوبة المهمة لكنه وافق تحت ضغط النقود فيما يظهر، انطلق الساري وشريكه ابن الحصين إلى المحجر على حمار لهما ووصلا لمنطقة تسمى (البحاري - بالتحديد بين بئر العسيلة والرباط -) كان الوقت عصرًا قبيل غروب الشمس، السناني كان في خيمة له بالقرب من مزارعين يجمعون محصول (البطاطة)، ويبدو أنه علم بخبر استهدافه والظن أنّ مَنْ سرّب له الخبر أحد الجنود الذين يعرفهم من داخل أروقة الحكم القعيطي، لكن غلبه الشك لعلاقة الاحترام التي كانت بينه وبين الساري فلم يصدق السناني أن الساري سيأتي ليقتله حتى ذكروا أنه قال: (ما الذي بيني وبين عمي الساري لكي يقتلني ؟) كان الاحترام والتقدير بين الرجلين الخطرين ظاهرًا لا يخفى، لكن الله العادل سبحانه أراد أن يضرب الظلم والتجبر بعضه ببعض ليعتبر المعتبرون.

المشهد الأخير:

فيما وقف السناني يراقب تقدم الرجلين منه وعينه على بندقيته، كانت خطة الساري وأخيه استخدام الخنجر (الجنبية) غيلة فلم يشهروا بنادقهم كي يطمئن الرجل، لكنهم لاحظوا تنبه الرجل وحذره فبقي الساري على هدوئه في حين ارتبك الأخ العجيلي وأراد أن ينهي المهمة مع تجنب الاحتكاك المباشر بالسناني فأشهر بندقيته وأطلق عليه رصاصة لم تصبه وقيل أصابت أصبعه، فاستل السناني جنبيته وقفز نحوهما قفزتين بالعدد - كما يذكر- فطعنهما في بطنيهما في ضربتين سريعتين ثم استوى قائمًا يرقص بخنجره محتفلًا فرحًا بانتصاره، وفي غمرة الرقص سقطت عمامته فتعثر فيها وسقط بجوار الساري المضرج في دمائه فأراد السناني احترازًا أن يثني الطعنة لكن الساري بما بقي لديه من قوة أمسك بيده ثم أغمد خنجره من أيسر صدره لنصفه حتى أتى على بعض أضلاعه، قيل إن السناني قال مستغيثًا بقاتله: (ما هو بها يا عم الساري)، فرد عليه الساري (اليوم مسراحنا واحد)، أي: اليوم سنرحل عن الدنيا سواء، انتهت المواجهة. فأما العجيلي فمات من فوره، وأما السناني فأخذه أصحابه إلى خيمته بعد أن وضعوا رباطًا حول صدره، وأما الساري فحمل إلى حصنه ووضع رباط على بطنه، ولم تكن الخيمة والحصن بعيدين عن بعضهما البعض.

بقي الساري في حصنه يغلي منشغلًا بالسؤال مرددًا: هل مات السناني ؟ هل مات السناني ؟ هل مات السناني ؟ ... حتى أشفقوا عليه لكن لم يجرؤ أحد على الذهاب لخيمة السناني للتأكد، انتصف ليل ذلك اليوم وما زال الساري يسأل، وبعد منتصف الليل امتلكت بنت للساري الشجاعة لتخرج من الحصن في الظلام تريد أن تطفئ لهب السؤال المعلق في حنجرة أبيها تلصصت - قيل برفقة ابن عم لها - حتى وصلت لخيمة السناني، فالعجب أنها لم تجد أحدًا حول الخيمة، دلفت للداخل فإذا بالسناني وحده ممددًا مستلقيًا على ظهره وفي يده خنجره مرفوعًا فوق رأسه، فخافت في البدء لكنها تقدمت بشجاعة نادرة حتى اقتربت منه فأمسكت بيده التي تحمل الخنجر -حذرًا- لكنها وجدت يدًا وأصابع متصلبة ورجلًا قد فارق الحياة منذ فترة، ذهبت لأبيها تزف له البشرى، ولما علم الساري بأن مهمته الأخيرة التي دفع من أجلها حياته قد أنجزت طلب فك الرباط من على بطنه، فقال له أهله: سنعالجك، فرد عليهم قائلًا: (ما بعد طعنة السناني عافية).

في اليوم التالي خرجت ثلاث جنائز دفنت في ثلاثة قبور متوازية في مقبرة (كنيبة) بالمحجر، قيل حسب وصية الساري الذي أوصى أيضًا بأن تكون كل تكاليف الجنائز من ماله، طوى هذا المشهد صفحة سوداء، لكن لحقت المشهد الأخير مشاهد أخرى خارج زمن الساري، إذ قتل اثنان من أبنائه بعد مقتله في قضايا طلب ثأر، في حين هرب الثالث لسواحل أفريقيا هربًا بحياته، هذه أهم تركة يمكن أن يخلفها رجل كالساري لورثته دائمًا بلا نهاية.

توقيع قلم

(كُل قرصك وادخل خُلْصك)

عزيزي القارئ.. العنوان لا يدخل في باب فعل الأمر عليك إنما هو من الأمثلة الحضرمية (النصائحية) ربما كان المعادل الموضوعي أو المقارب له ما يتردد عند الكثير من الشعوب العربية في قولهم: (كُن نملة تأكل سكر) وبلهجة الحضارمة: (قع ذرة تأكل سكر)، ورغم أن هذه المقاربة قد تؤدي الغرض منها لكن لا بأس من فك شفرات لفظتي (قرصك- خلصك) أما قرصك فهو رغيف الخبز المعروف، ويقصد ب (خلصك) :جحرك أي مكان سكنك، ولأن لفظة(خلصك) تحيل عادة في الثقافة الشعبية إلى الفتحات الصغيرة، والتشققات في الجدران والسطوح حيث مأوى الحشرات، فإن العنوان (النصيحة) أقرب إلى الشتيمة منه إلى النصيحة لقوم يتفكرون.

سيقول البلغاء من أصحاب هذه النصيحة (قرصك- خلصك) إن الحكمة تقتضي في أوقات معينة أن يضرب الإنسان على نفسه الذلة والمسكنة حتى يسلم من الشر والأشرار وأن النجاة والخلاص في (الخلوص) وبمنطق هؤلاء البلغاء غير المعلن وامتداداً للنصيحة فإنه يجب على المنصوح التعامل مع ما يجري خارج (خلصه) وكأنها أحداث في مجرة فضائية بعيدة أو في دولة شقيقة في أحسن الأحوال.

وتسود هذه الثقافة التي تدعو للخنوع غالبًا في المجتمعات المستبدة والمتخلفة حيث تلقي الفوضى فيها بأطنابها، ويضعف الأمن العام، ويختل ميزان العدالة أو يغيب، وفي حضرموت كبقية البلدان التي مرت بمراحل التخلف والاستبداد ظهرت ثقافة (الخلوص) وبخاصة عند صنف منهم لا يستطيعون ضربًا في الحياة، ولا يذودون عن أنفسهم اعتداءات المعتدين ومع هذا نجد أن ثقافة الخلاص الفردي حاضرة في العقلية الجمعية لهذا يُسمع على سبيل الحكمة وفي مناسبات معينة القول : (من خاف سلم) بيد أن لفظة الخوف هنا أقرب من حيث الدلالة إلى لفظة الحذر الإيجابية، وقد تتداخل اللفظتان (الخوف-الحذر) من حيث الفهم والفعل لكن الإفراط في الخوف يسحب صاحبه إلى (الخلوص) بينما الحذر يدفع إلى الأخذ بالأسباب وعناصر الحيطة التي تؤدي إلى السلامة أو تقليل نسبة المخاطر، وعلى العموم فإن الاستجابة للمواقف ترتبط بتركيبة الشخص نفسه وبالثقافة الخاصة بالتراتب الاجتماعي ففي داخل هذه التراتب توجد ثقافة تدعو إلى الدفاع عن النفس والأهل والمال بل أحيانًا تشجع على الاعتداء والعدوان.

(والخلوص) أو الجحور ليست بالضرورة مساحتها ضيقة بل قد تصل مسافاتها إلى آلاف الكيلومترات وقد تضم دولًا وشعوبًا، وبإطلالة سريعة على وطننا العربي وأمتنا الإسلامية سنجد أن منهم من مكثوا في (خلوصهم) أو كهوفهم قرونًا عديدة من السنين من غير أن يتقلبوا ذات اليمين أو ذات الشمال إلا قليلًا، حتى جاءتهم جحافل المستعمرين الأوروبيين، وسيطروا على الوصيد ثم قاموا لهم ناصحين أن أبقوا على (خلوصكم) ففيها خلاصكم لو كنتم تعلمون، وحقيقة الأمر فإن المستعمرين لم يخدعوهم بل كانوا أنفسهم يخدعون.

يا قوم: إن العدالة هي الحرية والكرامة والأمان، وإن التخلف يدمر المستقبل ولا يصنع الحاضر ولا يبني الإنسان . يا قوم : غيروا ما بأنفسكم حتى يغير الله ما بكم، يا قوم: متى ستكون ضمن الفعل الحضاري الإنساني؟ ومتى ستفرح في أوطاننا ولا نخاف؟ يا ناس: خلاصكم ليس في (خلوصكم) يا ناس: (خلوصكم) هي قبوركم .

أ. د. عبدالله سعيد بن جسّار الجعيدي

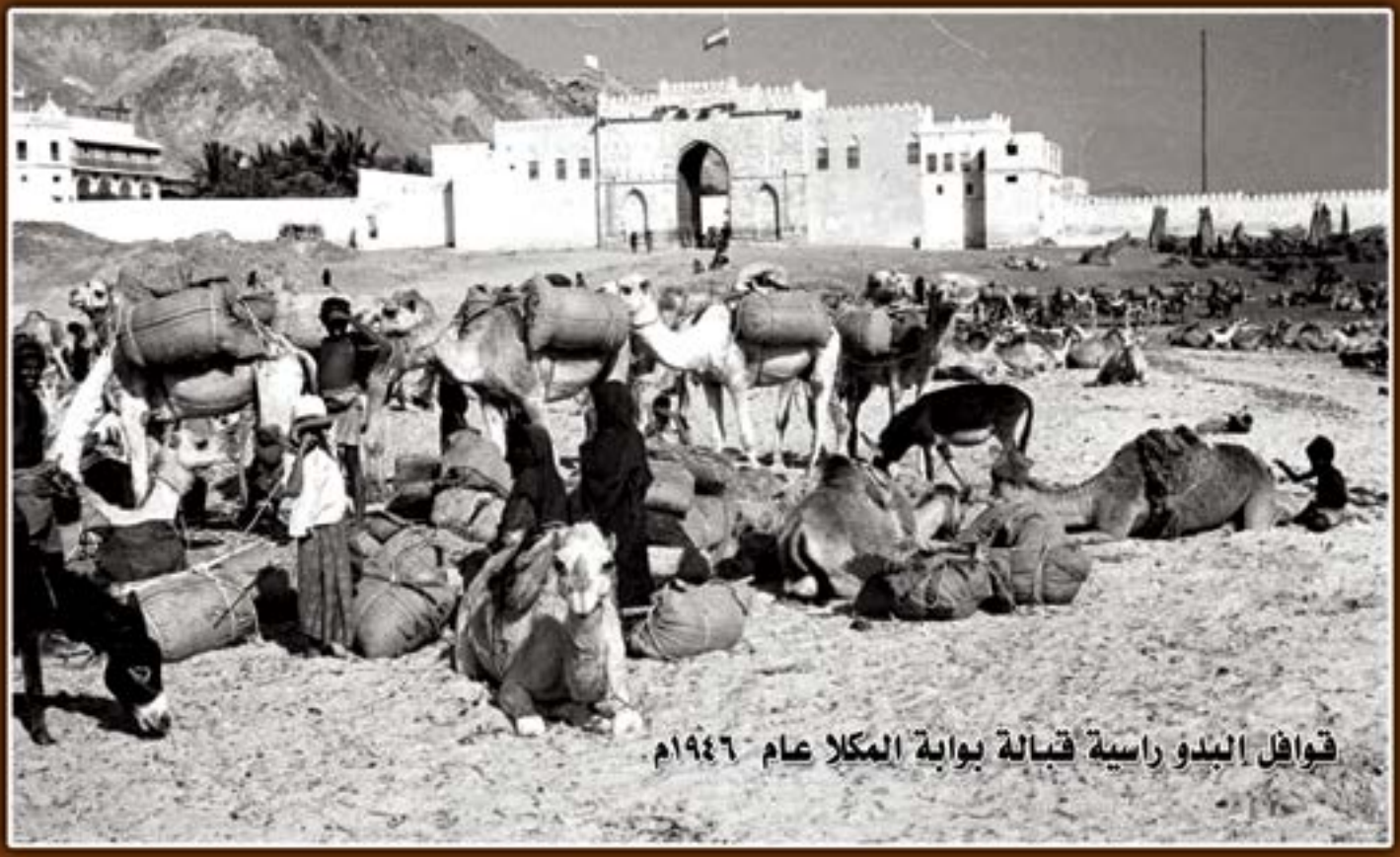

قوافل البدو راسية قبالة بوابة المكلا عام ١٩٤٦م

سوق شعبي في سيئون - حضرموت
من القرن الماضي

مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر

Hadhramaut Centre for Historical Studies
Documentation and Publication.

من إصدارات المركز